كتاب الهلال

د. رمسيس عوض

أدب الانشقاق
ألكسندر سولجنتسين
حياته و أدبه





كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دار الهلال



الأصدار الأول يونيو ١٩٥١

الإدارة

القاهرة . ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات: ص. ب: ٦١ العتبة . القاهرة . الرقم البريدى ١١٥١١ . تلغرافيا: المصور . القاهرة ج. م. ع.

تلكس:

Telex 92703 hilal u n

فاكس:

FAX: 3625469

العدد ٦٦٢ - فبراير (شباط) ٢٠٠٦ م

محرم ١٤٢٧ هـ - طوبة ١٧٢٢ ق

ثمن النسخة: سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١٢٥٠ فلسا - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١.٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١.٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣.٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات

البريد الإلكترونى:

darhilal @ idsc. gov. eg

أدب الانشقاق

الكسندر سولجنتسين

(حياته وأدبه)

د. رمسيس عوض

• دار الهلال •

الغلاف للفنان :
محمد أبو طالب

مقدمـــة

أدب الانشقاق. ترجمة للمصطلح الانجليزى Dissident litorature ومـــعناه ذلك النوع من الأدب الرافض للديكتاتورية السوفيتية بوجه عام وديكتاتورية جوزيف ستالين بوجه خاص ويعتبر البعض تروتسكى أول منشق عرفته الحياة السوفيتية فهو كما نعرف أول من شق عصا الطاعة على ستالين وهرب من روسيا السوفيتية حتى تمكن زبانية ستالين من اغتياله .

هاجر كثير من الأدباء الروس المنشقين من الاتحاد السوفيتى إلى الغرب على ثلاث موجات ينتمي الكسندر سولجنتسين موضوع هذا الكتاب إلى الرعيل الثالث من المهاجرين.

تبدا الموجة الأولى من المنشقين الرواد أو الأوائل الذين تمردوا على النظام فى العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين ، وتضم هذه الموجة الأولى من المهاجرين الروس عددا غفيرا من الأدباء على رأسهم الشاعر إيفان بوتين الذى كان أول أديب روسى يمنح جائزة نوبل للأدب فى عام ١٩٣٣ وعندما عصفت أحداث الحرب العالمية الثانية بالقارة الأوروبية اضطر الكثيرون منهم إلى مغادرة أوروبا والذهاب إلى أمريكا طلبا للإغاثة حيث ساهموا بنصيب

وافر، فى ثراء الحياة الثقافية هناك .

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية جاءت الموجة الثانية من المهاجرين الروس، ولكن أدباءها لم يكونوا يتمتعون بمواهب الرعيل الأول من المهاجرين وفى عام ١٩٧١ بدأت الموجة الثالثة من الأدباء المهاجرين الروس فى عهد بريجنيف واستمرت حتى عام ١٩٨٣ أي قبل تولى جورباتشوف السلطة في ١٩٨٥ ومما سهل هجرة هذه الموجة أن الحكومة كانت أشد ما تكون حرصا على التخلص منهم ومن وجع الدماغ الذى يسببونه لها ومن ثم بادرت بإعطائهم تأشيرات خروج من البلاد، واستقر معظمهم فى باريس وميونيخ وفيينا والولايات المتحدة وبعض البلاد الاسكندنافيه وانجلترا وسويسرا، ورغم الخلاف الفكرى الذى احتدم بينهم فالذى لا شك فيه أنهم كانوا جميعا يشتركون فى مقت النظام الشيوعى. والذى لا شك فيه ايضا أن هذه الموجة الثالثة ساهمت مساهمة ملحوظة في إثراء الفكر والثقافة الأوروبية أكثر ما فعلت الموجتان الأولى والثانية. ويعتبر الكسندر سولجنتسين - الذى طردته بلاده وجردته من الجنسية السوفيتية فى فبراير عام ١٩٧٤ على رأس هذه الموجة ولكن يجدر بنا أن الحياة الغربية لم تغير كثيرا من حياة سولجنتسين الذى ظل طيلة حياته سلافيا حتى النخاع دليل أنه آثر العودة إلى بلاده بعد سقوط الاتحاد السوفيتى.

د. رمسيس عوّض

القســـم الأول
١ - حياة سولجنتسين قبل نفيه من الاتحـاد الســـوفيتـــى

عائلة متمردة شديدة المراس :

* سولجنتسين إسم نادر لايحظى بالشيوع بين الروس يرى البعض أنه مشتق من فعل «شغميا» ومعناه يكذب باللغة الروسية ، الأمر الذى قد يوحى بأنه كنية عن الانتماء إلى عائلة من الكذابين .

ولكن باحثاً لغوياً من مدينة فورونيز فى المنطقة نفسها التي تنحدر منها العائلة آلي على نفسه أن يستقصى جذور هذا الاسم النادر فتوصل إلى أنه مشتق من SOLAD وهو الملث أو الشعير المخمر الذى يحتمل أن بعض أفراد العائلة كانوا يقومون بصناعته فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، كما توصل إلى أن هذا الاسم يستخدم فى تلك المنطقة للدلالة على شدة المراس .

ولد ألكسندر إيزايفتش سولجنتسين فى ١١ ديسمبر عام ١٩١٨ إبان الحرب الأهلية بين البلاشفة والروس البيض من أنصار النظام القديم ، وسط مذابح بشرية مروعة ، وفوضى ضاربة أطنابها ودماء تسيل على كل جانب فى منتجع صغير للاستشفاء أسمه كيسلوفودسك ومعناه «الماء المر» لم يزد تعداد سكانه آنذاك على عشرين ألف نسمة .

وهو منتجع يقع فى جبال القوقاز ويشتهر بطقسه البديع ومياهه المعدنية وجباله الجميلة الخالية من الأشجار التى أحبها ميخائيل ليرمنتورف (١٨١٤ - ١٨٤١) فصورها بحدب فى روايته النفسية «بطل زماننا» .

ويبدو أن التمرد الذى يجرى فى دماء عائلة سولجنتسين شيء مستأصل فيها تناقلته الأسرة جيلاً بعد جيل .

واتسم أجداده لأبيه الذين عاشوا فى منطقة فورونيز بالقوقاز بنزعتهم إلى الاستقلال .

وأظهر أحد أجداده الأوائل - واسمه فيليب سولجنتسين - ميلا إلى التمرد عام ١٦٩٨م فى عهد عاهل روسيا القيصر بطرس الأكبر الذى نفاه إلى فورونيز بتهمة الاستيلاء على

أرض يملكها بالقرب من موسكو وزراعتها دون تصريح منه ، مما أثار حفيظة هذا القيصر عليه ، فشن هجوماً عاتياً على القرية التي يسكنها فيليب وعشيرته وأحرقها حتى يرغمهم على الجلاء عنها .

ولكن هذا لم يخمد جذوة التمرد في نفوس عائلة سولجنتسين فقد تكرر الشيء نفسه بعد انقضاء نحو مائة عام على تمردها الأول ، فقامت حكومة القيصر بنفي جد آخر بسبب اشتراكه فى حركة عصيان أخرى .

ويذكر لنا مؤلفنا فى كتاباته كيف ثار هذا الجد على بعض أصحاب الأراضى أو المسئولين فى فورونيز فى المنطقة الشرقية من القوقاز حيث حصل هذا الثائر وأسرته على مايبغون من مزارع ومراع .

ولكن أصل الأسرة القوقازى جعل القوقازيين وهم فرسان ومقاتلون أشداء من أتباع القيصر ينظرون إليه وإلى عشيرته كغرباء ويعاملونهم بشىء من الزراية والاستعلاء لأنهم مجرد فلاحين حتى ولو كانوا ميسورى الحال .

كان جد أديبنا الكبير لأبيه فلاحاً اسمه سيميون يفلح

الأرض التى يمتلكها بمعاونة ولديه الأكبر سناً اللذين أنجبهما من زوجته الأولى، وهما كونستانتين وفاسيلى - أما شقيقهما الثالث ويدعى إيزاكى (والد أديب روسا العظيم) فقد أعرض عن الفلاحة والزراعة .

وأيضاً أنجب سيميون من زوجته الأولى أبنتين أسمهما إفدوكيا وأنستاسيا .

ومن زوجته الثانية أنجب ذلك الرجل ولدا يدعى إليا وبنتاً تدعى ماريا .

وكان فارق السن بين أولاده كبيراً فعلى سبيل المثال كان عمر كونستانتين أكبر أبنائه من زوجته الأولى يربو على العشرين عند ولادة إيزاكى (أى اسحاق) أصغر ابنائه منها. وبسبب اسمه الشبيه بأسماء اليهود، قابل إيزاكى فى حياته شيئاً من العنت فقد ظن البعض خطأ أنه يهودى .

فى حين يبدو أن السبب فى هذه التسمية اليهودية يرجع بكل بساطة إلى ولادة الطفل فى اليوم نفسه الذى تكرسه الكنيسة الروسية الأرثوذكسية لذكرى إسحق بن إبراهيم .

وبخلاف كل أخوته استطاع إيزاكى أن ينال قسطاً موفوراً

من التعليم ، ففى حين اقتصر تعليمهم على مدرسة الأبرشية كما اقتصر عملهم على مساعدة والدهم فى فلاحة الأرض، نجد أن إيزاكى يلتحق بالمدرسة الثانوية ليواصل تعليمه فى معهد بياتيجورسك .

واعترض والده على ذلك لأنه لم ير داعياً لأن يتميز ابنه إيزاكى عن سائر أخوته .

ورفض الأب رفضاً باتاً – لمدة عام كامل – أن ينفق درهماً واحداً على تعليمه ، ولكنه اضطر فى نهاية الأمر أن يرضخ ويستسلم أمام عناده وإصراره .

وفى عام ١٩١١م عاد الأب إلى الاعتراض مرة أخرى على رغبته وهو فى العشرين من عمره فى الالتحاق بجامعة خاركوف .

غير أن اعتراضه ذهب أدراج الرياح . ولكن إيزاكى لم يستمر فى الدراسة بهذه الجامعة الإقليمية عندما أدرك ضعف مستواها العلمى .

وفى عام ١٩١٢ استطاع إيزاكى أن يفرض إرادته ويسحق كل اعتراض يثيره والده فالتحق بالكلية الفيلولوجية

بجامعة موسكو حيث راقت له دراسة أدب ليو تولستوى، وتمكن بفضل جده واجتهاده أن يصيب قدراً كبيراً من العلم والثقافة أبعده عن جذوره الريفية وقربه من طبقة المثقفين من أهل المدن .

غير أن هذا لم يجعله ينسى أصوله الريفية بحال من الأحوال . وفى كتابه «أغسطس ١٩١٤» – الذى يتضمن جانباً من سيرة حياته – يذكر ألكسندر سولجنتسين أن والده كان يعود إلى القرية فى فترات إجازاته الدراسية للعمل فى فلاحة الأرض مع بقية أفراد العائلة .

ولكن مواصلته التعليم انتهت به إلى الابتعاد شيئاً فشيئاً عن أصوله الريفية ، مما حدا بأهل قريته إلى مداعبته وتذكيره بأنه لم يعد واحداً منهم ، فهو يرتدى ملابس سكان المدينة كما أنه يذهب مذهب المثقفين الشعبيين Populists الذين يعلون من شأن عامة الناس ويبرزون مالهم من فضل على الطبقة المثقفة . وبالرغم من أن أفكار الشعبيين ومبادىء الأديب المعروف ليو تولستوى كانت آنذاك تعتبر موضة قديمة فقد تركت فى نفس إيزاكى وابنه ألكسندر من بعده أعمق الأثر .

يتيم منذ ولادته :

حين اندلعت الحرب بين روسيا وألمانيا في أول أغسطس ١٩١٤، لم يكن هناك مايضطر والد ألكسندر سولجنتسين إلى الاشتراك فيها، فقد كان حينذاك معفيا من التجنيد بوصفه طالباً . ومما يزيد الأمر غرابة أن دعوة تولستوى إلى السلام والتآخى بين البشر التى أعجب بها إيزاكى لم تحل دون انخراطه في هذه الحرب .

ويروى لنا الأديب الكبير في كتابه «أغسطس ١٩١٤» شيئاً عن انخراط والده فيها . غير أن الأوراق الرسمية والسجلات المتعلقة بهذه الحرب لاتذكر لنا طبيعة الدور الذى لعبه إيزاكى فيها .

فكل مانعرفه فى هذا الشأن أن الحرب انتهت بمنحه ثلاث ميداليات، تشاء سخرية الأقدار فيما بعد أن تطلب زوجته بعد وفاته إلى ولدها الطفل ألكسندر أن يساعدها على دفنها وإخفائها عن العيون حتى لايظن أنصار النظام الشيوعى الجديد أن إيزاكى كان يتمتع بأى وضع مميز فى النظام القيصرى القديم فيمعنون فى اضطهادهما وإنزال المزيد من

الخسف بهما .

أظهر إيزاكى تعطافاً واضحاً نحو الجنود الذين كانوا تحت إمرته واستطاع أن يجعلهم يحبونه ويختارونه نائباً عنهم فى المجلس القومى الروسى الذى أنشىء حديثاً فى بتروجراد.

ولكن شعبيته مع الجنود لم تق زوجته سوء معاملة النظام الجديد لها وارتيابه فيها ، لا لشىء سوى أنها تنتمى إلى عائلة كانت قبل الثورة البلشفية عريضة الثراء تملك المزارع والضياع ويعمل على خدمتها عشرون خادماً وخادمة :

عشرة منهم يقومون بخدمة الأسرة داخل الفيللا الفخمة التى تقيم فيها، والعشرة الآخرون يتولون خدمتها من الخارج.

فضلاً عن عشرات الموظفين والمحاسبين والكتبة والعمال والميكانيكيين إلخ، الذين يديرون شئون المزارع والضياع .

وليس أدل على ثراء تلك العائلة من أنها كانت تمتلك رولزرويس هى واحدة من تسع سيارات فقط من هذا الطراز موجودة فى جميع أرجاء روسيا قاطبة .

ولم يرث زاخار شَشرباك رب العائلة كل هذا الجاة

العريض عن ذويه بل صنعه وهو الفلاح الأوكرانى الفقير بجهده وعرقه .

تعرف إيزاكى فى موسكو على شريكة حياته تايسيا زاخاروفنا فى أثناء إجازة قصيرة أخذها من الجيش ليقضيها هناك حيث كانت تدرس العلوم الزراعية فى أكاديمية جولتسين . قابلها إيزاكى فى احتفالات الطلبة فوقع فى غرامها من أول نظرة . وتم زواجه منها أثناء تجنيده فى أغسطس ١٩١٧ .

ولكن سرعان ما ترك زوجته ليعود إلى جبهة القتال كى يذود عن شرف الوطن .

هذا الشعور الوطنى الملتهب أصبح جزءاً من تراث العائلة، الأمر الذى ترك أعمق الأثر فى تكوين أديبنا الكبير حتى بعد مرور عشرين سنة . ولكن دون أدنى أية مقدمات ترك إيزاكى الخدمة العسكرية فجأة ليلتحق بزوجته التى كانت قد غادرت موسكو لتعيش مع أسرتها فى منتجع كيسلوفودسك بمنطقة القوقاز حيث عاشت تايسيا مع أخيها الأكبر رومان، المتزوج من قريبتها إبريفا فى بحبوحة ويسار . وفى هذا

المنتجع تعرف إيزاكى على حميه زاخار وحماته إيفدوكيا اللذين لم يكن قد رآهما من قبل واللذين اضطرتهما ظروف الثورة والحرب الأهلية إلى البقاء فى ذلك المنتجع والاحتماء فيه . وأيضا عاشت فى كيسلوفودسك ماريا أخت تايسيت الكبرى المتزوجة من رجل ثرى من أصحاب المزارع والضياع اسمه أفانسى كابوشين الذى استضاف زاخار وزوجته ليعيشا معه تحت سقف بيته .

ويبدو أن حياة الدعة فى ذلك المنتجع لم ترق فى عينى إيزاكى الذى اعتاد - شأن كل عائلة سولجنتسين - حياة البساطة والخشونة .

كما يبدو أيضاً أن خلافاته مع توجهات عائلة زوجته السياسية بدأت تظهر .

فقد كانت عائلة تايسيا زوجته تكره النظام الشيوعى الجديد الذى صادر ممتلكاتها فى حين يبدو أن إيزاكى أظهر تعاطفاً معه .

وفجأة قرر إيزاكى أن يترك المنتجع الصغير وأن يأخذ زوجته الحامل ليعود بها إلى مزرعة والده البسيطة فى

سابليا.

ولم يمض على وصوله إلى سابليا غير بضعة أسابيع حتى أصيب فى حادث أودى بحياته على نحو مأساوى عنيف فى ١٥ يونية ١٩١٨ قبل أن يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً بأربعة أيام وقبل ولادة ابنه بستة أشهر . ولاشك أنه من المفجع أن نعلم أن عشرة إيزاكي لزوجته لم تستمر أكثر من ثلاثة أشهر .

وهكذا ولد ألكسندر يتيم الأب ، الأمر الذى حز فى نفسه وترك فيها أبلغ الأثر .

ولاتزال تفاصيل الحادث غامضة . ففى الثامن من يونيه ١٩١٨ خرج إيزاكى للصيد مع صديق له .

ويبدو أن إيزاكى فى لحظة إهمال ترك بندقيته إلى جانب العربة التى يجرها الحصان (الكارتة) والتى كانت تقله . وفجأة تحرك الحصان فى هياج شديد إذ يبدو أن ذبابة لدغته. فانطلقت رصاصة طائشة من البندقية لتصيب إيزاكى في الصدر والبطن – وبسرعة تم نقله إلى أقرب مستشفى حيث أجريت له عملية جراحية باءت بالفشل وتلوثت جروحه

مما أفضى إلى وفاته فى غضون أسبوع واحد من دخوله المستشفى .

هكذا ترملت تايسيا الزوجة الشابة فى ريعان الشباب ، ومات والد ألكسندر فى فترة عصيبة من أحرج الفترات فى التاريخ الروسى على الإطلاق ، وهى فترة الصراع الدموى بين أنصار الثورة البلشفية وأعدائها .

ومن حسن حظ تايسيا أنها استطاعت عقب الحادث أن تستدعى أخاها رومان فى مدينة كيسلو ڤودسك على عجل فجاءها تصحبه زوجته إيرينا (وهى فى الوقت نفسه قريبة حميمة لها) ليقفا بجوارها فى محنتها . وكانت إيرينا نعم العون والصديق فقد كرست حياتها لتربية الطفل اليتيم الأب ألكسندر سولجنتسين ، الأمر الذى ترك فى هذا الأديب الروسى الكبير - كما أسلفنا - أثراً لاينمحى على مر الأيام .

عائلة ثرية ولكنها متدينة :

بسبب ثراء أسرتها الغابر عاشت تايسيا عيشه كلها معاناة وضيق وكرب فأصبحت وذووها لايغادرون المنزل خوفا

من هجوم الثوار عليهم . ولايكفون عن الصلاة ورسم الصليب حتى يقيهم الله شر مافى الغيب .

ولكن هذا لم يحل دون وقوع البلاء . فذات ليلة هاجمت عصابة من المسلحين البيت لتلقى القبض على رومان وتأخذه رهينة . وهو أمر ينطوى على المفارقة لأن رومان بالذات دون بقية أفراد عائلته كان أكثرهم تحرراً وليبرالية وعطفاً على النظام الجديد . فضلاً عن شدة إعجابه بأفكار كل من ليو تولستوى وماكسيم جوركى وشدة مقته للنظام القيصرى القديم . وزج به المهاجمون فى زنزانة .

ولولا إقدام زوجته إيرينا وجسارتها وتقديمها الرشوة لبعض رجال الحكم الجديد لتم بالفعل حكم الإعدام فيه . وعندما استولى البلاشفة على مدينة كيسلو فودسك لم يكتفوا بمصادرة أملاك عائلة تايسيا بل تعمدوا إذلالها .

وأسقط فى يد الأرملة الشابة فلم تعرف أين تذهب . فهى ترى النظام الجديد ينكل بعائلتها من ناحية كما أنها من ناحية أخرى لاتستطيع - وهى فى آخر أيام حملها - أن تلتجىء إلى عائلة زوجها التى تحيا حياة خشنة لا عهد لها

بها . ولم يكن موقف عائلة سولجنتسين من الثورة البلشفية بمثل ما كان عليه موقف عائلة تايسيا من الوضوح . فلا هى بثراء عائلة تايسيا بحيث تحمل المقت للنظام الجديد. ولا هى بالمعدمة بحيث تقف مع الثورة البلشفية وتتحمس لها . بل إنها كانت فى واقع الأمر مرتاحة أو مستورة الحال .

وأغلب الظن أن موقفها من النظام الجديد كان يتأرجح بين الرفض والقبول . وخاصة لأن القوقازيين الموالين للنظام القديم كانوا كما أسلفنا يعاملونها بعجرفة واستعلاء والجدير بالذكر أن انتشار الأوبئة عقب اندلاع الثورة البلشفية كان سبباً فى وفاة عدد كبير من عائلة ألكسندر سولجنتسين مثل جده لأبيه سيسيون وزوجته الثانية مارفا ومثل عمه ڤاسيلى وعمته أنستاسيا .

كانت عائلة تايسيا تستمسك بالدين إلى أبعد الحدود فقد اشتهر أبوها زاخار وأمهاإيڤدوكيا بشدة التقوى والورع والإيمان المطلق بتقاليد الكنيسة الأرثوذكسية .

كما كانت إيرينا شديدة الإيمان بالدين منذ نعومة أظفارها . غير أن موقف تايسيا والدة أديبنا من الدين كان

مختلفاً .

ففى موسكو حيث تلقت تايسيا تعليمها اتجه المثقفون الروس إلى نبذ الدين والزراية برجال الكنيسة . وسايرت والدة سولجنتسين هذه الموضة الفكرية المناهضة للدين فى صدر شبابها .

غير أن الأهوال التى شاهدتها فى أثناء الحرب الأهلية وتنكيل النظام الجديد بها سرعان ما جعلها ترتد إلى حظيرة الدين .

ففى منتجع كيسلو ڤودسك وجدت نفسها وقد حاصرتها القوات البلشفية من كل جانب . وفى عام ١٩٢٠ تعرضت عائلتها للهلاك جوعاً ، الأمر الذى اضطرها إلى بيع أثاث بيتها حتى تشترى به مأكلها . وفى شتاء ١٩٢١ نفدت نقود تايسيا تماماً فاستطاعت بعد لأى أن تجد وظيفة سكرتيرة بعد أن تعلمت الاختزال والآلة الكاتبة فى ظروف أشد ما تكون صعوبة وقسوة .

ولعل الطفل ألكسندر كان الوحيد الذى لايدرى طبيعة الأهوال المحيقة به . ومن ثم نراه لايزال يذكر إلى يومنا

الراهن تلك الأيقونة المعلقة فى ركن حجرته التى أدخلت فى نفسه السكينة والطمأنينة والهدوء وهى تطل عليه بوجهها القدسى المشرق .

وعندما يبدأ النعاس فى مغالبته كان الطفل يشعر بالأيقونة المتدلية وكأنها ملاك حارس يحلق فوق سريره ويحميه من كل الشرور . ولم يكن هذا الطفل بطبيعة الحال يدرى ما تتعرض له أمه من خسف واضطهاد دون أى سبب واضح غير ثراء أهلها وذويها السالف مما دفعها إلى مغادرة منتجع كيسلو قودسك والاستقرار فى مدينة كبيرة أوسع وأرحب هى مدينة روستوف - على الدون - تتوه فى زحامها.

كانت روستوف - على الدون - آنذاك مدينة صناعية مشهورة بإنتاج التبغ وصناعة الورق والجلود ويبلغ تعداد سكانها ربع مليون نسمة .

كما كانت مرفأ ومركزاً ثقافياً وتعليمياً فقد اشتملت جامعة روستوف فى ذاك الوقت على أقسام الطبيعة والتربية والعلوم الاجتماعية والفيزياء والرياضات . وشهدت هذه المدينة

إبان الحرب الأهلية قتالاً دامياً وأحداثاً عنيفة بين الروس الحمر والروس البيض يصفها الأديبان الكبيران إسحق بابل فى كتابه «الفرسان الحمر» وميخائيل شولوخوف فى روايته «الدون الهادىء» .

وفى عام ١٩٢٠ تمكنت فرقة الفرسان الحمر بقيادة سيمين بودنى أن تستولى على هذه المدينة وتنتزعها من قبضة الجيش الأبيض . ومن المؤسف أن والدة أديبنا لم تنجح فى أن تتوارى عن الأنظار لتتجنب الخسف والاضطهاد فقد ظل عنت السلطة الحاكمة الجديدة يلاحقها حتى فى ذلك المرفأ الكبير . فرفضت إعطاءها مسكناً رخيصاً من مساكن الدولة، الأمر الذى اضطرها إلى استئجار منزل شديد التواضع من القطاع الخاص بأعلى الأسعار عاشت فيه نحو اثنى عشر عاما فى الفترة من ١٩٢٤ حتى ١٩٣٦ . ولأن عملها كسكرتيرة في هذه المدينة لم يكن يدر عليها مايكفيها من دخل فقد اضطرت إلى إنهاك بدنها فى مواصلة العمل خارج البيت وداخله حتى تتمكن من الوفاء بالحد الأدنى من متطلبات الحياة .

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نؤكد أهمية مدينة روستوف التجارية فى الفترة السابقة على الثورة البلشفية، فقد كانت ميناء لتصدير الفائض من المنتجات الزراعية فى روسيا الجنوبية واستيراد البضائع وجذب الاستثمارات من بلاد أوروبا الغربية الغنية .

ولكنها استطاعت عقب انتهاء الحرب الأهلية بين الروس الحمر و الروس البيض أن تحتفظ بشىء من سالف نشاطها وأن تعود إلى حالتها الطبيعية، فلا غرو أن تعلق بها قلب الطفل ألكسندر وأحب فيها جوها الليبرالى المتفتح الذى اختلطت فيه جنسيات متعددة قوقازية ويهودية ويونانية وأرمنية .

وتميزت روستوف عن غيرها من المدن الروسية بتلقائيتها واستقلالها وتنافسها التجارى وجنوح أهلها إلى اغتنام مباهج الحياة . ولهذه الأسباب جميعاً قاومت هذه المدينة بشدة استيلاء البلاشفة عليها لدرجة أن الروس أطلقوا عليها اسم – مدينة الحرس .

ويذكر لنا ألكسندر سولجنتسين أنه فى طفولته لم يجد له

أبا في العائلة فاستبدل به جده لأمه الذى يرى أنه ورث عنه ذلك الفيض الهائل من الطاقة .

فضلا عن أنه تأثر بلهجته الأوكرانية التي لازمت أديبنا حتى يومنا الراهن . وتعلق ألكسندر أيضاً بجدته لأمه التى وصفها بأنها امرأة لها قلب مفعم بالطيبة والحنان النادرين . أما إيرينا خالته فقد أرضعته عشقه الباكر للكنيسة الروسية الأرثوذكسية وبينت له معنى وجمال طقوسها وتقاليد هذه الكنيسة العريقة التى استمرت موصولة عبر الزمن، كما بينت له أهمية الدور الذى لعبته فى صياغة التاريخ الروسى كله ، وهو تاريخ لايمكن بحال من الأحوال فصله عن تاريخ روسيا القومى .

غير أن الطفل وجد نفسه نهباً مقسماً يقف حائراً بين أمه التى تزور عن الماضى وتسعى جاهدة لدفنه، وحرص زوجة خاله إيرينا على إحيائه وتأكيد روعته . فقد كانت تايسيا أيام الدراسة فى موسكو متحررة فى أفكارها الدينية ولكن الأهوال التى مرت بها فى فترة الحرب الأهلية ردتها إلى حظيرة الإيمان .

سولجنتسين بين الثقافتين الغربية والروسية :

والذى لاشك فيه أن مصرع والده قبل ولادته ساعده على النضج الباكر والاعتماد على النفس واكتساب شخصية مستقلة وبمجرد أن أصبح الطفل يافعاً بدأ يعين أمه المنهوكة فى قضاء حاجاتها والوقوف فى طوابير طويلة من أجل الحصول على الخبز ، وبعض السلع الأخرى . ويرجع تمرده على كافة أنواع السلطة ومقتها، سواء كانت سلطة الأباء أو المعلمين أو السجانين، أو اتحاد الكتاب، إلى استقلال شخصيته . ولعل السلطة الوحيدة التى رضخ لها هى سلطة الله سبحانه وتعالى .

لقد كان بإمكان أمه الشابة أن تتزوج مرة ثانية واحداً من الرجال الكثيرين الذين جاءوا يخطبون ودها .

ولكنها رفضتهم جميعاً بزعم أن مثل هذا الزواج سوف يكون عائقاً أمام تربية ابنها ألكسندر تربية سليمة .

قال سولجنتسين فى سنى نضجه إن أمه أخطأت عندما رفضت الزواج مرة أخرى وإنها بالغت فى مخاوفها من مثل هذا الزواج دون مبرر ، فالرأى عنده أن الطفل لايضيره أن

يعامله زوج أمه بشيء من الحسم والحزم ، وبالرغم من أن الأم طلبت من طفلها أن يساعدها فى إخفاء الميداليات الثلاث التى حصل عليها أبوه إبان الحرب الروسية الألمانية حتى لاتنتبه الثورة البلشفية إلى أصولها العائلية الاجتماعية المتميزة ، فإنها لم تمل من أن تكرر على مسامع وحيدها قصصاً عن شجاعة والده وبطولته ، الأمر الذى سوف يجعل الابن يقتدى بأبيه ويحذو حذوه فى الحرب العالمية الثانية .

لم يكن ألكسندر فى يفاعته منطوياً على نفسه عازفاً عن الناس فقد شارك أقرانه اللعب والمرح . ولكنه بمجرد انتهائه من اللعب كان يعيش فى عزلة كاملة ينصرف فيها إنصرافاً تاماً إلى القراءة والاطلاع يساعده على هذا أن خالته إيرينا تملك مكتبة كبيرة طالع فيها أعمال بوشكين وجوجول وتولستوى ودوستيوفسكى وتورچنيف إلى جانب معظم الكلاسيكيات الروسية . وهو ما سوف نتناوله بالتفصيل فيما بعد . يقول سولجنتسين إنه قرأ «الحرب والسلام» وهو فى العاشرة من عمره .

وأصبح تولستوى فى نظره المثل الأعلى بين الكتاب

الروس. وفى تلك الفترة من حياته قدمت إليه إيرينا نسخة من مجموعة «الأمثال الروسية» التى وضعها ڤلاديمير داهل والتى حازت إعجابه الشديد . وعبر أديبنا عن إعجابه الشديد أيضاً بطائفة كبيرة من كتاب الغرب على رأسهم شكسبير وشيلر وديكنز إلى جانب چاك لندن الذى ذاع صيته بين الروس قبل الثورة البلشفية وبعدها .

فلا غرو أن أحب سولجنتسين إيرينا زوجة خاله أكثر مما أحب خاله نفسه فقد أرضعته الحب والحنان ، ولأنها لم تنجب اتخذته ابناً لها وشجعته على الاطلاع وروت له غرائب القصص والحكايات وأزكت خياله وأشعلت وطنيته وحببته فى الماضى الذى أجهزت عليه الثورة الشيوعية . وهكذا اختزن الصبى فى مخيلته صوراً مجيدة ناصعة للماضى ظلت غائرة فى أعماقه نحو نصف قرن من الزمان لتظهر بعده فى أعماله الأدبية العظيمة .

تفوق دراسى مبكر :

عندما كان ألكسندر سولجنتسين فى السابعة من عمره كان لايزال يعلق صليبا حول عنقه . وفى عام ١٩٢٦ التحق

بواحـــدة مـن أحـــسن المدارس فى روســتــوف يديرهـا ناظر محبوب وموهوب اسمه فلاديمير ماليفتش الذى ذاع صيته فى عالم التربية والتعليم قبل اندلاع الثورة البلشفية وبعدها . وفى هـذه المدرســـة أصـــبح ألكسندر الطـالب الأثيــر لدى إلينا ملجورود ستيفا التى كنت أول مدرسة قيض له أن يتلقى العلم على يديـها والتى أسندت إليـهـا إدارة المدرسـة تدريس جمـيع المواد لتلاميذ المراحل الأولى .

وأحبها الصبى حبا بلغ درجة العبادة . وسرعان ما أظهر الصبى تفوقا على أقرانه فى الفصل .

وبحلول عام ١٩٣٠ حدث تغير كبير فى هذه المدرسة فقد رأى البلاشفة ضرورة التخلص من ماليفتش ونخبة المدرسين الذين يتعاونون معه واستبدالهم بطاقم جديد موثوق به .

وفى نفس العـام أجبـر البـلاشـفـة مـاليـفـتش علـى ترك منصبه. وكذلك لقى نيكـولاى تشـرانوف مدرس الرياضيات - الذى ترك فى الصـبى أعمق الأثر - نفس المصـير . استطاع تشـرانوف أن يحـبـبـه فى دراسـة الرياضـيـات مما جـعله يتـخـصص فيـها بعد ذلك . وبعد انتهاء الحرب الأهلية لجأت

السلطات السوفيتية إلى إدخال ما اعتبرته إصلاحات فى النظام التعليمى . فقامت بإلغاء نظام الامتحانات الفردى واستبداله بنظام أمتحان جماعى تم بموجبه تقسيم التلاميذ إلى مجموعات مسند إلى كل فرد فيها مهمة اجتياز أحد المواد . وألغى النظام الجديد الكتب المدرسية القديمة واستبعد تدريس التاريخ من برامجه مستبدلا إياه بمادة أخرى هى الإعلام . وأدت هذه التغييرات إلى إشاعة الاضطراب والفوضى فى النظام التعليمى بأسره . ولكن من حسن حظ الطالب ألكسندر أن هذه الإصلاحات الثورية لم تدم طويلا فقد تخلى عنها البلاشفة قبل أن ينهى أديبنا تعليمه المدرسى.

وبالرغم من جذوره الدينية الواضحة تأثر سولجنتسين فى يفاعته بالماركسية اللينينية وبجو الثورة البلشفية العام المحيط به موليا ظهره لمعتقداته الدينية الباكرة التى اختفت مؤقتا تحت ركام الأيديولوجية الشيوعية وقرر وهو فى الثانية عشرة من عمره الانضمام إلى تنظيم «الرواد الشبان» – أحد أجنحة منظمة الشباب المعروفة بالكومسمول . غير أن نبذه لمعتقداته

الباكرة لم يكن بالأمر الهين أو اليسير . فقد ظل فى طفولته يعلق صليبا حول عنقه حتى العاشرة من عمره .

إرهاصات أدبية :

كان سولجنتسين فى يفاعته يحلم بأن يصبح ممثلاً يجلجل صوته فوق خشبة المسرح . ولكنه وجد أن حباله الصوتية ضعيفة لا تصلح للإلقاء المسرحى وترك ولعه الباكر بالمسرح أثراً ملحوظاً فيه . فألف أربع مسرحيات وسيناريو لفيلمين فضلاً عن حبه لحفظ النصوص . ونحن نراه فى أوج عظمته فى موسكو لا يحب شيئاً مثل قراءة أعماله بحيوية دافقة أمام جمع خاص من المعجبين والأصدقاء . وعندما أصدرت السلطات السوفيتية أمراً بنفيه إلى الغرب عام ١٩٧٤ سجل بصوته نص قصيدته السردية الطويلة بعنوان «ليال بروسية» . وقد ظهر ميله للكتابة فى التاسعة من عمره ولم يكف بعد ذلك عن مواصلة التأليف . كتب سولجنتسين أول قصة له بعنوان «القراصنة» عام ١٩٢٨ . ثم أعقبها عام ١٩٢٩ بقصة أخرى بعنوان «السهم الأزرق» و «قصة من الخيال العلمى» . وفى تلك الفترة سطر أول صحيفة أدبية فى حياته بعنوان «القرن

العشرون» نشر فيها قصة طويلة مسلسلة بعنوان «القرصان الأخير» ولكن هذه الصحيفة ما لبثت أن توقفت عن الصدور حتى شهر يناير ١٩٣٢ عندما أصدر صحيفة أخرى بعنوان «الجازيت الأدبى» استمر صدورها لمدة عامين ونشر فيها مسرحية كوميدية فى فصلين بعنوان «المأدبة» إلى جانب مغامرة من الخيال العلمى بعنوان «أشعة» . وفى عام ١٩٣٤ كتب قصة أخرى بعنوان «ميخائيل سينجوف» تدور أحداثها حول أحد الممثلين .. ونظم فى الوقت نفسه عدداً كبيراً من القصائد والأشعار جمعها فى مجلد واحد أسماه «أشعار ١٩٣٢ - ١٩٣٦» ثم أطلق عليه اسماً آخر هو «أشعار مرحلة الشباب» الذى يضم بين دفتيه مجموعة من النكات والأقوال الموجزة البليغة الذكية وبعض القصائد ذات الطابع الشخصى والحميم للغاية . فضلا عن أنه جمع عدداً من قصصه الباكرة بعنوان «التراجيديات ذات الأثر العميق».

كان رومان - خال الكسندر سولجنتسين - يمجد الأديب الكبير ماكسيم جوركى ويعتبره أعظم شأنا وموهبة من ليوتو لستوى نفسه . وفى أواخر العشرينيات أعلن جوركى

رأيا لقى رواجاً شعبياً كبيراً مفاده أن بمقدور كل إنسان أن يصبح أديباً لو وجد الفرصة والتشجيع المناسبين ، الأمر الذى جعلّ رسائل الأدباء الناشئين والهواة تنهمر عليه . ونحو عام ١٩٣٢ أرسل الغلام الكسندر إلى خاله رومان وزوجته إيرينا خطاباً مطولا عن الرحلة التى قام بها مع تنظيم «الرواد الشبان» ، إلى شاطئ البحر الأسود وعن مشاهداته وانطباعاته هناك . فحاز هذا الخطاب إعجابهما فبعثا إلى ماكسيم جوركى ليقول رأيه فيه . وجاءهما رد مشجع من سكرتير جوركى فحواه أن الخطاب ينم عن الموهبة . وفى خريف ١٩٣٧ كتب «مذكرات راكب دراجة» يصف فيها رحلة دامت شهراً قام بها مع ستة من أصدقائه فى منطقة القوقاز . ومن الطريف كيف حصل الغلام ألكسندر على دراجته . ففى عام ١٩٣٦ رشحه ناظر مدرسته للحصول على إحدى جوائز التفوق الدراسى . وأبلغ الإدارة التعليمية بشأن هذا الترشيح . غير أن اسمه سقط من قائمة المرشحين للجوائز التى أعدتها الجهات التعليمية المسئولة ، الأمر الذى أثار حنق ناظر المدرسة وسخطه ، فأرسل إليها يحتج على تجاهل

مرشحه . وأرادت الإدارة التعليمية تدارك هذا الخطأ فأرسلت إلى محلات بيع الدراجات فى المنطقة التى يسكن فيها الغلام تأمرها بصرف دراجة بصفة استثنائية له . ولما كانت هذه المحلات تعانى من النقص الشديد فى الدراجات وغيرها من السلع فقد تعين عليه انتظار دوره لفترة طويلة حتى تصل شحنة جديدة من الدراجات . وأبلغه أحد معارفه فى محل بيع الدراجات أن الشحنة الجديدة وصلت لتوها . فاتفق الغلام مع اثنين من أصدقائه الشبان أن يبيتوا ليلتهم أمام المحل ليكونوا أول الداخلين إليه فى الصباح على رأس الطابور الطويل المنتظر . وهكذا حصل الغلام على هذه الهدية النادرة التى تجول بها عام ١٩٣٧ مع أصدقائه فى منطقة جبال القوقاز بالقرب من تبليسى .

وتدلنا «مذكرات راكب دراجة» أنه فى صدر شبابه قبل الأيديولوجية الشيوعية على علاتها وأنه آمن بها إيماناً تاماً . وتتضمن هذه المذكرات قدراً واضحاً من الدعابة والمواقف الفكهة التى تعرض لها هو وأصحابه وهم فى الطريق إلى زيارة مسقط رأس ستالين فى جورى بجورجيا مثل إصابة

إطار دراجتـه بالثقـوب أثناء انهـمـار المطر عليـهم . وتدل المذكـرات كذلك على تمتـعـه بالقـدرة على الكتـابة على نـحـو عاطفـى غنائى وعلى سعة اطلاعه فـهـو يذكـر لقرائه الأماكن التى سبق أن زارها كبار الأدباء الروس : بوشكين وليرمنتوف وليـوتولسـتوى فى تلك المنطقـة . ونعـرف من «مـذكـرات راكب دراجـة» أنه يحب زيارة المقـابر لأنـها تـعلمـه الصـدق مـع النفس وتعـريه من كل زيف . ويشـرح لنا أسبـاب كتابة هذه المذكـرات فيقول لنا إنـه فى فترة الإعداد لامتحانات الرياضـيات وانكبابه على دراسـتـها كـان الضـيق والسـأم يعـتـريانه ويفسـدان عليـه مـزاجه ، فلم يجد ما يعينه على التغلب عليـهمـا غيـر كتـابة تلك المذكرات . وعندمـا أقدم سولجنتسين فى يفاعته على كتابة أول رواية طويلـة شـعـر بعـجـزه الكامل عن الأنتـهـاء منـها . وجـهـد جهيد لم يتمكن من أن يسطر غير عبارة واحدة منها ثم توقف القلم بعدها تماماً . وهاله مـا هو فيه من عجز فقرر بينه وبين نفسـه ألا يسـمح لنفسـه أبداً فى المستقبل أن يبدأ بكتـابة شئ دون أن يكمله حـتى لو كان القـارئ الوحيد لنفسـه . وفى ١٨ نوفمبر ١٩٣٦ عندمـا كـان فى الثامنة عشرة من عمره قرر أن

يكتب رواية كبيرة عن الثورة الروسية وهي فكرة أكثر تواضعا وواقعية من طموحه الطفولى الباكر لفهم القرن العشرين واستكناه معناه . واضطرته كتابة هذه الرواية إلى البحث فى بطون الكتب حول أهم المعارك العسكرية التى دارت بين الروس والألمان فى الحرب العالمية الأولى ، وسر اندحار الروس فيها ، وتوصل الغلام إلى معركة حاسمة هى معركة تاننبرج فيما كان يسمى ببروسيا الشرقية (ألمانيا الآن) التى شاهدت انهزام واحد من أشرف الجنود الروس وأشجعهم وأكثرهم وطنية لا لعيب فيه ولكن بسبب فساد رؤسائه وعدم كفاءة الجيش الروسى من ناحية وفساد البلاط القيصرى من ناحية أخرى . وفى ١٩٣٧ ألحت عليه فكرة تأليف ملحمة روائية كبيرة من منظور شيوعى تدور حوادثها حول الثورة البلشفية على غرار رواية تولستوى «الحرب والسلام» . وفى حياته الأدبية اللاحقة استقى سولجنتسين من مسودات هذه الرواية الباكرة مناظر ومواد ضمنها كتابه عن سيرة حياته المعروف باسم «أغسطس ١٩١٤» ويفضل تفوقه فى المدارس أمكنه الالتحاق بالجامعة دون أن يتعين عليه اجتياز أى من

امتحانات القبول التى كانت الجامعة تعقدها فى العادة للطلبة الجدد . وأخفى الفتى عن المسئولين فى الجامعة حقيقة أصل والده الاجتماعى فهو يقول فى هذا الشأن : «لم يكن بمقدورى أن أخبر أى واحد أن أبى كان ضابطاً فى الجيش القيصرى الروسى لأن هذا يعتبر عاراً».

بدايات أيديولوجية

انصرف سولجنتسين إلى دراسة الرياضيات والفيزياء فى مرحلة الدراسة بالجامعة رغم شدة حبه للأدب . وتحسنت ظروف أمه فى العمل فى أخريات أيامها ولكن كثرة العمل والإجهاد أصاباها بمرض السل . غير أن مرضها لم يحل دون سعيها إلى بذل المزيد من الجهد . فكانت تترك فراشها رغم ارتفاع درجة حرارتها وتخرج من البيت سعياً وراء الرزق من أجل أن توفر لابنها شيئاً من الأمان والراحة . وكثيراً ما كان الخلاف يدب بينهما بسبب نشاطه المتزايد فى منظمة الشباب الشيوعية المعروفة باسم (الكومسمول) . فلا غرو فقد كان سولجنتسين فى شبابه يدين بالمبادئ الشيوعية. وحالت ظروف الجامعة الإقليمية فى روستوف دون دراسة

الأدب الذى لم يكن جزءاً من مناهجها فقد اشتهرت هذه الجامعة بدراسة بناء السفن والهندسة والكيمياء والفيزياء . والجيولوجيا والعلوم التطبيقية . وكانت كلية المعلمين فى روستوف هى المكان الوحيد الذى يقوم بتدريس الأدب بهدف تخريج مدرسين يضطلعون بتدريسه فى المدارس . يقول كاتبنا فى هذا الشأن إنه لم يكن لديه أية رغبة فى أن يصبح مدرساً للأدب لتلاميذ المدارس وأنه وجد أن تدريس الرياضيات والعلوم بوجه عام أسهل عليه بكثير من تدريس الأدب . وفى الجامعة أظهر تفوقاً علمياً واضحاً . وحين بلغ السابعة عشرة من عمره انتقل من منظمة «الرواد الشبان» إلى منظمة «الكومسمول»، حيث انكب على دراسة الماركسية اللينينية» التى فتن بها لفترة من الزمان ، وهكذا أصبح سليل الجاه والثراء الذى نشأ وترعرع فى جو شديد التدين يناصب البلشفية العداء ، واحدا من أشد المتحمسين للشيوعية . ويبدو أن حماسه للشيوعية فى تلك الفترة الباكرة من حياته بلغ حداً جعله يتجاهل ما يحدث حوله من بشاعات ومظالم مثل القبض على فلاديمير فيدروفسكى صديق العائلة . ولم تكن الجامعة

آنذاك بمنجى من أعمال القمع والاضطهاد التى تعرض لها كثير من الأساتذة على يد الحزب الشيوعى والطلبة الشيوعيين مثل البروفيسور موردخاى - بولتوفسكوى عالم الرياضيات المعروف الذى أشار إليه سولجنتسين فى «الدائرة الأولى» باسم جوربابينوف شاخوفسكوى المعروف باستعلائه وتجاهله لتعاليم الحزب . ويروى مؤلفنا عن هذا العالم أنه بينما كان يقوم بتدريس نظريات نيوتن الأثيرة إلى قلبه ، وصلته ورقة تقول له : «إن ماركس كتب أن نيوتن يؤمن بالمذهب المادى فى حين أنك تقول عنه إنه مثالى» فرد بقوله : «كل ما يمكننى قوله إن ماركس كان مخطئا . فنيوتن - شأنه فى ذلك شأن العلماء العظام - كان يؤمن بوجود الله » . وفى مرة أخرى أخبره طلبته أنهم قرأوا هجوماً عليه فى مجلة الحائط فأجابهم بقوله : «لقد تعلمت من مربيتى ألا أقرأ ما يكتب على الجدران» .

حتى سولجنتسين نفسه رغم انخراطه فى المنظمات الشيوعية ونشاطه الملحوظ فيها لم يكن بحال من الأحوال فى مأمن من الجور والخسف . فقد ألقى رجال الأمن القبض عليه

أثناء وقوفه فى طابور فى انتظار الحصول على الخبز بزعم أنه واحد من مجموعة من المخربين الذين يسعون إلى إشاعة الذعر في نفوس الناس . ولكن سرعان ما أطلق سراحه . بل إن رموز النظام الجديد وأبرز شخصياته لم تسلم من الأذى وخاصة فى مرحلة المزارع الجماعية والتصنيع فى عهد ستالين . ففى عام ١٩٣٤ اغتيل كيروف أحد كبار المسئولين فى الحزب الشيوعى بإيعاز من ستالين . وفى عام ١٩٣٥ قدم المسئولان الشيوعيان الكبيران كامينيف وزينوفييف للمحاكمة . وشاهد عام ١٩٣٦ محاكمة الرعيل الأول من البلاشفة وعام ١٩٣٧ محاكمة بتياكوف وراديك وعام ١٩٣٨ محاكمة ريكوف وبوخارين وجميعهم من زعماء الحركة الشيوعية . وعندما يستعرض سولجنتسين شريط حياته الماضية نراه يفزع لمقدار ما كان لديه من أثرة وأنانية في صدر شبابه وتجاهله المشين لكل مظاهر الظلم والخسف التى رآها من حوله . كان – على حد قوله – يعيش وسط الطاعون دون أن يدرك ذلك . ورغم هذا فهناك فى كتابه «الدائرة الأولى» دلائل تشير إلى أنه منذ مطلع حياته لم يكن يصدق كل ما يقال عن جوزيف ستالين

من عبارات التعظيم والتمجيد . وفى خريف عام ١٩٣٨ أعطته إدارة البوليس السرى المعروف بـ NkVD فرصة الالتحاق بها . ولكنه لم يقبل هذا على نفسه وأبى أن يتحول إلى عميل للبوليس السرى رغم ما يجلبه عليه ذلك من التمتع بامتيازات مادية واجتماعية قد يحسده كثيرون عليها . كان سولجنتسين حتى فى شبابه متقشفاً بطبعه يأخذ نفسه بالخشونة والشدة ويبتعد عن مخالطة الجنس اللطيف كما يحلو لمعظم الشباب أن يفعل ويكرس كل وقته للقراءة والاطلاع على ماركس وهيجل وإنجلزا ولينين . وبفضل بصيرته النافذة ونضجه الباكر ومطالعاته الكثيرة استطاع الفتى أن يكتشف قبل غيره انتهازية ستالين السياسية التى لا تعرف الرحمة وطبيعته الدكتاتورية الغاشمة .. فضلاً عن زرايته بمنظره الغليظ الجلف وضعفه اللغوى الواضح فى كل ما يكتب . ولم يجرؤ الفتى بطبيعة الحال على البوح لأحد بهذه الأفكار باستثناء ثلاثة من أصدقائه الذين يشاركونه الرأى نفسه وهم نيكولاى فيرنفتش وكيريل سيمونيان وليديا أزهرتس . ولكن زرايتهم جميعاً بستالين لم تحل دون شدة إعجابهم بلينين الذى رأوا

فى العودة إلى مبادئه السبيل إلى تطهير البلاد من فساد ستالين ومظالمه ، وهو ما نادى به خروتشوف بعد مرور عشرين سنة على أقل تقدير.

ظروف زواج الطالب سولجنتسين

فى صيف عام ١٩٣٩ عندما كان سولجنتسين وصاحباه نيكولاى وكيريل فى آخر عام دراسى فى جامعة روستوف الإقليمية اقترح أديبنا عليهما الالتحاق كطلبة من الخارج فى معهد موسكو للفلسفة والآداب والتاريخ . وهو أعلى معهد لدراسة العلوم الإنسانية فى جميع أنحاء البلاد . وبالفعل تقدم الأصدقاء الثلاثة - الذين كانوا يسمون أنفسهم الفرسان الثلاثة - بطلبات التحاق فطلب سولجنتسين دراسة الأدب ونيكولاى الفلسفة، واختار كيريل دراسة الأدب المقارن وبمقتضى نظام الدراسة من الخارج يقوم المعهد بإرسال المقررات والمناهج الدراسية للدارس بالبريد ثم يرسل إليه بالبريد أيضاً بعض الأسئلة للإجابة عنها . ولكن المعهد اشترط على الطالب من الخارج الحضور إلى موسكو مرتين فى السنة (مرة فى عطلة الشتاء ومرة أخرى فى عطلة

الصيف) من أجل الانتظام فى حضور دورة للمحاضرات وأداء أمتحان فى مقررات الستة أشهر السابقة (وهى الامتحانات نفسها التى يؤديها طالب المعهد النظامى) ، يحصل بعده الطالب على دبلوم مساو للشهادة التى يمنحها المعهد لطلبته النظاميين.

كان سولجنتسين فى العشرين من عمره عندما حضر مع أعز أصدقائه نيكولاى إلى موسكو كى يسجلا اسميهما للدراسة من الخارج وأرادا أن ينتهزا هذه الفرصة لزيارة بعض المناطق المجاورة والاستمتاع بالمناظر الطبيعية الخلابة التى تزخر بها هذه المناطق . فاشتريا مركباً قديماً سار بهما فى مياه نهر الڤولجا ليتوقفا على ضفاف النهر الكبير كلما عن لهما ذلك . وبحلول الليل كانا يبيتان على كومة من القش فى قاع المركب . ونسيا فى غمار شبابهما المتوقد لسعة البرودة فى الفجر فكانا يجدان متعة بالغة فى أن يقفزا عاريين للسباحة فى ماء النهر ويتسابقا فى لججه أو يتصارعا على الشط حتى يجف بدناهما من البلل ويدب الدفء فى أطرافهما الباردة . وكانا يعولان فى شراء الأطعمة على بعض

القرى أثناء مرورهما بها . ولكن خاب أملهما عندما وجداها خالية تماما من الطعام . فاكتفيا بشراء كمية من التفاح المتوفر بسعر زهيد . وبمجرد انتهاء الرحلة استرد الشابان ثمن القارب تقريباً ببيعه . واستبد الشوق بسولجنتسين للعودة إلى روستوف حيث ترك حبيبته ناتاليا ريشتكوفسكايا التى زاملته فى الدراسة والتى تعرف إليها عن طريق صديقه الحميم نيكولاى (الذى كان أيضاً يكن مشاعر الحب لها) خلال عام ١٩٣٦ وهو العام الأول من دخولهما جامعة روستوف . تميزت ناتاليا بموهبتها الموسيقية التى ورثتها عن والديها وأجادت العزف على البيانو . واستطاع سولجنتسين أن ينفرد بحبها وخاصة بعد أن توثقت صلاتهما وتكرر اشتراكهما فى الرقص وحضور الحفلات والمسرح والسينما ، ولم تكن ناتاليا الفتاة الوحيدة التى أولاها اهتمامه فى تلك الفترة من حياته . فقد كان يميل أيضاً إلى فتاة أخرى معروفة باسم «الغجرية الصغيرة» .، ورغم أنه فى النهاية فضل ناتاليا عليها فقد شعر عند فشل زواجه منها أنه كان يجدر به أن يختار «الغجرية الصغيرة» شريكة لحياته .

وفى ٢ يوليه من صيف ١٩٣٨ تقدم سولجنتسين إلى خطبة ناتاليا التى أحبها برومانسية شديدة . ولكن يبدو أن المفاجأة أربكتها فأظهرت شيئاً من الإحجام والتردد رغم أنها كانت تبادله الحب ، الأمر الذى كان سبباً فى أن يعترى الفتور علاقتهما . غير أن هذا الفتور سرعان ما انتهى إلى زوال . وساعد على إعادة المياه إلى مجاريها أن الظروف التى نشأ فيها سولجنتسين تشبه إلى حد كبير الظروف التى نشأت فيها ناتاليا . فكلاهما عرف اليتم منذ نعومة أظفارهما . وكلاهما عمل والده فى الجيش . فقد كان ألكسى أبوها – وهو من أصل قوقازى – يعمل ضابطاً فى الحرب العالمية الأولى غير أنه حارب فى صفوف البيض خلال الحرب الأهلية. وحين رأى الجيش الأبيض يندحر أمام الجيش الأحمر لاذ بالفرار مع غيره من المقاتلين المتطوعين خارج البلاد ، تاركاً وراءه ابنته ناتاليا التى لم يتجاوز عمرها آنذاك عشرة أشهر كما ترك زوجته وأخواته البنات الثلاث .

راقت ناتاليا فى عين سولجنتسين بسبب موهبتها الموسيقية وجمال جسدها وحسن هندامها وسلوكها المهذب

الرقيق على المستويين الشخصى والاجتماعى ، وفى ٢٧ أبريل ١٩٤٠ تزوج سولجنتسين منها فى هدوء تام ودون أدنى ضجيج . وهما فى الحادية والعشرين من عمرهما . لم يتعجل العروسان الزواج بسبب ضيق ذات اليد وعجزهما عن استئجار مسكن مستقل . كان مؤلفنا لا يرغب فى إنجاب الأطفال لإدراكه أنه سوف يقف عائقاً فى سبيل تحقيق طموحه ، الأمر الذى كان فيما بعد سبباً فى إثارة الخلاف بينهما . وتعترف ناتاليا بشدة قلقه على انصرام الوقت فقد كان يؤرقه ضياعه دون أن يستثمره فى الدرس والتحصيل . ولهذا كان يتصرف ويرتب مواعيده معها بطريقة تدعو للغرابة. ففى فترة خطوبتهما فى شتاء ١٩٣٩ - ١٩٤٠ تعمد أن يضرب مواعيد اللقاء بها فى تمام العاشرة مساء بعد أن تكون المكتبة قد أغلقت أبوابها . فإذا حضرت ناتاليا إليه خمس دقائق مبكراً رفض أن يغادر المكتبة معها إلا بعد انتهاء موعد المكتبة متعللاً بأنه لا تزال أمامه خمس دقائق للاسترداد والاطلاع . وحين كان يرافقها إلى المسرح أو حفل موسيقى اعتاد أثناء وقوفهما على محطة الترولّلى باس أن

يطلب إليها أن تختبره في بعض المعلومات التى استقاها من المكتبة ودونها على بطاقات . وتزوج العروسان فى صمت دون أية مراسم أو احتفالات ، أو حتى دون أن يخبرا أحدا . واكتفيا بتسجيل زواجهما فى مكتب مدنى . وحدثت حادثة أعتبرها سولجنتسين - كما يبدو فى روايته لهما فيما بعد - نذير سوء . فعندما غمست ناتاليا الريشة فى المحبرة (دواية الحبر) كى توقع على سجل الزواج المدنى طارت الريشة من يدها فى الهواء لتستقر على جبهته فتلطخه ببقعة حبر كبيرة.

عاش الزوجان بمعزل عن أحدهما الآخر بسبب عجزهما عن تدبير بيت للزوجية، ومن الواضح أن سولجنتسين لم يكن لديه متسع من الوقت يقضيه مع ناتاليا حتى بعد زواجه منها بسبب انشغاله باستكمال دراسته وأداء الامتحان فيها . ولكن هذا على أية حال لم يمنعهما عند قضاء شهر العسل فى موسكو من أن يتقابلا لمشاهدة معالم العاصمة والتنزه فى حدائقها . هى تعيش مع خالتها وهو فى بيت الطلبة وبوجه عام كانت حياتهما الزوجية فى تلك الفترة سعيدة إلى أن حدث ما يعكر صفوها . فقد أصيبت ناتاليا بنزلة برد شديدة

كانت نتيجتها إلى أن الغدد فى رقبتها تضخمت بطريقة مؤلمة . فتدخلت طبيبة قريبة لها لدى أحد أصدقائها الجراحين ليجرى لها عملية جراحية فى بيتها بعيداً عن قذارة المستشفيات الحكومية وإهمالها . وهو أمر كان محظوراً حظراً باتاً .

وفى موسكو لم يتأثر سولجنتسين بأحد مثلما تأثر بأحد أقرباء زوجته هو الناقد والمؤرخ السينمائى المعروف فالنتين تيركن الذى اقترح على العروسين أن يقضيا شهر العسل فى منتجع تاروسا الريفى الجميل . واستطاع العروسان العثور على شاليه متواضع للغاية فى أطراف غابة وبعيداً عن سائر الشاليهات الفخمة يتناسب مع دخلهما المحدود كطلبة فى المعاهد والجامعات . وهال الشاب أن يرى بعينيه حياة الدعة والبذخ التى يحياها أهل القمة فى ذلك المنتجع الهادئ فهم يأكلون كل ما لذ وطاب ويحتسون أفخر أنواع الشراب بصورة تتناقض على نحو صارخ مع الفقر العام المنتشر فى كل مكان ومع القرية القاحلة المجدبة التى سبق أن زارها مع صديقة نيكولاى فلم يجدا فيها من الخضروات ما يسد الرمق

سوى بعض النباتات الشيطانية . ويصور لنا مؤلفنا ما رآه من حياة الدعة والرغد فى تاروسا بعد مرور سنوات عديدة فى بعض أعماله اللاحقة مثل أول مسرحية منشورة له بعنوان «شمعة فى مهب الريح» ثم فى قصيدته «الطريق» .، وفى هذا المنتجع لم يسمح لهما ضيق ذات اليد بارتياد محلات السوبر ماركت الفاخرة ، فدخلهما الضئيل يكفيهما بالكاد لشراء الضرورات من بقالة القرية الفارغة من السلع والعامرة بالذباب ، ولكن فكر سولجنتسين على أية حال كان فى الأساس مشغولاً بالاستعداد مقدماً لتحصيل المنهج الذى تقدم لدراسته من الخارج . وكان يقرأ لزوجته أحياناً قصائد من شعر ياسنين، وصفحات من رواية تولستوى «الحرب والسلام» . وفى تلك الفترة اهتم بدراسة التاريخ وخاصة الإصلاحات الجوهرية التى أدخلها بطرس الأعظم فى روسيا من أجل تحديثها . وهى إصلاحات أثارت مقته وكراهيته رغم أنه كان من المفترض باعتباره آنذاك ماركسياً ملحداً أن يتحمس لها كإصلاحات حديثة تقدمية . ويبدو فى التحليل الأخير أن الأثر العميق الذى تركته خالته إبرينا بأفكارها

القديمة ومعتقداتها التقليدية يفوق أثر النظام البلشفى فيه ، فقد عجز هذا النظام عن اقتلاع عشقه لروسيا القديمة وتقاليدها المتوارثة . بما فى ذلك تقاليد الكنيسة الروسية القديمة التى أرضعته إيرينا حبها العارم.

وفى شهر العسل كانت العروس تصحو من نومها لتجد مكان زوجها فى الفراش خالياً وأنه انصرف عنها لينكب على قراءة نسخة مليئة بالحواشى والتفسيرات من كتاب كارل ماركس المعروف «رأس المال» . ولم تبلغ العروس أهلها بزواجهما إلا فى أثناء وجودها فى منتجع تاروسا . أما العريس فقد سبقها بإبلاغ الخبر إلى أمه تايسيا أثناء وجوده فى موسكو . ونقلت تايسيا بدورها هذا الخبر إلى خالته إيرينا وماريا اللتين لم يغفرا له قط زواجه المدنى خارج الكنيسة ورفضا الاعتراف بشرعيته . وساعد هذا بطبيعة الحال على تعميق إحساسه بالغربة عن أهله وذويه . وهال خالتيه أيضاً أن زواجه تم سراً . ولعل هذا يفسر لنا لماذا أشارت إيرينا فى الحديث الذى أجرته معها مجلة «شتون» فى عام ١٩٧١ إلى ناتاليا على أنها عشيقته وليست زوجته .

وكانت فجيعة صديقه نيكولاى كبيرة عندما علم بالخبر فقد كان يأمل فى إقناع ناتاليا بالزواج منه . غير أن هذا لم يؤثر فى علاقته بسولجنتسين . ودون أن تجأر بالشكوى تحكى لنا ناتاليا انصراف زوجها شبه الكامل عنها فى الفترة الأولى من زواجها وانشغاله بالمطالعة والقراءة . وتذكر لنا أنهما استطاعا فيما بعد أن يستأجرا حجرة مريحة قريبة من مسكن حماته وحماتها، والأمر الذى سهل عليهما تلبية دعوة أمه وأمها لتناول الوجبات فى بيتهما واتفقت حماته على أن يتناولا الغداء كل أيام الأسبوع فى تمام الساعة الثالثة ، وكانت تتضايق من تأخر زوج ابنتها باستمرار فى تناول الغداء فى الوقت المحدد رغم كثرة تنبيهها له . فضلاً عن أنه كان ينشغل عن تناول الطعام بإخراج البطاقات التى يسجل عليها المعلومات حتى تقوم زوجته باختباره فيها . وما أن يفرغ من الغداء حتى يكون قد هرول إلى المكتبة ليستمر فى المذاكرة بعد عودته منها حتى الثانية صباحاً دون أن يرحم نفسه من الصداع الذى يصيب رأسه بسبب شدة الإجهاد .

وأخيراً تحسنت أحوال سولجنتسين المالية بحصوله على إحدى منح ستالين الدراسية بسبب تفوقه الدراسى من ناحية ونشاطه السياسى والاجتماعى فى منظمة الشباب (الكومسمول) من ناحية أخرى . وتتلخص أبرز إنجازاته الطلابية فى تلك المرحلة فى إصدار مجلة حائط بشكل مشوق للغاية وبصفة دورية مرة كل أسبوع بدلاً من مرة كل ستة أشهر . واستطاع أن يحقنها بدم جديد بعد أن أصابها الموات فامتلأت صفحاتها على يديه بالفكاهة الطلية والأخبار الجامعية الطازجة والهجوم الساخر على بعض الأساتذة والطلبة معاً . وفى هذا يتضح أنه كان بإمكانه لو أراد الصعود إلى قمة الهرم الاجتماعى يساعده فى ذلك دون شك تخصصه في الرياضيات والفيزياء وهى من التخصصات التى كانت الثورة البلشفية تحتضنها . غير أن مثاليته التى ترفض الانتهازية وهرطقته السياسية ضد ستالين وإيمانه الراسخ بضرورة عودة النظام البلشفى إلى المبادئ اللينينية الحقة حال دون هذا أضف إلى ذلك ميله الشديد للكتابة الأدبية . ولعلنا نذكر فى هذا، الصدد أن الزواج لم يشغله قط

عن مواصلة الكتابة فسطر فى كراسات بحثاً بعنوان «ملاحظات» حول المادية الجدلية والفن» بالإضافة إلى عدد من المجموعات القصصية مثل «الغجرية الصغيرة» (١٩٣٨) و «عاملة فيكولايفسكى» (١٩٣٩) و «نقاط على النهر» (١٩٤٠) و «مهمة بالخارج» بجانب ديوانه «أشعار الشباب» الذى سبق لنا أن أشرنا إليه .

سولجنتسين فى جبهة القتال

بعد أن أكمل سولجنتسين دراسة الرياضيات والفيزياء بجامعة روستوف فى يونيه ١٩٤١، ألح على زوجته أن يشدا الرحال إلى موسكو بحجة أن روستوف هى أسوأ مكان لتعلم اللغة الروسية . وأنه لولا الجهد المضنى الذى بذله فى تعلمها فى روستوق لظل جاهلاً بأسرارها ولا يعرف كيف يكتب بها . أضف إلى هذا أنه أراد السفر إلى موسكو بسبب رغبته فى اجتياز امتحان العام الثانى من منهج الدراسة من الخارج الذى يعقد هناك . ولكن حظه العاثر شاء أن يصل إليها فى ٢٣ يونيه عام ١٩٤١ . وهو اليوم نفسه الذى أعلنت فيه ألمانيا الحرب على روسيا فدبت الفوضى فى أوجائها وألغيت

الامتحانات وفتح باب التطوع للخدمة العسكرية وأراد سولجنتسين التطوع لكن البيروقراطية العسكرية السوفيتية أصرت على ضرورة عودته إلى روستوف للتطوع هناك . غير أن إدارة التجنيد فى روستوف قررت إعفاءه من الخدمة العسكرية بعد إجراء الكشف الطبى عليه فقد اكتشف الأطباء وجود عيب بسيط فى فخذه لم يكن ملحوظاً كان أحد الأسباب فى إصابته فيما بعد بمرض السرطان . وأبلغته إدارة التجنيد أنه يتعين عليه الانتظار فى بيته لحين وصول ردها عليه . وطال انتظاره دون أن يصله الرد المرتقب فغمره إحساس عارم بالإحباط بعد أن علم أن الجيش قبل تجنيد كل زملائه فى الدراسة ليحظوا بشرف الذود عن البلاد ضد البربرية النازية . وصدرت التعليمات بالاستفادة من جهود سولجنتسين فى قطاع التعليم فتم تعيينه فى سبتمبر ١٩٤١ مدرساً للرياضيات والفلك فى مدرسة إحدى القرى فى مستعمرة موروزوفسك القوقازية وهى المدرسة نفسها التى عينت فيها زوجته ناتاليا لتدريس الكيمياء ومبادئ الداروينية . وتعرف سولجنتسين فى تلك القرية على مهندس اسمه

برونيفتسكى كانت سلطات الأمن قد ألقت القبض عليه فى الثلاثينيات وأودعته معسكر اعتقال فى ظروف لاحد لقسوته .
وكما سبق أن ذكرنا كان أدبياً حتى ذلك الوقت يرى مظاهر التنكيل والخسف والاضطهاد فلا يعيرها التفاتاً لإيمانه حينذاك بقدرة النظام الشيوعى على تصحيح مساره فى نهاية الأمر ولقلة خبرته وتجربته فى الحياة . فضلاً عن أنانية الشباب التى تمنعه فى كثير من الأحيان عن التوقف أمام بؤس الآخرين وشقائهم. ولكنه شيئاً فشيئاً بدأت عيناه تتفتحان لبشاعة النظام الستالينى بفضل قصص البؤس التى رواها له المهندس برونيفتسكى . وفى تلك الفترة من حياة سولجنتسين اكتسحت جيوش هتلر الأراضى الروسية فلم تجد السلطات السوفيتية مناصاً من تجنيد كل احتياطيها .
ومن ثم قبلت تجنيده وهو فى الثالثة والعشرين من عمره وأرسلته ليقاتل أعداء البلاد من الألمان . ولم يدر مؤلفنا آنذاك أنه لم يعود من الخدمة العسكرية إلا بعد مرور خمس عشرة سنة بالكمال والتمام بسبب ما تعرض له من سجن واعتقال .

بدأت حياة سولجنتسين العسكرية كمهزلة وانتهت كمأساة، فقد كان حلم حياته أن يكون فى مقدمة الجيش وإذا بالجيش يضعه فى المؤخرة . فضلاً عن أنه وجد نفسه بين مجندين تقدم بهم العمر واعتلت صحتهم . ومما زاد الطينة بلة أنه عين بإدارة النقل والمركبات (على بعد نحو مائة وخمسين ميلاً من الشمال الغربى لستالينجراد) دون أن تكون لديه أدنى خبرة أو معرفة بالخيول : كيف يروضها أو مبرد كيف يركبها . ودون أن يدرى آثار حفيظة رئيسه الجاويش عليه لا لشئ إلا لأنه رآه يدخل الثكنات لأول مرة وفى يده حقيبة لحفظ الأوراق . فتعمد هذا الجاويش إذلاله بأن طلب إليه أن يقتاد الخيول إلى المراعى لإطعامها . فأسقط فى يده وبات من الواضح أنه لو فعل هذا لركضت الخيل ولاذت بالهرب ، ولهذا أخذ سولجنتسين يستعطف الجاويش كى يعطيه أى عمل آخر فقبل وأسند إليه أمراً بتنظيفها ، وهو الأمر الذى تمرس به واكتسب فيه بمرور الأيام وخبرة ودراية كبيرة . وسجل مؤلفنا هذه التجربة فيما بعد فى عمله الأدبى «الدائرة الأولى» وتعلم ركوب الخيل . كانت حياته العسكرية

سهلة لينة تخلو من التدريبات الشاقة، ومسئولية الحفاظ على الأسلحة والعناية بها. غير أن إحساسه بالمرارة لوضعه فى مؤخرة الجيش ظل يلازمه، الأمر الذى جعله يكتب إلى زوجته شاكيا بقوله : «إذا قيض للمرء أن يعيش فى روسيا فى ١٩٤١ الى ١٩٤٣ لما استطاع أن يصبح كاتبا روسيا عظيما إذا لم يكن مكانه على الجبهة فى المقدمة ». ولهذا ظل ستة أشهر يلحف فى رجاء رؤسائه أن ينقلوه إلى المقدمة ولكن رجاءه ذهب أدراج الرياح. وابتسم له الحظ فجأة فى مارس ١٩٤٢ حين جاءه قوميسار جديد درس الرياضيات فى جامعة روستوف نفسها فاستمع الى شكواه باهتمام واراد ان يعطيه فرصة اوسع للتعرف على الرئاسات الأكبر فى القيادة العليا بستالينجراد. فعهد إليه بمهمة حمل طرد صغير لتوصيله إليها. ثم تصادف قبل رحيله أن قابله ضابط دبابات جريح لم يتمكن بسبب الفوضى والارتباك اللذين حلا بوحدته من تبليغ رؤسائه بالقيادة العسكرية فى ستالينجراد بمكان وجوده فطلب هذا الضابط اليه أن يحمل رسالة أخرى إليهم يخبرهم فيها بمكانه وأنه يتماثل للشفاء . الأمر الذى جعلهم يفرحون

ويتهللون . وأراد أديبنا اغتنام فرصة قربه من قيادات الجيش ليجرب حظه فى أمر قبوله بسلاح المدفعية ، رغبة منه فى الاقتداء بوالده واقتناعا منه بأنه السلاح المناسب له بحكم تخصصه فى الرياضيات . وتجرأ سولجنستين ودخل الى الضباط الكبار فى مكاتبهم وعبر لهم عن رغبته فى الالتحاق بسلاح المدفعية وشرح لهم أنه متخرج من الجامعة . ولم يغضب هؤلاء الضباط منه كما كان يتوقع بل انصتوا إلى طلبه باهتمام واستجابوا له على الفور. ووافقوا على إرساله للتدريب على البطاريات فى مركز تدريب تابع لسلاح المدفعية. غير أن رحلته إلى مركز التدريب كانت تحفها المخاطر والأهوال. فقد بدا للعيان أن القوات النازية دحرت القوات السوفيتية وأنها لم تكتف في ربيع ١٩٤٢ بالتوغل نحو ألف ميل فى الأراضى الروسية بأن تقدمت نحو ستالينجراد . وفى الطريق الى مركز التدريب رأى سولجنتسين آلاف المشردين واللاجئين والجنود المتقهقرين. وحتى عندما استطاعت القوات السوفيتية المندحرة أن توقف من تقهقرها خسر الشعب الروسى ملايين الضحايا. فقد أدى حصار ستالينجراد وحده

الى هلاك مليون مـواطن روسى وتضـورهم جـوعا. وفى عـام ١٦٦٢ ضمن مشاهداته هذه فى قصة قصيرة نشرها بعنوان «حـادثة فى مـحطة كـريشـتـوفـسكا» التى تدور حـوادثهـا فى ١٩٤١. ولا تعـالج هذه القصـة مـوضوع الحرب بقدر ما تعالج المظالم الستالينية التى سبق أن وضـع أصبعـه عليها فى أيام السلم. فلما جاءت الحرب ضد النازية ترسخ اقتناعه بفساد النظام الستالينى الذى أظهر عدم كفاءة عسكرية يندى لها الجبين وخاصة من جانب ستالين نفسه وقواده الذين يتمتعون بحظوته. وهي عدم كفاءة تمتد أسبابها إلى حركة التطهير الكبرى التي أجراها ستالين فى الجيش الأحمر فى الفترة من ١٩٣٧ الى ١٩٣٩، لتستمر وتستفحل بظهور عبادة ستالين أو ما اصطلح على تسميته بمبدأ عبادة الفرد. يقول المؤلف فى قصته «كريشتوفسكا» ساخرا من ستالين واندحار قواته: «إنه لأمر مشين وإهانة للوالد والمعلم العليم بكل شىء والقادر على كل شىء الساهر فى موقعه دوما والذى يسبق الأحداث فيرى كل شيء قبل وقوعه ويتخذ بالتأكيد كل الإجراءات اللازمة فى الوقت المناسب والذى لن يسمح بمثل

هذا أن يحدث أبدا» ..

وانتظم سولجنتسين في حضوره دورة تدريب المدفعية التى نظمتها أكاديمية لننجراد العسكرية فى سيميونوف. واستطاع بسهولة أن يستوعب الجانب الفنى فى الدراسة القائم على الرياضيات ولكنه تبين أن هذه الدورة لم تكن أصلا مخصصة لأمثاله المبتدئين الذين لم يسبق لهم أن تلقوا أية تدريبات عسكرية فى حياتهم على الإطلاق بل للضباط المدربين برتبة نقيب أو ملازم. واكتشف المسئولون عن الدورة هذا النقص العيب فيه فأرسلوه إلى مدرسة أخرى تتناسب مع قدراته حيث ساعدته معرفته بالرياضيات فى دراسة منهج ادخلته المدرسة ضمن برامجها هو اكتشاف مواقع بطاريات العدو عن طريق تسجيل وتحليل موجاتها الصوتية ولم يرق له نظام الجيش الصارم القائم على سياسة القهر دون مبرر. فانصرف فى وقت فراغه الى القراءة والكتابة. وكان يحمل دائما فى يده حقيبة صغيرة (حافظة أوراق)، قديمة ومتهرئة ملأها بالكتب كان منظرها وحده سببا فى إثارة حنق رئيسه عليه . فأمره بإخفاء الكتب عن ناظره ووصف انكبابه عليها

بأنه نوع من الصبيانية التى تطلق العنان لأهوائها. وفى عام ١٩٤٢ عجز عن الاتصال بزوجته ناتاليا بسبب كثرة انتقالها تحت وطأة الحرب من مكان الى مكان . وعندما تمكن فى النهاية من الاتصال بها لم يخطر بباله أن يسألها عن شىء سوى أوراقه ومخطوطاته وكراساته التى سطر فيها أولى تجاربه الأدبية. مما يدل على أنه لم ينس قط شغفه بالقراءة والكتابة ..

وفي نهاية اكتوبر ١٩٤٢ وبعد انقضاء أكثر من ثلاثة أشهر تخرج فى مركز تدريب المدفعية ليحصل على رتبة ملازم ثان. وتم تعيينه نائبا لقائد وحدة البطاريات فى موقع صغير للغاية في روسيا الوسطى لا يزيد عن ثلاثة بيوت تتوسط حقلا منبسطا . وبالرغم من كل مارآه حوله من انهيار شامل، حتى عندما كانت ستالينجراد على وشك الوقوع فى أيدى الألمان، فإن إيمانه لم يتزعزع بقدرة بلاده على النصر فى نهاية المطاف. وانتظر بصبر فارغ ان يشارك في معركة الدفاع عن شرف البلاد وكرامتها فى ساحة الوغى. ولكن انتظاره طال بلا طائل . فلم يجد غير الكتابة يسرى بها عن

نفسه المحزونة. وكتب آنذاك قصة بعنوان «الملازم الثانى» استمد مادتها من تجاربه. وفي عام ١٩٤٣ بدأت غمة الاحتلال النازى تنقشع. ولكن ظروفه الشخصية السيئة شهدت تدهورا فى صحة والدته تحت اشتداد وطأة السل عليها بشكل ينذر بالخطر الى جانب العذاب الذى قاست منه فى حياتها اليومية . فقد دمرت قوات الاحتلال بيتها المتواضع للغاية تدميراً كاملاً في مدينة روستوف بما فيه. من متاع قليل. وتعين عليها وهى المصدرة ان تحمل جرادل الماء الى حجرتها الخالية من الماء والكهرباء فى أحد الأدوار العليا.

وتدل قصيدته «الطريق» على رقة إحساسه نحو بلاده التى رآها جميلة فى حزنها وفاتنة فى محنتها واستسلامها لصروف الزمان. ورغم أن الحرب باعدت ردحا من الزمان بينه وبين أعز أصدقائه نيكولاى فيكوفتش، الذى اكتشف سولجنتسين بمحض المصادفة أنه يعمل فى إحدى وحدات الجيش القريبة من وحدته فأخذ كل منهما يزور الآخر فى وحدته ويتجاذبان أطراف الحديث مثلما كانا يفعلان فى الماضى. وأيقن الصديقان أكثر من أى وقت مضي من تطابق

نظرتهما الى كل ما يحيط بهما من أمور فضلا عن إشراكهما في المشارب والطباع. وفي الطريق يصف سولجنتسين العلاقة بينهما بأنهما «قولة وانقسمت نصفين» . ورغم ذلك فقد كان بينهما فاروق واحد هو أن نيكولاى استسلم لضغوط أمه عليه وقبل الانضمام الى الحزب الشيوعى فى حين رفض سولجنتسين الانضمام اليه ..

وانتهت المناقشات وتبادل الآراء بينهما الى سطر بيان سياسى أطلقا عليه «القرار رقم١» مكتوب من وجهة نظر ماركسية ويحتوى على تحليل للظروف السياسية وبرنامج عمل من أجل تغيير ما فسد فيها. وفيما بعد وصف سولجنتسين هذا البيان بأنه «وثيقة لينينية» وهو يقول لنا فى هذا الشأن :

«خطونا، كولا (نيكولاى) وأنا . خطوات واسعة الي الأمام . والذى فعلناه هو فى جوهره تأسيس نوع من الحزب السياسى الجديد. قمنا بكتابة وثيقة اسميناها القرار رقم ١ بدأناها بمقدمة وصفية وصفنا فيها النظام السوفيتى بأنه يتسم بكل خصائص النظام الاجتماعى القائم على الاستغلال فى حياتنا. ثم وصفنا أثر هذا النظام على الاقتصاد.. كيف

خنق التطور الاقتصادى كماخنق الأدب والثقافة وكل شىء فى حياتنا اليومية . وقلنا انه ينبغى علينا محاربته وأنه يستحيل علينا أن نضطلع بكل هذه المهام دون تكوين تنظيم .. تلك كانت أهم نقطة توصلنا اليها وهى أن تكوين تنظيم أمر جوهرى تماما. ومعنى هذا أننا كنا فى واقع الأمر ننادى بخلق حزب جديد» ..

وبطبيعة الحال كان مجرد التصريح بهذه الأفكار نوعا من الانتحار . ومن ثم اقتضت الحكمة منهما الاحتفاظ بها سرا بينهما. ولكنهما تعاهدا بأن يحتفظ كل منهما بنسخة من هذا البيان فى مكان آمن لا يغيب عن بصره . فوضع نيكولاى نسخته فى مقبض الكمامة الواقية من الغازات السامة، فى حين وضع سولجنتسين نسخته فى الحافظة التى تحوى الخريطة التى يسترشد بها فى تحركاته. ولم يمنعه سخطه على النظام الستالينى من أن يستمتع بحياته العسكرية الجديدة التى وفرت له قدرا كبيرا من الحرية والاستقلال، بعكس ما كان يشعر به من ضيق وإذلال عقب تجنيده مباشرة. وفى تلك الفترة بدأ فى تدخين السجائر فكتب الى

زوجته بقوله إن التدخين أصبح يساعده على الكتابة كما انه استمتع بشرب كميات الفودكا التى كان الجيش يصرفها له مجانا. وظل الصديقان يتزاوران في فترات الاسترخاء ولكن زياراتهما توقفت باشتراكهما الفعلى فى القتال. وعندما التقى الصديقان لآخر مرة فى ٩ يوليه ١٩٤٣ امضى نيكولاى الليلة بطولها فى الخندق الذى تخندق فيه سولجنتسين وذلك قبل يومين فقط من اشتراك وحدتيهما في معركة تعرف بمعركة اوريل التى كانت نقطة تحول فى مجرى الحرب بين الروس والألمان وكانت هذه هى المرة الأولى التى يذوق فيها كاتبنا طعم القتال الحقيقى. وبعد قتال عنيف مع العدو دام ثلاثة اسابيع استطاع سولجنتسين فى ٥ اغسطس ١٩٤٣ ان يدخل مع وحدته ظافرا بلدة اوريل . ولم يمض على انتصاره اكثر من عشرة ايام حتى منحته السلطات السوفيتية وسام الحرب الوطنية من الدرجة الثانية وتمت ترقيته من ملازم ثان إلى ملازم أول ..

والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن ستالين أثناء محنة الحرب ضد القوات الغازية لم يلجأ الى الماركسية اللينينة

يستنهض بها حمية الروس القومية وعزتهم الوطنية بل سعى ما وسعه السعى إلى ازكاء روح الوطنية الغائرة فى اعماقهم والذى توارثوها عن الآباء والأجداد منذ عهد القيصرية فى القرون الوسطى عندما خاضوا حربا مقدسة لرد اعدائهم من التتار وقبائل التيوتون على أعقابهم . ورغم إدراك سولجنتسين لما تنطوى عليه سياسة ستالين من خديعة ولؤم ورغبته فى استغلال شعبه فقد استجاب عن طيب خاطر لهذا الجانب التقليدى المحافظ فى رعاية ستالين للحرب .

وعندما تقدم سولجنتسين على رأس وحدته الى مدينة ستاروداب الصغيرة الواقعة غرب اوريل وجد مكتبة المدينة فى حالة يرثى لها بسبب الاحتلال الألمانى فقد تناثرت أوراقها وتبعثرت كتبها على الأرض، فاقترح على قائد وحدته أن يقوم بانتقاء عشرات الكتب ليقرأها الجنود الروس فى فترات الهدوء التى يتوقف فيها القتال.. ولم يكن هدفه من ذلك تثقيف هؤلاء الجنود فحسب بل كان يرغب فى الأساس فى أن يضمن يقظتهم على مدار الاربع والعشرين ساعة. كانت الوحدة موزعة على مواقع كثيرة متباعدة يربطها سويتش

(لوحة تحويلات) عبر اسلاك التليفونات. ومن ثم أمكن بث قراءات من الأدب الروسى عن طريق عامل السويتش يسمعها كل أفراد الوحدة فى مواقعهم . ونجحت هذه التجربة الإذاعية الأدبية نجاحا عظيما دله على مدى الحب العميق الذى حمله الجنود لرواية تولستوى المعروفة «الحرب والسلام»، فقد أحبوا فى هذه الرواية دقتها وأمانتها وقدرتها على تصوير الواقع وعلى نقل طعم المعارك الحقيقية الى الجنود على جبهة القتال. فضلا عن اعجابهم بسخرية الرواية من خيلاء الضباط وزهوهم الزائف . واكتشف سولجنتسين ايضا اقبال الجنود على قصيدة الشاعر الكسند تفاردوفسكى الهجائية الساخرة المعروفة بعنوان «فاسيلى تيوركين» التي بلغ اعجاب سولجنتسين بها حدا جعله يكتب الى زوجته : «شاءت المصادفات مؤخرا ان أقرأ اول كتاب صادق (بالمعنى الذى افهمه) عن الحرب وهو بعنوان فاسنى فلو أنك قرأت القصيدة بعناية فإنك قمينة بأن تجدى فيها أشياء كثيرة لم يعالجها احد من قبل، وبوجه عام فإن تفاردوفسكى واحد من أحسن الشعراء الروس، إن لم يكن أحسنهم جميعا . وسوف ارسل

اليه فى يوم من الأيام خطابا أعبر فيه عن تقديرى».

وبحلول عام ١٩٤٤ توقف الألمان عن القتال وتخندقوا بالقرب من مدينة صغيرة اسمها زلوبين فاغتنمت القوات الروسية هذه الفرصة لاستجماع قواها تمهيدا لتقدمها ومطاردة القوات النازية حتي عقر دارها داخل الأراضى الألمانية نفسها وانتهز سولجنتسين فرصة توقف القتال فى زلوبين لينصرف الى كتابة اليوميات وبعض القصص مثل «الملازم». و «فى مدينة م» «والخطاب رقم ٢٥٤» و «حكاية امرأة» و «البستان» وبالرغم من أنه استفاد من تجارب الحرب فقد ضاق بها وبقصف المدافع وفرقعة السلاح التى كانت تحول بينه وبين الكتابة، وكثيرا ما عبر عن قلقه حول مصير مخطوطاته القصصية. ولم يهدأ له بال او يشعر بالاطمئنان إلا حين اكدت له زوجته انها تحتفظ بكل مخطوطاته فى أمان وأراد أن يطمئن ايضا على مستوى كتاباته فأرسل فى عام ١٩٤١ ثلاثا من قصصه الباكرة هى «مهمة بالخارج» و«نقاط على النهر» و «عائلة نيكولايفسكى» إلى اثنين من الكتاب الروس المعروفين اللذين يحمل لهما الإعجاب، هما الروائى

كـونسـتـانـتين فـيـدين والكاتب الروائى والمسـرحى بوريس لافرينيف . ولكنه لم يتلق منهما ردا بسبب ظروف الحرب التى حـالت دون اتصـالهـمـا به . وكـان لايزال على اتصـال بليـديا ازهرتس صـديقتـه وزميلتـه فى الدراسـة فى روسـتـوف والتى كانت آنذاك تواصل دراستها العليا فى الأدب الألمانى بجامعة مـوسكو وعرضت عليـه ليديا ان تحـاول الاتصـال مـرة أخرى بالاديبين الكبيرين لتسـألهمـا عن رأيهمـا فى أحدث انتـاجـه وتذكـرهـمـا في الوقت نفسـه بإنتـاجـه القـديم الذى سـبق ان ارسله اليـهما. وكـان يخشى مـا يخشـاه سولجنتسين ان يصل اليه الرد بخلو كتاباته من الموهبة لأنه اعتبـر هذا بمثـابة حكم بالاعـدام عليـه. وفى مـارس ١٩٤٤ اسـتطـاع مـؤلفنا ان يقنع قائد وحـدته المتمـركـزة في زلوبين بـإعطائه اجـازة لمدة عـشـرة أيام يزور فيها صـديقه كيريل وصـديقتـه ليديا وزوجـتـه نـاتـاليـا. وعندمـا التقى بصديقه القديم أخذا يتبـادلان الآراء فى شئون البلاد. وبالرغم من تشـاؤم نظرة كيريل السـيـاسـيـة وأن مـقتـه للنظام الستالينى لم يكن يقل عن مقت صـديقه له، فإنه لـم يبد أدنى اهتمام بالقرار رقم ١ الذى سطره سولجنتسين

بالتعاون مع صديقه نيكولاى والذى ينادى بضرورة إجراء التغييرات الجوهرية فى النظام السياسى للاتحاد السوفيتى وأخيرا تلقت ليديا ردا من الأديب لافرينيف يصف قصص سولجنتسين بأنها لطيفة وتروق له. وأخبرها لافرينيف أنه أرسلها للنشر فى مجلة «الحلم» الأدبية ، وعندما علم مؤلفنا هذا داخله شعور بالاغتباط المتحفظ فقد كان ينتظر من لافرينيف بدلا من رأيه المبتسر أن يوافيه برأى مفصل فى مستوى كتاباته. وفى خلال إجازته شاءت الظروف أن يفشل في الالتقاء بزوجته كما كان يأمل . ولهذا التجأ الى حيلة تمكنها عن طريق تزويدها ببعض الأوراق الرسمية المزورة التى تحمل خاتم الجيش من الالتحاق بوحدته نفسها. ولم يكن هذا بالأمر الغريب أو غير المألوف . فقد فعل قائد هذه الوحدة وبعض أفرادها الشىء نفسه بل إن بعض الجنود الذين تعرفوا الى بعض النساء دعونهن للحاق بهم فى الوحدة ففى بعض الأحيان كانت الوحدات تستعين بالنساء فى أعمال التمريض والمراسلة .

وفى ١٧ يناير عام ١٩٤٤ لفظت تايسيا والدة مؤلفنا

أنفاسها الأخيرة، فأصابه غم شديد واعتبر انه مسئول عن موتها لأنه تركها تعانى من شظف العيش الى جانب اشتداد وطأة المرض عليها، فقد كان يرسل اليها جانبا ضئيلا من راتبه من الجيش ويرسل الجانب الأكبر إلى زوجته . ولم يعلم بوفاة والدته إلا بعد مرور بضعة أشهر على دفنها فقد ارسل اليها كالمعتاد مبلغا من المال ولكن خطابه ارتد اليه وقد كتب عليه : لم يسلم إلى صاحبة الخطاب لوفاتها. ولأن الهدوء دام بعض الوقت علي جبهة القتال . فقد استطاع أفراد الوحدة أن يحولوا خنادقهم إلي أماكن مريحة نسبيا. وكان يأمل أن تستمر زوجته فى العيش معه بعد أن تم تعيينها فى الفصيل الحسابى المنوط به فحص وتحليل الموجات الصوتية لبطاريات الأعداء لتحديد مواقعها ومسافاتها وفى أوقات الفراغ علم مؤلفنا زوجته استخدام المسدس كما كان يقرأ لها بعضا من كتاباته أو «قصة حياة مانفى كوزيمياكن» لماكسيم جوركى الذى اعتبره آنذاك أعظم كاتب دون منازع غير أن الحياة ، المدنية التى عاشتها زوجته بعيدا عن المعارك وجبهة القتال جعلت من العسير عليها أن تتحمل مشاق الحياة العسكرية

وصعابها وخشونة الطعام الذى يتناوله الجنود وفظاظة اللغة التى يستخدمونها . ووجدت ناتاليا النظام العسكرى مقيتا فأبت ان تعامل زوجها بالاحترام الرسمى نفسه الذى تعامل به زملاءه من الضباط. فقد أبت الوقوف أمامه (انتباه) كلما مر عليها أثناء عملها، ورأت ان هذا وضع مضحك، في حين رأى زوجها ان عدم خضوعها للأوامر العسكرية يهدم النظام فى الوحدة بأسرها .

وانتهت تجربة سولجنتسين بالعيش فى الوحدة نفسها مع زوجته بالفشل . ومما ساعده على هذا الفشل انصرافه التام إلى أداء واجباته العسكرية وإلى الكتابة عن الجبهة كلما استطاع الى ذلك سبيلا الأمر الذى زاد من ضيق زوجته بالحياة العسكرية الجافة ولاحظ قائد الوحدة تبرمها فتعلل بأسباب وجيهة للاستغناء عن خدماتها ومن بين هذه الأسباب قرب انضمام الوحدة إلى لواء يرأسه ضابط من النوع الذى لا يوافق على وجود السيدات فى صفوف الجنود وعادت ناتاليا الى جامعة روستوف لتعمل بصفة مؤقتة فى وظيفة مساعد معمل. ويبدو أن بعد زوجها عنها لفترات طويلة أبرز

شقة الخلاف بين الزوجين فقد قالت له أثناء وجودها معه على الجبهة قبل أن تغادرها لتعود إلى روستوف انها لاتستطيع أن تتصور حياتها معه دون أن ينجبا أطفالا الأمر الذى جعله يكتب إليها فى سبتمبر ١٩٤٤ خطابا يقول فيه إن باستطاعة كل إنسان تقريبا أن ينجب أطفالا، ولكن ربما ليس هناك إنسان غيره يستطيع أن يصيغ الأحداث التي تلت ثورة اكتوبر ١٩١٧ فى عمل أدبى. ثم يتحفظ فيضيف ان جسامة هذه المهمة قد تحتاج الى معونة شخص آخر يساعد على إتمامها ويدل هذا الخطاب على شدة إيمانه آنذاك باللينينة فهو يقول فى هذا الصدد: «ما عساى أن أفعل من أجل المذهب اللينيني ؟ وكيف يمكننى ترتيب حياتى لهذه الغاية » .

وفى يونيه عام ١٩٤٤ تمت ترقية سولجنتسين إلى رتبة نقيب. وتعمد مؤلفنا أن يجوب المدن والبلدان الصغيرة فى أوقات الهدوء بهدف استقصاء مشاعر بنى جلدته نحو جيش الاحتلال وفى تجواله اكتشف العجب العجاب، اكتشف أن جيش الاحتلال فى مدينة ستاروداب التى سبق أن أخذ بعض الكتب من مكتبتها يتكون من الجنود المجريين وليس من

الألمان وأن هؤلاء المجريين استطاعوا فى فترة بقائهم فى المدينة أن يكتسبوا شعبية هائلة بين نسائها اللاتى ذرفن الدمع سخينا وهن يودعنهم عند رحيلهم عنها أكثر مما ذرفن الدمع على أزواجهن وهم فى طريقهم إلى ميدان القتال ..

ومن الأمور التى استوقفت نظره ذلك الموقف الرسمى من الروس الذين يتعاونون مع أعدائهم الألمان . صحيح انه تفهم موقف الاشمئزاز من غدرهم وخيانتهم غير أن نظرته الفاحصة المتعمقة لم تكتف بمجرد ردود الفعل الرسمية نحو هؤلاء البؤساء مثل استنكار افعالهم وانزال اشد العقاب بهم، ففى أحد الأيام دعاه بعض المسئولين فى الجيش لحضور إعدام اثنين من المتعاونين مع الأعداء وسط جمع من الجنود والضباط والممرضات والنساء والبنات اللاتى جئن خصيصا من القرى المجاورة من أجل هذه المناسبة . وهاله أن الحاضرين بعد انتهاء عملية الإعدام يتحينون هذه الفرصة للتعبير عن ابتهاجهم والافراط فى المأكل والشراب والرقص وكأنهم يشتركون فى إقامة الاحتفالات . وفى الهزيع الأخير من الليل نصحه أحد زملاءه ان يجد لنفسه امرأة يضاجعها .

ولكن نفسه الحساسة عافت أن يفعل ذلك، وفضل أن يئوب إلى خندقه يخلو فيه إلى نفسه، واكتشف سولجنتسين أن بعض المواطنين الروس الذين يحاربون فى صفوف أعدائهم من الألمان كانوا تحت قيادة جنرال روسى أسمه الجنرال فلاسوف وهو الأمر الذى اشار اليه مؤلفنا فيما بعد فى قصيدته «الطريق» فقد وقع فى يده وهو فى انتظار دخول معركة اوريل إعلان عليه صورة هذا الجنرال يقول انه تم فى عام ١٩٤٢ تكوين لجنة هدفها الاستعانة بالألمان للإحاطة بستالين وإقامة دولة روسية غير شيوعية، والأخطر من هذا انه اكتشف فى معركة أوريل وجود بعض الروس الذين يحاربون مع الألمان ضد بنى جلدتهم بضراوة تفوق شراسة الجنود الألمان أنفسهم ليس حبا فى النازية ولكن كراهية فى النظام الشيوعى . وبالرغم من اشمئزاز كاتبنا من خيانة هؤلاء المتعاونين مع الروس فإنه اشمأز كذلك من أسلوب معاملة السلطات السوفيتية لهم دون أدنى رحمة أو هوادة، فذات يوم سمع أثناء سيره فى الطريق صوت رجل فى ملابس المجندين الألمان يستعطفه بلغة روسية لاريب فيها قائلا له : «سيدى

النقيب .. سيدى النقيب .. » والتفت سولجنتسين اليه فوجد نصفه الأعلى عاريا والدم يغطى وجهه وصدره وكتفيه وظهره وأحد رجال الأمن فوق جواد يهوى بالسوط على جسده وفى اللحظة نفسها يعد حصانه الى (دهسه)..

وفى نهاية عام ١٩٤٤ تمكن سولجنتسين وجنوده من دخول رولندا تمهيدا لغزو الاراضى الألمانية نفسها وفى تلك الفترة وصله عن طريق صديقته ليديا رأى الأديب لافرينيف فى مستوى أعماله القديم منها والحديث . قال لافرينيف إن القصص القديمة التى سبق إرسالها اليه فى عام ١٩٤١ تدل على «مهارته الأولية فى صياغة أفكاره وملاحظاته فى قالب أدبى . ثم قال عن أعماله الحديثة إنها تدل على أن المؤلف بلغ مرحلة النضج وأنه خطا بفنه خطوات واسعه الى الأمام. ولهذا يمكن أن نتوقع منه إنتاجا أدبيا جديرا بأن يسمى أدبا. وأضاف قائلا : «لايخامرنى ادنى شك فى استعداد المؤلف للعمل الأدبى. وأعتقد انه عندما يسود الهدوء بعد أن تضع الحرب اوزارها وعندما يتمكن المؤلف من تكريس وقته تماما للعمل الذى من الواضح انه يحبه فإنه سوف يتمكن ايضا من

بلوغ النجاح ورغم ما ينطوى عليه هذا الكلام من تشجيع فقد اعتبره سولجنتسين كلاما غامضا لأنه يتحدث عنه كأديب واعد يرجى من قلمه الخير وليس كأديب انجز بالفعل عملا له قيمته . وعلى أية حال رفضت مجلة «العلم» حينذاك نشر قصصه رغم توصية لافرينيف بنشرها ولعل هذا يرجع إلى أن نوعية القصص التي يكتبها لا تتماشى مع السياسة الدعائية التقليدية للدولة السوفيتية. ففى قصة «النقيب» نرى أن مجرد ضابط احتياط ينجح فى إنقاذ ضابط محترف برتبة نقيب من براثن الموت. مما قد يثير حنق الدوائر الأدبية الرسمية عليه. كما أن قصته «فى مدينة م» تدل على سعى المؤلف جاهدا الى فهم نوازع الروس الذين يقبلون على أنفسهم التعاون مع الأعداء .. بدلا من الاكتفاء بتصويرهم على النهج التقليدى بأنهم طغمة من الخونة الذين يستأهلون العقاب . وربما كان هذا سببا فى إحجام الأديب المعروف فيدين عن التعليق على قصصه ..

وتدل الخطابات التى أرسلها سولجنتسين حينذاك الى زوجته على اتساع هوة الخلاف بينهما ففى أحد هذه

الخطابات كتب اليها يقول : فى ربيع عام ١٩٤٤ رأيت مدى ما ينطوي عليه حبك من تفكير دائم فى الذات ومدى امتلائك بالتحيزات حول موضوع الحياة العائلية .. فأنت تتصورين مستقبلنا على أنه الحياة معا بلا عوائق أو شوائب وامتلاء المنزل بالأثاث وشقة مريحة وزيارات منتظمة من الضيوف والذهاب الى المسارح فى المساء. وأغلب الظن أن شيئا من كل هذا لن يحدث فقد نعيش حياة غير مستقرة ننتقل فيها من مكان إلى مكان . وسوف نمتلك أشياء لنتخلص منها باليسر نفسه الذى حصلنا به عليها ورغم هذا فقد كان سولجنتسين حتى ذلك الوقت لايزال يحب زوجته ..

وفى تلك الفترة أيضا كان سولجنتسين يحس بروحه تذوب فى روح نيكولاى فينكفتش رغم استشعاره مؤخرا ان شيئا من التغير بدأ يطرأ على موقف صديقه الرافض لستالين والساخر منه فقد ذهب الى القول إنه من الجائز أن ستالين ليس بالسوء الذى يظنانه به . وظلت العلاقة بينهما وطيدة، واستمرا فى تبادل الرسائل غير مبالين بالرقابة العسكرية التى كانت تحجزها دون أن يدريا غير أنهما لاحظا أن

خطابات كل منهما للآخر لم تعد تصل إليهما بالكثرة نفسها التى كانت تصل بها فيما مضى. وشاءت المصادفات أن يتعرف سولجنتسين بنقيب بحرى اسمه ليونيد فلاسوف ظن من انتقاده لما وصل اليه المجتمع السوفيتى من تدهور وفساد انه يعترض على سياسة ستالين ونظام حكمه. ولكنه فوجىء بخطاب منه يبرىء ستالين من كل ما يشوب المجتمع السوفيتى من عيوب ومثالب إذ قال فيه : «لقد فكرت فى هذا الأمر كثيرا ووصلت الى اقتناع بأن ستالين رجل عظيم وأنه لم يرتكب خطأ فى أى شىء : إنه الشمس التى تضىء حياتنا» ..

وفى أثناء زحف الجيش السوفيتى صوب برلين خاض مؤلفنا لأول مرة فى حياته تجربة جديدة تتلخص فى أن الكل أصبح واحدا . فقد ذابت الوحدة الصغيرة التى تأتمر بأمره فى كيان عسكرى كبير، أى فى جيش عرمرم كثير العدد والعدة يتحرك مهاجما ومناورا ليكتسح كل شىء فى طريقه . ولم تتنبه قيادة الجيش السوفيتى الزاحف نحو برلين الى بعض الأخطار المحدقة به، والتى تتمثل فى وجود بعض جنود

الاعداء خلف خطوط القتال وفى ليلة ٢٦ يناير ١٩٤٥ فوجىء سولجنتسين ورجاله بمحاصرة الأعداء لهم، وعزلهم عن بقية الجيش المتقدم . وعندما أبلغ سولجنتسين القيادة العسكرية العليا بهذا الأمر رفضت ان تصدقه إلا بعد أن انقطعت وسائل الاتصال التى تربطها بوحداتها المختلفة. وعندئذ تعرض سولجنتسين لوابل من رصاص البنادق. الأمر الذى اضطره الى الاحتماء بغابة قريبة. ويتضمن عملاه الادبيان «الليالى البروسية» و «اغسطس ١٩١٤» اشارات لهذه التجربة وتصف «الليالى البروسية» عمليات النهب والسلب المحمومة التى قام بها الجيش السوفيتى بتشجيع من قيادته العسكرية والسياسية ويعترف لنا سولجنتسين بنفسه باشتراكه فى هذه العمليات أثناء وجوده فى بولندا ولكن بصورة أرقى من أسلوب بقية الضباط والجنود فى السلب والنهب ففى بولندا قام مؤلفنا بالاستيلاء على مجموعة من الكتب الروسية النادرة التى يرجع كثير منها الى فترة الثورة والى العشرينيات التى أصبح تداولها محظورا فى الاتحاد السوفيتى. واستطاع ان يخبىء هذه الكتب النادرة فى حافظة المدفع أى فى غلافه .

ونحن نراه يعترف أيضا فى «الليالى البروسية» بارتكاب حادث سطو آخر . فقد دخل مكتب بريد ألمانى ليجد مجموعة من الأوراق والأقلام والدبابيس الفاخرة التى لم يستطع مقاومة إغرائها فاستولى عليها لنفسه .

فلا غرو إذا رأينا كاتبنا يعالج فى أدبه هذا الجانب السيىء والمدمر من الحرب ..

القبض علي سولجنتسين :

فى ٩ فبراير من عام ١٩٤٥ حدث لسولجنتسين ما لم يكن فى الحسبان فقد أبلغته القيادة العسكرية بضرورة التوجه فورا لمقابلة القائد العام الجنرال تراكفين. وعندما دخل مكتبه وجد مجموعة من الضباط ينتظرون فى أحد اركان الحجرة وأمره ترافكين ان يخطو الى الأمام ويسلمه مسدسه فقام بخلعه من القايش وسلمه الى الجنرال ترافكين الذى أخذه منه ولفه ببطء ووضعه في درج المكتب ثم التفت الى سولجنتسين ليقول له بصوت خفيض : «حسنا يجب عليك الانصراف الآن» . وتوهم سولجنتسين انه وقع عليه الاختيار لإرساله فى مهمة خاصة وهنا تقدم اليه اثنان من الضباط

العاملين فى قلم مكافحة التجسس وقالا له : «أنت مقبوض عليك» فسألهما سولجنتسين بصوت واه ضعيف : «أنا؟ لماذا؟»، وبدلا من الرد عليه قاما بنزع الشارة العسكرية من كتفه والنجمة من فوق الكاب الذى يلبسه وانتزعا حافظة الخريطة من يده وأمره القائد بالانصراف من الحجرة وسط حراسة مشددة . ولكن الجنرال ترافكين طلب اليه الرجوع، فعاد ليسأله الجنرال بطريقة لها مغزاها اذا كان له صديق فى الجبهة الأوكرانية فتدخل ضابطا المخابرات ونهرا الجنرال وقالا له إن ما فعله يعتبر مخالفة للوائح والتعليمات . وفهم سولجنتسين من سؤال الجنرال أنه يلمح الى صديقه نيكولاى وفى بطء نهض الجنرال الجالس الى مكتبه ليأخذ يد مؤلفنا ويهزها بحرارة مبالغ فيها قائلا له : «أتمنى لك السعادة ايها النقيب»، وهزته تحية الجنرال الحارة باليد له من الأعماق لدرجة انه وصفها فيما بعد بأنها اشجع عمل شاهده فى فترة الحرب على الإطلاق . فالقبض عليه كان معناه أنه اصبح فى نظر الدولة السوفيتية عدوا للطبقة الكادحة . وفى أثناء اقتياده الى مركز القيادة تساقطت بعض القنابل بالقرب منه، غير أنه

كان مشغولا باتفه الامور وأصغرها مثل ضياع هيبته امام
جنوده عندما يرون الشارة العسكرية وقد انتزعت منه وأمر
رجال المخابرات الجاويش اليا سولومين باحضار حقيبة
ملابس رئيسه الضابط سولجنتسين الذى كان قد اصطفا ه
فى يوم ما ليكون فى استقبال زوجته ناتاليا عند وصولها :
إلى الوحدة ليرافقها الى مقرها.. ولكن سولومين الذى كانت
تربطه بسولجنتسين علاقة طيبة تعمد ألا يحضر الكتب
الممنوعة المخبأة فى غلاف المدفع. كما أنه أغفل ان يحضر لهم
أوراقه الخاصة ومن بينها بعض خطابات زوجته اليه . فقد
احتفظ بها ليقوم بتسليمها اليها فيما بعد. وعندما أوصله
الحراس فى سيارة الى مركز القيادة قاموا بتفتيشه وتفتيش
حقيبته ثم ردوها اليه . ولكن أحدهم اثر الاحتفاظ فى جيبه
بحافظة سجائر كان مؤلفنا قد استولى عليها من الألمان وبعد
تقييد يديه بالأغلال دفعوا به الى السيارة التى انطلقت على
الطريق الاسفلتى فى الريف الألمانى . وداعبه خياله فتصور
انهم سوف يأخذونه الى حضرة ستالين نفسه وأنه سوف
يغتنم هذه الفرصة ليقول له رأيه بصراحة فى نظامه الفاسد

ويشرح له برنامجه للإصلاح، ولكنه أفاق الى الحقيقة المرة عندما ادرك أن السيارة التى ضلت الطريق لا تنطلق به فى اتجاه روسيا بل تتوغل فى الاتجاه المضاد فى الاراضى الالمانية ورأى الجنود الألمان ظلام الليل اضاءة فأطلقوا نيرانهم وقذائفهم عليها وخشى الحراس على حياتهم فتوقفوا عن السير وغادروا السيارة واحتار سولجنتسين هل ينبههم الى خطئهم أم يتركهم على عماهم. وأخيرا قرر تنبيههم فسلموه خريطة المكان ليدلهم على الطريق الصحيح . وأراد رجل المخابرات أن يتلطف معه فأعاد اليه حافظة السجائر التى أخذها منه ودعاه الى التدخين وهكذا اضطرته مفارقات الحياة أن يدلهم الى الطريق المؤدى الى السجن الذى سوف يودعونه فيه. وعند وصوله الى مركز قيادة الجيش السادس والاربعين فى مدينة اوسترود البروسية الصغيرة تم للمرة الثانية تفتيش ملابسه وحقيبته . كما تمت للمرة الثانية مصادرة حافظة سجائره ثم اقتيد إلى زنزانة تحت الارض ليرقد على كومة من القش فوق أرضيتها المصنوعة من الأسمنت المسلح ثلاثة سجناء آخرين، وفى الصباح تعرض

سولجنتسين للإذلال عندما حضر الى السجناء رقيب أول ليأمرهم بالصعود إلى الفناء ليقضوا فيه حاجاتهم فى وقت واحد تحت مرأى الحراس الذين يحملون المدافع الرشاشة. وفى ذلك اليوم نفسه اصطف اديبنا مع سبعة سجناء آخرين كانوا من المجندين الروس الذين شاء حظهم العاثر أن يقعوا فى أسر القوات الألمانية لفترات طويلة قد تصل إلى أعوام، الأمر الذى جعل السلطات السوفيتية تنظر إليهم بعين الريبة وتشك فى ولائهم لها . ومن ثم تقوم لأسباب أمنية باستدعائهم إلى روسيا تحسبا لأى عدم ولاء وطنى قد يظهرونه : واصطف بجوار سولجنتسين سجين ثامن مدنى جنسيته ألمانية وعز على أديبنا أن يمتهن شرفه العسكرى إلى حد المساواة بينه وبين العدو، فأصر أن يقوم السجين الألمانى بحمل حقيبته ففعل وظل هذا السجين الألمانى يحمل هذه الحقيبة حتى سقط من الإعياء فتناوب حملها السجناء السبعة الآخرون الذين كانوا مجرد أنفار . وقطع السجناء الطريق مشيا على الأقدام لمدة يومين فى جو قارص شديد الرطوبة ينهمر فيه الثلج فيجمد أطرافهم ولفتت بزة سولجنتسين العسكرية بأزرارها

الذهبية اللامعة أنظار بعض سائقى المركبات على الطريق فظنوا أنه أحد الخونة المتعاونين مع العدو من أتباع الجنرال فلاسوف فصاحوا فيه وسخروا منه ووجهوا سيلا من الاهانات إليه، فابتسم فى وجوههم فعلا صياحهم وزادت إهاناتهم له. وفى بلده برودنتيس أودع الحراس سجناءهم الزنزانات حيث مكث مؤلفنا فى إحداها ثلاثة أيام . وهناك سمع لأول مرة فى حياته ما يتعرض له السجناء من تنكيل وتعذيب واستجواب . وبعد انقضاء هذه الأيام الثلاثة خرج سولجنتسين من زنزانته تحت حراسة نقيب وجاويشين حمل كل منهما إلي جانب أسلحته الأوتوماتيكية حقيبتين مثقلتين بغنائم وأسلاب استولى عليها بعض رؤسائهم من الضباط الذين طلبوا منهم توصيلها إلى موسكو سالمة . وفهم سولجنتسين من كلام حراسه أنهم يتجهون شطر موسكو. وقطع أديبنا المرحلة الأولى من رحلته إلى موسكو فى قطار بضائع تمتلىء عرباته بحشد من النساء والفتيات اللاتى حامت شكوك السلطات السوفيتية حول ولائهن لها لا لشىء إلا لأن قدرهن شاء لهن أن يعشن فى ظل الاحتلال الألمانى

وعند وصول قطار البضاعة إلى الحدود الروسية قامت السلطات المحلية بحجزهن تمهيدا لاستجوابهن. ولكنها سمحت له بمواصلة رحلته التى استمرت أربعة أيام فى قطار سريع ومريح بعض الشيء يتجه إلى موسكو ، وبدأ نوع من الألفة يربط بينه وبين حراسه الذين وفروا على سجينهم الحرج، فتظاهروا بأنه ليس مقبوضا عليه . وقدم إليه الضابط الفودكا وسمح له بالمشى فى طرقات القطار تحت حراسه حارس واحد فقط . ويصور لنا سولجنتسين فى قصيدته «الطريق» رحلة عودته من ألمانيا إلى موسكو التى شبهها بعودة الشاعر وليم كوتشليكر صديق بوشكين إلى روسيا فى عهد القيصرية فى ظروف مماثلة .

لم تثر ثائرة سولجنتسين من جراء معاملة السلطات السوفيتية السيئة له بل قبلها واستسلم لها . ولا غرو فقد كان رغم شكوكه فى ستالين لايزال مؤمنا بالنظام السوفيتى وفيا له ويرى أنه يمكن تغييره بالوسائل السلمية والديموقراطية . وخطر له أن يبلغ زوجته ناتاليا بما حدث له فهداه تفكيره إلى التقرب إلى فتاة جميلة من ركاب القطار استجابت لكلامه

معها على الفور . ولاحظ الحارس هذا الاستلطاف فابتعد عنهما حتى يخلو لهما الجو ولا يحرجهما فاغتنم سولجنتسين هذه الفرصة السانحة ومال إلى الفتاة وهمس إليها أنه سجين تحت الحراسة وكرر أمامها عنوان زوجته وطلب منها أن تحفظه . لكن الفتاة ابتعدت على الفور وأشاحت بوجهها عنه . وظن الحارس أن أديبنا عرض عليها عرض يخدش الحياء فازورت عنه . وحين وصل القطار الذى يستقبلونه إلى موسكو اتضح له أن حراسه أسقط فى أيديهم وأنهم يحتاجون إلى إرشاده إذ لم يسبق لهم قط زيارة موسكو . وللمرة الثانية لعب سولجنتسين دور المرشد لحراسه ودلهم على الطريق إلى سجن لوبيانكا المعروف الذى وصل إليه فى ٢٠ فبراير ١٩٤٥ ويسجل سولجنتسين هذه التجربة فى الصفحات الأخيرة من كتابه «الدائرة الأولى» .

سجون ومعسكرات عمل في حياته – سجن لوبيانكا:

عندما وصل سولجنتسين إلى سجن لوبيانكا الشهير زج به السجانون فى زنزانة يتدلى من سقفها ضوء باهر

لايتناسب مطلقا مع ضيقها الذى لم يسمح له بمجرد تمديد رجليه . واقتحم عليه الزنزانة رجل يلبس معطفا رماديا سأله عن اسمه وطلب إليه أن يخلع ملابسه ويضعها على الأرض . وعندما صار سولجنتسين عاريا كما ولدته أمه اقترب منه الرجل وطلب منه أن يفتح فمه ويقول (آه) وأن يرفع لسانه إلى سقف حلقه ، وأدخل الرجل أصابعه فى فمه المفتوح وتحسس خديه. ثم أنزل جفنى السجين السفليين وحملق فيهما دافعا برأسه إلى الوراء، فاستقر الضوء الساطع على فتحتى أنفه وبعد أن تحسس بأصابعه أذنيه أمره أن يبسط يده ويرفع ذراعيه ليتأكد من أنه لايخفى شيئا تحت إبطه . كل هذا فعله الرجل فى صمت مطبق وبوجه جامد خال من التعبير . ثم طلب إلى السجين أن يمسك بقضيبه ويقلب غرلته ويحركها ذات اليمين وذات الشمال وأن يفتح رجليه كالبرجل بقدر ما يستطيع بغية فحص ما بينهما فحصا دقيقا . ثم عاد وطلب منه الانحناء مبعدا بيديه كل ردف عن الآخر حتى يتمعن فيما بينهما وأخيرا طلب منه أن يقف ويجلس القرفصاء مرارا وتكرارا حتى يطمئن إلى دقة فحصه لجسد السجين . وأشار

إليـه - رغم أن أسنانه كـانت تصطك من شـدة البـرد - أن يجلس وهو عار على مقعد قصير بدون مسند . وبعد ذلك اتجه الرجل ذو المعطف الرمـادى إلى كـومـة الملابس الملقـاة على الأرض فـفـحـصـهـا فى الضـوء قطعة .. قطعة .. سـرواله .. فـانلته .. جـواربه قبل أن يقذف بهـا عند قـدميـه ويطلب إليـه ارتداءهـا ثم التـقـط حـذاء السـجين ذا الرقـبـة الطويلة وهزه باحتـقـار ليسقط منه بعض أجزاء قلم رصاص صـغيـر كان يأمل فى إخفـائه ، وأمسك بمطواه نزع بهـا كعب الحذاء وقام بفحص سـترته بعناية شـديدة بعد أن خلع بطانتـهـا ، كمـا أخـرج حـشـو مـعطفـه ليـرى مـا عـسى أن يكون بداخله . واسـتـغرق هذا التـفـتـيش سـاعـة كـاملة تمزقت فـيـهـا ثيـاب سولجنتسين وحذاؤه وتحولت إلى خرق وأسمـال ، وزاد الطين بلة أن تطايرت أزار بنطلونه مما جعله عـاجـزا عن رفـعـه فلمـا شكا إلى الحـارس أشـار إليه بـاقتضـاب شـديد أن يسـتـخـدم قطعـة من الدوبار ليـمنـع البنطلون من أن يتـدلى . وتصـور «الدائرة الأولى» وقع هـذا النوع من التـفـتـيش عليـه ، فـقـد أصـابه بنوع من العـجـز عن الكلام أو المناقشة إذ كان يتوقع

أن يتبادل الرأى مع المحقق ويقارعه الحجة بالحجة . وأدرك سولجنتسين بالغريزة أن مثل هذا النوع من التفتيش ليس له سوى هدف واحد هو تحطيم إرادة السجين وفى هذا الصدد كتب مؤلفنا فى وقت آخر يقول : « وهكذا تتلاشى بسرعة عادة الإنسان الحر فى التفكير فى عواقب أى شيء قبل الإتيان به» كما أن مثل هذه الإجراءات كفيلة بأن «تهنهن السجين وتجعله فى حالة من الذهول والحذر وتحرمه من التعقل وسلامة الإدراك ومن إرادة المقاومة».

ثم دخل عليه للمرة الثانية سجان آخر وطلب إليه أن يخلع ملابسه وأن يجلس على المقعد ودون أن ينبس ببنت شفة امتدت يده إلى رأسه ليحلق كل شعره فيها ويجعلها صلعاء تماما ، وكذلك أزال الشعر تحت إبطيه وفى مواضع أخرى . وبعد الحلاقة جاءه الطبيب ليطلب منه أيضا خلع ملابسه ويسأله إذا كان يعانى من أية أمراض تناسلية أو البرص أو غيره من الأمراض . وبعد الطبيب جاءه سجان آخر ليرافقه إلى الحمام ليأخذ دشا واكتشف بعد خروجه منه أن الحراس أخذوا ثيابه لتعقيمها ثم أعادوها إليه بعد مضى بعض الوقت

رطبة مكرمشة تلسع من شدة حراراتها ثم اصطحبوه عبر ممرات ودهاليز كثيرة إلى غرفة التصوير حيث أخذوا له صورا فوتوغرافية للوجه وبالجنب، كما أخذوا بصماته فى بطاقة قبل أن يعيدوه إلى زنزانته . وفى كل مرة يخرج منها أو يدخل إليها يسأله السجان عن اسمه واسم أبيه وجده وتاريخ ومكان ميلاده وحاول الخلود للنوم فى زنزانته ولكن الحارس أيقظه وطلب إليه ارتداء ملابسه ليرافقه عبر ممرات ودهاليز وسلالم وأفنية إلى حجرة كبيرة احتوت على غير العادة بنكا خشبيا طويلا مثبتا فى الحائط يمكن النوم عليه وهناك فوجىء السجين بسجانه يعطيه مرتبة وملاءة وبطانية ومخدة وكيس مخدة حتى ينام . ولكن لم يكد يغمض له جفن حتى دخل عليه السجان فى عنف ليخبره أن التعليمات تقتضى منه أن ينام بشرط أن يخرج ذراعيه من تحت البطانية . ورغم بساطة هذا الشرط فقد كان كفيلا بأن يطير النوم من عينيه . وظل يتقلب طوال الليل فى فراشه رغم شدة إنهاكه، ولم يذق النوم إلا على نحو متقطع - للغاية ، ولم يدر بخلده أنهم كانوا بذلك يعدونه للمثول أمام المحقق الذى

استمر التحقيق معه أربعة أيام بلياليها أمكن من خلالها حرمانه من النوم بحيلة غاية فى البساطة فتعليمات السجن تقتضى من السجين ألا ينام بعد الساعة السادسة صباحا . ولهذا كان التحقيق معه يستمر طوال الليل حتى مطلع الفجر بحيث لايستطيع النوم حسب المواقيت التى تحددها لوائح السجن. وكان التحقيق يتم معه فى غرفة واسعة عالية السقف معلق، على أحد جدرانها صورة ضخمة لستالين على يد محقق اسمه آى . آى . إيزيبوف الذى بدأ بتلاوة الاتهامات ضده والقوانين التى يحاكم بموجبها ، الأمر الذى يوحى بتوفر أقصى درجات العدالة . وتتلخص هذه الاتهامات فى أمرين أولهما التشهير بالاتحاد السوفيتى وثانيهما وهو الأخطر التآمر لقلب نظام الحكم. واعتمد المحقق فى اتهاماته على نسخ المراسلات التى تبادلها سولجنتسين مع نيكولاى وكيريل وليديا وزوجته ناتاليا فى الفترة من إبريل ١٩٤٤ حتى فبراير ١٩٤٥ وواجهه المحقق بنسخة من القرار رقم ١ الذى كان يخفيه فى حافظة خريطته . فرد عليه سولجنتسين بأن التهمة التى يحاول إلصاقها به غير صحيحة . فهو وزوجته

وأصدقاؤه الثلاثة يؤمنون بوطنهم وبالنظام السوفييتى وأنهم لايهدفون إلى الإطاحة به بل مجرد إدخال بعض التعديلات والإصلاحات عليه وذلك بالعودة إلى الأسس اللينينية السليمة . والغريب أن أديبنا ظل حتى تلك اللحظة يعتقد أن النظام السوفييتى فى جوهره يسعى إلى إقامة العدل بين الناس ، ولكن ثقته فى هذا النظام بدأت تتزعزع عندما أدرك أن مظالم النظام ليست فردية ولكنها جماعية. فبعد أن قام المحقق بحبسه انفراديا لمدة أربعة أيام أمر بإيداعه فى زنزانة عامة، وجد فيه ثلاثة مسجونين فى مثل حالته تماما فتهلل لمرآهم وأحس بوشائج القربى تربطه بهم . يقول مؤلفنا فى هذا الصدد فى «أرخبيل الجولاج» إن السجين عندما يقابل فى سجنه زملاء له يشاركونه المصير نفسه يلازمه شعور مدى الحياة بأنهم أصبحوا أفرادا فى عائلته ، وأحس سولجنتسين بوشائج القربى تربطه أكثر وأكثر بواحد من النزلاء الثلاثة وهو رجل مسن اسمه أناتولى إليتش فاستنكو، كان بلشفيا قديما قبض عليه فى ظل النظام القيصرى عام ١٩٠٤ ، ولعب دورا فى إشعال ثورة ١٩٠٥ الأمر الذى أدى إلى الحكم عليه

بالأشغال الشاقة لمدة ثمانية أعوام وبالنفى أيضا غير أنه استطاع الهرب خارج روسيا إلى كندا والولايات المتحدة ليعود أخيرا إلى بلاده بعد قيام ثورة أكتوبر ١٩١٧ .

وزاد اهتمام سولجنتسين بهذا الرجل عندما أدرك أنه كان يعرف لينين معرفة شخصية . ودهش أديبنا كثيرا عندما ألح على فاستنكو أن يروى له حكايات ونوادر عن لينين العظيم فوجده غير مكترث تماما بهذا الموضوع . الأمر الذى اعتبره مؤلفنا انتهاكا للمقدسات ، فقد كان لينين لايزال فى نظره الرجل العظيم الذى أسس الدولة السوفيتية . فضلا عن أنه تضايق من أن اسم زميله النزيل وهو اليتش هو الاسم نفسه الذى كان أصحاب لينين ينادونه به ، وأن زميليه السجينين الآخرين كانا يناديان فاستنكو به فى سياق أبعد ما يكون عن الهيبة والكرامة مثل قولهما له : «إليتش ، الدور عليك فى حمل جردل التبول للخارج»، وعرف سولجنتسين من فاستنكو أن سبب القبض عليه فى عهد ستالين يرجع إلى أنهم وجدوا فى حوزته مسدسا قديما، وأظهر فاستنكو سخطه عندما لاحظ أن أديبنا يكن التبجيل والإجلال للينين فى حين أنه يحتقر

خلفه ستالين موحيا بذلك أن كلا الرجلين سواء، ونصحه فاستنكو بوصفه متخصصا فى الرياضيات أن يطبق مذهب ديكارت فى الشك على كل مقولة يسمعها أو يقرأها ، كما نصحه بالامتناع عن قراءة روايات وأعمال مكسيم جوركى باستثناء عمل واحد غير معروف بعنوان «أفكار فى غير وقتها»، يتضمن هرطقة وشكا فى البلاشفة، كان جوركى قد نشره كسلسلة من المقالات فى جريدة الحياة الجديدة الصادرة فى بتروجراد وذلك فى الفترة من مايو ١٩١٧ حتى يولية ١٩١٨ . ولكن الاتحاد السوفييتى حظر إعادة نشرها .

وأظهر سولجنتسين درجة أقل من الاهتمام بمحام أوروبى فى منتصف العمر من أستونيا اسمه سوسى ، تلقى تعليمه فى جامعة بتروجراد ويتقن إلى جانب لغته الأم وهى الاستونية ثلاث لغات يتحدثها بطلاقة هى الروسية والألمانية والإنجليزية ، وتحين سولجنتسين فسحة التريض لمدة عشرين دقيقة المعطاة للمساجين ليتعرف على آراء هذا المحامى الأوروبى ومواقفه السياسية، فأعجبه تحمسه الشديد لبلده أستونيا وحديثه الطلى دون انقطاع عن روعة نظام حكمها

الديموقراطى ، وهو نظام استمد البرلمان الأستونى دستوره من أرقى الدساتير الأوروبية وأرفعها شأنا . ورغم أن مؤلفنا لم يقتنع بهذا الكلام عن الديموقراطية فور سماعه له ، فقد غار في وجدانه واستقر فيه، ليجد فى نفسه صدى له فيما بعد.

واكتشف سولجنتسين أن إدارة السجن دست عليهم فى الزنزانة نفسها سجينا ثالثا اسمه كرامارنكو لتستقى منه أخبار بقية الزملاء وردود فعلهم تجاه جلسات التحقيق معهم بهدف تدمير روحهم المعنوية ، وشعر أديبنا بالنفور من هذا الرجل منذ اللحظة الأولى التى رآه فيها ، وأدرك من التجربة أنه ليس هناك زنزانة فى سجون الاتحاد السوفييتى تخلو من وجود مخبر أو جاسوس ينقل أخبار المسجونين إلى المسئولين.

ثم انضم إلى الزنزانة نزيل خامس أطلق عليه سولجنتسين فى «أرخبيل الجولاج» اسم ليونيد زد وهو مهندس وابن فلاح كان فى يفاعته يسير حافى القدمين ولكنه استطاع بفضل التغييرات التى أدخلتها الثورة البلشفية على نظام التعليم

الروسى أن يتبوأ أعلى المناصب ويتمتع بأعلى الدخول . ولم يتحمل هذا الرجل صدمة السجن فانهار وأصبح دائب النحيب والبكاء . وفى حزنه البالغ كان يذكر النعمة التى ولت عنه ، ويتحدث بزهو وفخر عن نزواته الجنسية الماضية وأحصى الفتيات اللائى فض بكارتهن فوجد أن عددهن يصل إلى مائتين وتسعين ، ويبدو أن انفلات لسانه كان السبب فى بلواه فضلا عن تفاقم المشاكل على رأسه عندما أثار حنق البوليس السرى عليه برفضه أن يعطى المدعى العام مواد البناء بالمجان ليبنى بها الفيلا الخاصة به .

وفى سجن لوبيانكا كانت القيود المفروضة على السجناء كثيرة كما كان الطعام الذى يوزع عليهم قليلا لا يسمن أو يغنى من جوع . ومع هذا كانت هناك ميزة حيث إن المكتبة نخرت بالكتب المحظورة التى لم تلتفت إدارة السجن إلى وجودها ، الأمر الذى يدل على أن «باب النجار مخلع». فقد كانت سلطات الأمن حريصة كل الحرص على حظر مثل هذه الكتب. وساعد هذا الإهمال مؤلفنا على قراءة أعمال كثير من المنشقين أمثال زامياتن وبلينياك وبانتيلمون ورمانوف إلى

جانب أعمال ميريز كوفسكى الكاملة ومؤلفات دوس باسوس التى قرأها لأول مرة أثناء وجوده فى لوبيانكا ، وأمكن له أن يشغل وقته بالقراءة مستفيدا من حرص إدارة السجن على توفير كتاب واحد لكل نزيل بصفة دورية (بصرف النظر عن عنوانه أو مضمونه) ومن ثم كان لدى النزلاء فى زنزانة واحدة باستمرار ما يقرأونه .

ثم وصل نزيل سادس اسمه يورى واى وهو ضابط روسى سقط أسيرا فى أيدى الألمان لمدة سنتين. وشرح يورى لزملائه المسجونين السبب فى سوء المعاملة التى يتلقاها الأسرى الروس بالذات على أيدى الألمان دون بقية الأسرى من الجنسيات الأخرى . فقد رفض ستالين الاعتراف بمعاهدة الهاج الخاصة بمعاملة أسرى الحرب كما رفض الاعتراف بمنظمة الصليب الأحمر الدولى ، لرغبته فى أن يكون حرا فى معاملة أسرى الحرب فى بلاده على النحو الذى يشاء دون أن يتقيد بأية مواثيق دولية وبسبب ما لاقاه يورى من معاملة سيئة على أيدى الألمان ، تحول من مواطن سوفيتى يحب بلاده ويذود عنها، إلي عدو لدود للنظام البلشفى، وعميل

للأعداء الألمان، فقد تطوع فى صفوف الجنرال فلاسوف من أجل تحرير روسيا من قبضة الشيوعيين. وساهم يورى فى تنظيم وإدارة مدرسة للتجسس على بنى جلدته .

ولكن المخابرات السوفيتية استدرجته حتى وقع فى فخاخها ، فقد وعدته بالعفو عنه لو أنه أمدها بالمعلومات اللازمة عن هذه المدرسة . وبعد تردد شديد قبل يورى هذا العرض وعبر الحدود إلى بلاده وأخبر إدارة مكافحة التجسس الروسية بكل ما يعرف، ليكتشف غفلته وأن المخابرات السوفيتية خدعته وغررت به ليقع فى قبضتها ، ورغم استنكار سولجنتسين وتقززه من خيانة يورى فقد أعجبته شخصيته الواضحة الصريحة . ولم تطل مدة بقاء يورى فى الزنزانة أكثر من ثلاثة أسابيع قضاها أديبنا فى النقاش معه وتبادل الرأى ، وكثيرا ما احتدم الخلاف بينهما ، فالرأى عند يورى أن البلاشفة الرواد ليسوا بالبطولة أو النبل الذى يحلو لسولجنتسين أن يصورهم به فهم من طينة ستالين نفسها . وعندما امتدح مؤلفنا الثورة البلشفية نظر إليه يورى بإشفاق شديد . ولما كال أديبنا المديح لمكسيم جوركى قال يورى إن

جوركى ليس سوى أكذوبة ومخلوق مضحك ممل اخترع نفسه مثلما اخترع شخصيات رواياته وأضاف أن ليو تولستوى هو الأديب الحق الذى يتربع فوق عرش الأدب الروسى .

ثم غادر يورى الزنزانة، ليأخذ مكانه سجين آخر يبدو الشحوب والبراءة على وجهه ويرتدى بذلة زرقاء رخيصة، وطاقية زرقاء فوق رأسه. وسأل السجناء النزيل الجديد عن سبب القبض عليه، فأجاب أنه كان يكتب بيانا إلى الشعب الروسى . واعتراهم الذهول عندما أجاب على سؤالهم عن السبب الذى حدا به إلى كتابة هذا البيان، فقد أسر إليهم فى حياء إنه الامبراطور ميخائيل رومانوف. فصعق سولجنتسين من هول المفاجأة .

ثم انضم إلى سجن لوبيانكا رجل اسمه فكتور الكسفيتش بيلوف كان السائق الخصوصى لخروتشوف فى الفترة ما بين ١٩٣٥ و ١٩٣٨ وللمارشال بليوكر وبعض الشخصيات البارزة الأخرى، ووصف هذا السائق لنزلاء السجن البذخ الذى عاشه قادة الكرملين فى حياتهم الخاصة واستمتاعهم بنعيم الدنيا وأطايبها ، وروى لهم قصته المفرطة الغرابة التى تدعو إلى

الضحك بقدر ما تدعو إلى الرثاء . كان بيلوف يعيش تحت
سقف واحد مع أمه العجوز . وفى يوم من الأيام زاره فى بيته
رجل وقور ذو لحية بيضاء وبعد أن رسم إشارة الصليب أمام
الأيقونة المعلقة فى البيت قال إن فكتور رجل مبارك وأن القدر
يخبيء له مستقبلا باهرا فسوف يطرأ على نظام الحكم
السوفيتى تغير جوهرى . وتنبأ الزائر لهذا السائق بأن يصبح
امبراطورا على البلاد. ومن ثم يتعين عليه أن يهيىء نفسه
لهذا الحدث الكبير . ولعبت هذه النبوءة برأس فكتور وتعجل
فيما يبدو تحقيقها فكتب فى خريف ١٩٤٣ بيانا بهذا الشأن
أطلع عليه أربعة من زملائه العاملين فى قطاع صناعة البترول
فى موسكو . وفى العام التالى كتب بيانا مماثلا عرضه على
عشرة عمال وفتاتين من زملائه . فأخفى زملاؤه الرجال سره
ولكن الفتاتين سارعتا إلى إفشائه إلى رجال البوليس السرى،
الأمـــر الذى أدى إلى الزج به فى سـجن لوبيـانكا، ورأى
سولجنتسين فى مثل هذه الحكايات التى لاتنتهى والتى يرويها
السجناء عن أنفسهم وعن زملائهم معينا لاينضب . كما رأى
أنها تنطوى على أهمية بالغة بما فى ذلك الحكايات الموغلة فى

الخيال بل إنه اعتقد أن مثل هذه الحكايات الموغلة فى الخيال تفوق فى دلالتها الحكايات التى تتسم بالواقعية وهكذا أصبحت الزنزانة المدرسة الحقيقية التى تعلم فيها كثيرا عن الحياة في بلاده .

ورغم انقضاء فترة على التحقيق الأول مع سولجنتسين أعاد المحقق النقيب إيزبيوف فتح ملفه مدعيا أنه بعد أن فرغ من إثبات تهمة التشهير بالوطن على المتهم وفقا للمادة ٥٨ فقرة ١٠ من القانون السوفيتى ، فسوف يقوم بإثبات التهمة الأخرى عليه وهى تهمة تكوين تنظيم معاد للدولة طبقا للفقرة ١١ من هذا القانون التى اعتمد فى إثباتها على الرسائل التى تبادلها سولجنتسين مع زوجته ناتاليا وأصدقائه الثلاثة نيكولاى وكيريل وليديا . وقرأ المحقق بعض العبارات الواردة فى هذه الرسائل رغم ما قد تنطوى عليه من هزل واضح بطريقة تجعلها تتحمل شتى المعارف والتأويلات ، مثل الإشارة إلى «عقد مؤتمر الاثنين الكبار» و «الحرب بعد توقف الحرب» والحاجة إلى تكوين «تنظيم جديد» وفتش المحقق فى الأوراق فوجد نسخا من مخطوطات القصص التى ألفها

أديبنا أثناء وجوده على الجبهة ، وهى القصص التى أحجمت الصحف عن نشرها لخروجها على التقاليد الأدبية السوفيتية المألوفة التى تركز على الإنجازات والبطولات فى ظل النظام البلشفى ، وعثر المحقق فى حوزته أيضا على مجموعة كبيرة من الصور الصغيرة للغاية فى حجم طابع البريد كانت قد أعجبت مؤلفنا فاستولى عليها لنفسه أثناء وجوده فى ألمانيا . وترك المحقق كل الصور واستبقى منها اثنتين فقط هما صورتا القيصر وتروتسكى، ليستند إليهما فى توجيه هذا السؤال للمتهم : « قل لى ياسولجنتسين. لماذا كنت تحمل صورة تروتسكى فى حقيبتك؟» وطلب منه المحقق أن يعود بذاكرته إلى عام ١٩٤٠ ليخبره بالموضوعات التى دار حديثه عنها مع زملائه أيام الدراسة فى الجامعة. وتظاهر سولجنتسين بالنسيان فاعترت المحقق ثورة غضب عارمة وأخذ يهدده بالويل والثبور وعظائم الأمور. وأراد مؤلفنا أن يتخلص من زنقته ، فادعى أن أحاديثهم كانت تدور حول موضوعات غاية فى التفاهة مثل الطقس والألعاب الرياضية. واعترض المحقق على أسلوبه المتهرب من الإجابة . فاستبدت

الحيرة به ما عساه أن يقول للمحقق وهو لايدرى إذا كان زملاؤه وزوجته قد تم القبض عليهم أم لا . وألمح المحقق أنه سوف يواجهه بهم. واعتبر مؤلفنا أن كيريل أكثر أصدقائه تعرضا للمخاطر بسبب هروب والده من البلاد بطريقة غير مشروعة. فضلا عن أن كيريل فى أحاديثه مع أصدقائه كان أكثرهم صراحة فى انتقاد النظام السوفييتى رغم أنه كان أشدهم تحفظا فى رسائله المكتوبة . واستبد بسولجنتسين قلق أكبر خشية أن يكون المحقق قد اكتشف فى حوزته تلك اليوميات والمذكرات التى كتبها والتى تتضمن وصفا دقيقا للحياة العسكرية فى جبهة القتال وتسجيلا مفصلا ودقيقا لكل ما سمعه من الجنود والضباط عن البؤس والشقاء اللذين عانى منهما الشعب الروسى أيام الحروب والمجاعات وإنشاء المزارع الجماعية . وبلغت اليوميات والمذكرات من الدقة حدا فائقا لدرجة أنها كانت لاتسجل الواقعة وتاريخ حدوثها فحسب بل اسم الراوى لها كذلك . وخشى مؤلفنا أن تقع اليوميات والمذكرات فى يد المحقق فتكون سببا فى توريط الذين باحوا بهذه الوقائع له . ويبدو أن المحقق اكتفى بما لديه

من رسائل لإثبات التهمة الموجهة ضده بتكوين تنظيم معاد للنظام ، ومن ثم لم يشأ أن يتجشم عناء قراءة المذكرات التى كتبها بالقلم الرصاص بشكل غير واضح وبخط منمنم صغير. ويخبرنا سولجنتسين فى «أرخبيل الجولاج» إن هذا المحقق نفسه قام أثناء التحقيق معه برفع سماعة التليفون ليعتذر لزوجته عن تأخيره بسبب انشغاله بعمل مهم ثم ليخبر عشيقته أنه سيكون عندها في غضون ساعة . واتضح لمؤلفنا أن الانكار لن يجدى فتيلا ، فهداه تفكيره إلى محاولة تصوير الرسائل المتبادلة على أنها مجرد لغو تلاميذ وعبث صبية ، ولكن هذا الموقف المتهرب باء بالفشل وانتهى به إلى أن يفضى للمحقق بما أراده من معلومات ، ومن بينها أن سولجنتسين وزملاءه كانوا يعترضون على سياسة فرض رسوم دراسية على التعليم العالى ، ويبرر مؤلفنا هذا الاعتراض بقوله إن مثل هذه السياسة من شأنها أن تبتعد بنظام التعليم السوفيتى عن المثل العليا الشيوعية المؤمنة بمبدأ المساواة بين البشر ، ويجدر بنا أن نذكر فى هذا المقام أن كثيرا من الطلبة الأبرياء تعرضوا للسجن فى معسكرات

الاعتقال لمجرد جأرهم بالشكوى من فرض رسوم على التعليم العالى وسأله المحقق إذا كان أيضا يعترض على تخفيض الأجر الذى يتقاضاه العامل عن الإنتاج بالقطعة ، فرد بقوله إن هذا الخفض لايحقق العدالة للعمال. ولكنه عاد إلى تبرير مواقفه بقوله إنها ترجع إلى صغر سنه وعدم خبرته والتفكير المتمركز فى الذات وعدم فهم نوايا الحزب فهما كافيا . ولكن هذا لم ينفع أو يشفع له ولم يمنع المحقق من أن يسجل فى تقريره أنه حاول تكوين تنظيم غير مشروع .. وقام منذ ١٩٤٠ فصاعدا بدعاية منظمة لمناهضة النظام السوفيتى .. ووضع خططا تفصيلية تهدف إلى استخدام القوة لتغيير سياسة الحزب والدولة، فضلا عن أنه لطخ بسوء قصد سمعة ستالين».

وفى هذه الجولة مع المحقق لم يتمكن مؤلفنا بأسلوب إجابته من إحراز أى شىء ذى بال اللهم إلا مكسب محدود للغاية يتمثل فى نجاحه فى إبعاد زوجته ناتاليا وصديقه كيريل وصديقته ليديا عن دائرة الاتهام . وفى الشهر الرابع من دخوله سجن لوبيانكا قامت إدارة السجن بإلقاء جميع يومياته

ومذكراته في الفرن لتلتهمها النيران ، مما سبب له كربا شديدا لفقدانه الأساس الذى كان يزمع أن يبنى عليه قصته عن الحرب على نحو ما فعل تولستوى في «الحرب والسلام» وعندما طلب منه المسئولون عن السجن التوقيع على ورقة تؤكد قيامهم بإحراق هذه اليوميات والمذكرات لأنه ليست لها أيه علاقة بموضوع الاتهام تنفس شيئا من الصعداء وزال عنه شيء من كربه .

وفى أول مايو ١٩٤٥ لاحظ سولجنتسين أن سجن لوبيانكا يسوده هدوء غير عادي . فضلا عن اختفاء المحققين من ممراته وأروقته ، ولا غرو فقد وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها . وكان يوم ٩ مايو فى العام نفسه يوما مشهودا فى موسكو خرج فيه الملايين ليهللوا ويرقصوا فى الميدان الأحمر ابتهاجا بانتصارهم النهائى على أعدائهم الألمان . ومن وراء قضبان زنزانته رأى مؤلفنا الألعاب النارية المنطلقة فى سماء موسكو فشارك فى الفرحة التى غمرت القلوب ، وفى ذلك اليوم المشهود خفف السجن العتيد على غير العادة من بعض قيوده كما أن إدارته صرفت وجبة مضاعفة للنزلاء .

ثم مرت بضعة أيام استدعى سولجنتسين بعدها لمقابلة المقدم كوتوف المنوط به الإشراف على حسن سير العدالة ولاستكمال التحقيق معه دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن القضية . فتناول كوتوف الملف الخاص بها وأخذ يتصفح محتوياته لمدة ربع ساعة يحاول فيها أن يلم بأطراف الموضوع – وتطلع سولجنتسين إليه فأدرك أنه لا خير يرتجى منه وأن «شهاب الدين أسوأ من أخيه» . ولكن هذا لم يمنعه من الاحتجاج بعدم صحة الاتهام الموجه ضده والخاص بتكوين تنظيم مناهض للدولة السوفيتية. مفندا إياه بقوله إن اثنين لا يكفيان لتكوين تنظيم واستمع إليه كوتوف فى صمت ثم تنهد ليقول : ماذا عسانا أن نقول ؟ إن الشخص الواحد لايخرج عن كونه فردا ، ولكن الشخصين فى عداد الجماعة».

ولم يمض وقت طويل حتى استدعاه النقيب ايزيبوف وهو المحقق نفسه الذى أجرى التحقيق معه عند دخوله السجن ليطلب منه أن يقرأ ما سبق أن أدلى به من شهادة قبل التوقيع عليها تنفيذا للمادة ٢٠٦ من القانون . ودفع إليه بالملف الخاص به فوقعت عيناه على الحقوق التى يكفلها

القانون السوفيتى له ولأمثاله من المتهمين ومنها حق المتهم فى الاعتراض على سير التحقيق معه وفى تسجيل هذا الاعتراض ، وعن له أن يحاول ممارسة حقه بأن يرفض التوقيع على صحة الاتهامات الموجهة ضده وبالذات الاتهام الخاص بتكوين تنظيم مناهض للدولة. ولم يهتز المحقق أو يتحرك له ساكن بل ببساطة قال له إنه يتعين فى هذه الحالة أن يبدأ التحقيق معه من جديد، وهدد باحتجازه فى المكان الذى يودع فيه المتعاونون مع الأعداء ، وخشى سولجنتسين من مغبة اغضاب المحقق فقام وهو صاغر بالتوقيع على صحة الاتهامات الموجهة ضده .

سجين بيوتركي :

فى نهاية يونيه ١٩٤٥ ثم نقل سولجنتسين من سجن لوبيانكا الشهير إلى سجن عادى فى موسكو اسمه بيوتركى حيث وجد نفسه وسط عدد كبير من الفلاحين والعمال الروس الذين رحلتهم القوات النازية إلى ألمانيا للعمل هناك ، أو من الروس الذين حاربوا بقيادة الجنرال فلاسوف فى صفوف الألمان للإطاحة بالنظام الشيوعى . ولعل أديبنا تذكر الأيام

الأولى من إلقـاء القـبض عليـه حين اسـتـهـزأ به بنو جلدته واعتبروه واحدا من الخونة من اتباع الجنرال فلاسوف ، ومن ثم شعر أكثر من أى وقت مضى برغبة ملحة في أن يحاول فـهم نفسـيـة هؤلاء الذين ارتضـوا لأنفسـهم أو اضطرتـهم ظروفهم التعسة (وهو ما عجز ستالين عن التمييز بينه وبينهم) للتعاون مع الأعداء . لقد خفى عليه أن ستالين كان يرى أن مجرد احتكاك أى مواطن روسى بالعالم الخارجى - سواء أكان عالم الأعداء من الألمان أو عالم الحلفاء من الأمريكان والإنجليز والفرنسيين - سبب كاف للشك فيه فهذا الاحتكاك قمين بأن يجعل مثل هذا المواطن يقارن بين الأحوال فى بلاده والأحوال فى البلاد الأوروبية ، وفى سجن بيوتركى نبهته حكايات المساجين إلى هذا البعد الخافى عليه فى السياسة الستالينية . وهنا تذكر يورى واى زميله القديم فى سجن لوبيانكا الذى أنحى عليه باللائمة عندما سمعه يعبر عن شدة اشمئزازه من مسلك الروس المتعاونين مع الألمان. وشعر سولجنتسين بأن زميله معه شىء من الحق، ومن ثم أصبح أكثر فهما وعطفا على هؤلاء البؤساء الذين اضطرتهم ظروفهم

إلى الخيانة .

والشيء الآخر الذي استرعى انتباهه في سجن بيوتركي هو الوضع المأساوي الذي وجد آلاف المهاجرين الروس أنفسهم فيه عندما تركوا بلادهم بسبب مقتهم للبلشفية للعمل في البلاد الأوروبية المختلفة، فقد شاء حظ بعضهم العاثر أن يسقطوا في يد القوات السوفيتية الزاحفة على أوروبا أو أن يسلمهم الغرب لقمة سائغة للحكومة السوفيتية ابتغاء لمرضاة ستالين. وبادرت السلطات السوفيتية بتقديمهم إلى المحكمة والزج بهم في السجون حيث اكتشف سولجنتسين عن طريق الاختلاط بكثيرين منهم أن حبهم لبلادهم التي تركوها ليعودوا إليها عنوة واقتدار أمر لايرقى إليه الشك .

وفي يوم ٢٢ يونيه ١٩٤٥ ترامت إلى أسماعه أنغام الموسيقى الصادحة احتفالا بمرور أربعة أعوام على بدء الحرب التي خرج منها الاتحاد السوفيتي ظافرا . وانتشرت شائعات بين النزلاء أن يوم الافراج عنهم قريب. وبالفعل أعلنت الحكومة السوفيتية يوم ٧ يوليه ١٩٤٥ عفوها عن المسجونين، ولكن هذا العفو كان قاصرا على المجرمين

والهاربين من الخدمة العسكرية وحفنة من السجناء السياسيين الذين صدرت ضدهم أحكام تقل عن ثلاثة أعوام ، وهو شرط لم ينطبق على حالة سولجنتسين . وفى يوم ٢٧ يولية ١٩٤٥ استدعته إدارة السجن مع زميل له من الزنزانة . فظن زملاؤهما أن ساعة الإفراج عنهما وشيكة فتهللوا وفرحوا لزميليهما . وسيق الزميلان مع نحو عشرين سجينا آخر إلى زنزانة فسيحة واسعة ظلوا فيها ثلاث ساعات ثم استدعتهم إدارة السجن واحدا بعد الآخر . ولما جاء دور سولجنتسين وجد نفسه فى الغرفة المستخدمة لاستقبال المساجين الجدد أمام ضابط برتبة رائد يجلس إلى منضدة صغيرة ويقلب فى برم شديد ملفه ويبلغه دون أدنى اكتراث وفى عجلة شديدة أنه صدر ضده حكم بالسجن لمدة ثمانية أعوام. فلم يفهم أديبنا فى بادئ الأمر كيف صدر الحكم ومن أصدره ضده دون أن يمثل أمام محكمة أو هيئة قضائية ، وعندما طلب الرائد منه التوقيع بالعلم قال سولجنتسين له : «كلا، لابد أن أقرأ الحكم بنفسى» ، فأجاب الرائد بقوله : «هل تظن حقيقة أنى أخدعك» ولكنه أضاف أن فى إمكانه الاطلاع

على الحكم إذا شاء ، وألقى مؤلفنا نظرة على الورقة المقدمة إليه فوجدها عبارة عن استمارة خالية من بعض البيانات مثل اسم المتهم وتاريخ ومكان ولادته ومكتوب عليها أنه تم سماع أقوال المتهم وثبت عليه تهمة القيام بدعاية مناهضة للدولة السوفيتية ومحاولة تكوين تنظيم للإطاحة بها .

ومن ثم صدر الحكم عليه بثمانية أعوام يقضيها فى معسكرات عمل إصلاحية ولم يجد سولجنتسين ما يقوله غير «ولكن هذا فظيع. ثمانية أعوام . لماذا؟» ولكن، الرائد كان فى عجلة من أمره ويريد الانتهاء من الإجراءات فطلب إليه التوقيع فلم يجد مناصا من أن يوقع . غير أنه قال : «فى هذه الحالة أسمح لى الآن أن أكتب طلبا بالاستئناف . فهذا الحكم غير عادل» فأومأ الرائد برأسه ليقول له : « يمكنك أن تفعل هذا عندما يحين الوقت» .. ولكن هذا الوقت لم يحن قط .

كان من المفترض أن يتم الاستئناف عن طريق ما يعرف بالهيئة الخاصة التى باشرت عملها فى سرية تامة وبتوجيه مباشر من المخابرات وستالين نفسه ولكن وجودها كان نظريا. فحيث إن هذه الهيئة لم يكن لها وجود فى مواد

القانون فقد تعذر على المتهم المثول فى حضرتها أو توكيل محام للدفاع عنه أمامها .

وهكذا لم تعدُ هذه الهيئة أن تكون إجراء إداريا بحتا . وكان من حقها أن تقوم بمحاكمة الأشخاص الخطرين من الناحية الاجتماعية دون الالتجاء إلى المحاكم بناء على تقارير البوليس السرى، الأمر الذى مكنها من محاكمة المتهمين غيابيا. وكانت الأحكام التى تصدرها الهيئة الخاصة أقسى بكثير من الأحكام التى لا تتجاوز مدة أحكامها عادة خمس سنوات تنتهى بالإفراج عن المتهم فى حين تراوحت أحكام الهيئة الخاصة من خمسة أعوام الى خمسة وعشرين عاما. واستند جهاز المخابرات السوفيتى المعروف بـ UGP (فى الثلاثينيات) على هذه الهيئة الخاصة فى إصدار أحكام بالجملة أثناء حملات التطهير على كل من اشتبه فيه النظام الستالينى. وفى عام ١٩٦٥ بعد إلغاء الهيئة الخاصة اعترفت صحيفة القضاء السوفييتى أن هذه الهيئة كانت فى العادة تنظر فى القضايا التى لا تتوفر فيها الأدلة الكافية ومن ثم يصعب على القضاء السوفييتى أن ينظر فيها .

ثم تم نقل سولجنتسين الى كنيسة سجن بيوتركى (تحولت هذه الكنيسة الي سجن مؤقت لا يمكث فيه النزلاء غير بضعة أيام) . وحزن مؤلفنا لفراق المسجونين الذين عاش بينهم لفترات طويلة تربطهم روح المودة ووشائج الألفة. وفى سجن الكنيسة لم تربطه عرى الصداقة بغير اثنين من مثقفى موسكو هما بوريس جاميروف الذى سبق أن تعرف اليه فى سجن بيوتركى والذى دارت بينهما مناقشات عديدة حامية الوطيس فى السياسة والأدب. اشترك جاميروف فى معارك الحرب العالمية الثانية ضد الألمان وأصيب فى رئته، مما جعل السلطات السوفيتية تعفيه من الخدمة العسكرية. فالتحق بقسم الأحياء فى جامعة موسكو وبدأ يستهويه قرض الشعر واشترك مع الطلبة بنشاط ملحوظ فى الندوات والحفلات. وكان ذلك السبب المباشر فى القبض عليه. وفى المناقشات التى احتدمت بينهما دهش سولجنتسين من أن جاميروف يعبر بحرقة عن إيمانه بالله ويقرع مؤلفنا لزرايته بالدين. وتعجب سولجنتسين كيف يمكن لجاميروف الذى ولد بعد الثورة عام ١٩٢٣ أن يحتفظ بالإيمان بالمسيحية فى حين أنه

هو نفسه الذى ولد وتعمد بالمسيحية فى وقت كان الدين المسيحي يسود البلاد من أقصاها الى أدناها ينبذ الدين ويصرح بكفره وإلحاده .

أما صديق سولجنتسين الآخر فى سجنه الجديد فهو جورجى انجال الذى كان يتمتع بموهبة أدبية جلية وتلميذا للروائى والناقد الشكلى **Formalist** يورى تينيانوف الذى تعرض للخسف وتنكيل النظام السوفيتى به. وفى جنازة تينيانوف عام ١٩٤٣ وقف التلميذ إنجال بجوار قبر استاذه ليتحدث بصراحة ودون مواربة عما تعرض له الفقيد من جور واضطهاد، الأمر الذى أغضب السلطات السوفيتية منه. فألقت القبض عليه وأصدرت ضده حكما بالسجن لمدة ثمانية أعوام . وفى المناقشات الدائرة انضم انجال الى جاميروف للهجوم على معبود سولجنتسين الأديب ألكسى تولستوى الذى أنحيا عليه باللائمة لموقفه الرافض للكنيسة . وكان لهجومهما وقع شديد على سولجنتسين لدرجة أنه بدأ يعيد النظر فى أفكاره ومعتقداته السابقة. ولفت انجال وجاميروف نظره الى روعة شعر باسترناك الذى لم يقرأ له أديبنا سوى

النزر اليسير .

وفي سجن بيوتركى أخذت ظروف سولجنتسين تتحسن بعض الشيء فقد سمحت له إدارة السجن بتلقى الطرود واللفائف التى تحوى الأطعمة والملابس من الخارج. الأمر الذى أتاح أمامه فرصة الاتصال بالعالم الخارجي وأن يبلغ أهله بمكانه وبأنه لا يزال حيا يرزق فقد كانت زوجته ناتاليا بعد أن انقطعت أخباره تظن أنه لقى حتفه فى الحرب، الأمر الذى جعلها ترسل خطابا الى الجاويش سولومين تستفسر فيه عن مصير زوجها . ولم يقم سولومين بالرد عليها مباشرة ولكنه أرسل خطابا الى والدتها فى الأسبوع الثانى من شهر أبريل ١٩٤٥ مفاده أن سولجنتسين حى يرزق دون أن يروى أى شيء مما حدث له. وفى الوقت نفسه انقطعت أخبار نيكولاى الذى توقف عن إرسال الخطابات الى أهله والى ناتاليا.

ثم بعث الجاويش سولومين برسالة أخرى أقل حذرا وحرصا من رسالته الأولى مفادها أن سولجنتسين فى وضع لا يسمح له بالكتابة وأن من المصلحة عدم الاستفسار عنه .

وعندما سألت إدارة السجن مؤلفنا عن اسم وعنوان الشخص الذى سيتولى ارسال الطرود واللفائف اليه ذكر اسم وعنوان فيرونيكا خالة زوجته حيث انها كانت تعيش فى موسكو . واتصلت الخالة بزوجته . ابنت اختها فى روستوف لتخبرها أنها قامت بتسليم لفافة الى زوجها. وبهذا تأكدت ناتاليا للمرة الأولى منذ انقضاء ستة أشهر على القبض عليه أنه نزيل أحد السجون فى موسكو. ولم يكن باستطاعتها أن تسافر على الفور الى موسكو لارتباطها بالعمل فى معامل جامعة روستوف، غير أنه كان من حسن حظها أن الأستاذ المشرف على دراساتها العليا فى قسم الكيمياء الطبيعية بهذه الجامعة عرض عليها أن تواصل دراساتها العليا فى جامعة موسكو. فرحبت ناتاليا بهذا العرض الذى سيمكنها من أن تعيش على مقربة من زوجها السجين، الذى احتفظت بأمر القبض عليه سرا لا تبوح به حتى لا تتعرض بدورها الى المضايقات أو الاضطهاد . وفى موسكو عجزت فى بادئ الأمر عن الالتحاق بالجامعة. غير أن أحد الأساتذة واسمه البروفيسور كوبوزيف وافق فيما بعد على قبول الإشراف عليها. وعادت ناتاليا إلى

روستوف لانهاء الإجراءات الخاصة بانتقالها إلى موسكو. وفى تلك الأثناء حدث شيء لم يكن فى حسبانها فقد تم نقل زوجها من سجن بيوتركى الى سجن آخر فى موسكو اسمه كراسنايا بريسنيا تمهيدا لإرساله الى أحد معسكرات العمل.

سجن كراسنايا بريسنيا:

كان سجن كراسنايا بريسنيا بمثابة القلب فى شبكة السجون الكثيرة المنتشرة فى طول الاتحاد السوفييتى وعرضه. ويكاد كل سجين سوفيتى أن يكون قد مر عليه لأنه لا سبيل الى الوصول الى معظم السجون السوفيتية الأخرى إلا عن طريقه وفى هذا السجن الجديد شعر سولجنتسين بالوحشة والأسى لوجوده وسط جماعة من عتاة القتلة والسفاحين والمجرمين الذين يلجأون الى أساليب البلطجة لفرض سيطرتهم على بقية النزلاء، فى حين كان جميع النزلاء فى سجن بيوتركى من أصحاب الفكر الذين فقدوا حريتهم بسبب مواقفهم السياسية المعارضة. حتى حراس السجن الجديد كانوا يشاركون المساجين ممتلكاتهم القليلة عنوة واقتدارا. وحين وصل جميع المسجونين فى سيارة مقفلة إلى

سجنهم الجديد ترامت الى اسماعهم أصوات صادرة من نوافذ الزنزانات تحذرهم من أن السجناء المتعاونين مع إدارة السجن والمناط بهم أمر تفتيشهم سوف يستولون على كل ما يمتلكون من تبغ وشاى وسكر . ولهذا نصحهم أصحاب هذه الأصوات الصادرة من قاع الزنزانات بقذف كل هذه الأشياء من خلال نوافذها ليحتفظوا لهم بها فى الحفظ والصون ثم يعيدونها اليهم بعد الانتهاء من اجراءات التفتيش . ولكنه اتضح للنزلاء الجدد أنها مجرد خدعة يلجأ اليها المسجونون القدامى للاستيلاء على ممتلكات النزلاء الجدد.

كانت إدارة السجن تأبى أن تسمى أى سجين سياسى بالرفيق عند مخاطبته كما كانت تحظر عليه أن يخاطب الآخرين بهذا اللقب، فاستعمال كلمة رفيق عند مخاطبة أى شخص معناه وجود وشائج تربط بينه وبين النظام السوفيتى. ولهذا كان الحراس والضباط يسمون السجين السياسى بالسيد أو المواطن للدلالة على غربته عن المجتمع، كما كانت إدارة السجن تشجع المجرمين العاديين على التطاول على السجناء السياسيين ورميهم بالفاشية لأنها ترى أن السرقة

والقتل أهون شأنا من الخروج على النظام السياسى.

وعندما دخل سولجنتسين وزميله السجين السياسى فالنتين زنزانتهما وجدا أنها شديدة الصغر وتزدحم بالمجرمين. واقتضت الأعراف السائدة بين نزلاء السجن أن ينام أقدمهم فى أعلى الأسرة المثبتة بالجدران بالقرب من النافذة، فى حين ينام النزلاء الحديثون على الأسرة السلفى. وهكذا دواليك بحيث ينام النزلاء الأكثر حداثة فى أسرة تقع فوق أرضية الغرفة مباشرة فإذا وفد عليهم سجناء جدد تعين عليهم افتراش الأرضية حتى تخلو لهم أماكن على الأسرة السفلى ثم العليا كل بحسب ترتيب أقدميته. وأجال سولجنتسين وفالنتين بصرهما فى الغرفة فوجدا أن هناك مكانين خاليين تحت سريرين سفليين بعيدين عن جردل البراز والتبول الذى تفوح منه الروائح الكريهة. وبصعوبة استطاعا أن يحشرا نفسيهما تحت هذين السريرين. وما أن فعلا هذا حتى أعطى أحد النزلاء من مكانه العالى المتميز بالقرب من النافذة إشارة الى أتباعه للهجوم. وبسرعة خاطفة وفى لمح البرق هجم ستة من الأشاوس المفتولى العضلات

عليهما مغتنمين فرصة انحشارهما تحت الأسرة واستولوا على صرتيهما المليئتين بالطعام .. وعز عليهما أن يفقدا كل ما لديهما من طعام فى غمضة عين ودون أدنى مقاومة. فكمشا جسميهما حتى استطاعا الخروج زحفا من تحت الأسرة. وألقى سولجنتسين نظرة على اللصوص فوجدهم فتية أشداء يرأسهم مجرم قوى مشوه الوجه من كثرة العراك والمشاجرات فأدرك مغبة بذل أية محاولة من جانبه لاستعادة ممتلكاته. فقال للصوص حفاظا على ماء وجهه إن العدل يقتضى أن ينام هو وزميله على الأسرة مقابل الطعام الذى فقداه . وما أن اقترح سولجنتسين هذا حتى شعر بالخزى لاستسلامه للبلطجة والتجائه الى مثل هذه المساومة الرخيصة. ومما زاده شعورا بالخجل من نفسه أن زعيم العصابة وافق على اقتراحه وأرغم اثنين من النزلاء السياسيين على التنازل عن سريريهما له ولزميله وعلى افتراش الأرض بدلا منهما .

وفى سجنه الجديد تعلم سولجنتسين دروسا جديدة تختلف عما سبق أن تعلمه فى السجون السابقة. فعندما ألقى

القبض عليه فى ألمانيا ظن أن أسوأ شىء يمكن أن يحدث هو أن ينام أربعة مساجين فى زنزانة ضيقة شديدة البرودة تحت الأرض أو أن يسير الانسان لمدة يومين متتاليين بلسعة الريح القارص والمطر البارد. وفى سجن لوبيانكا اكتشف عذاب الحبس الانفرادى والعذاب النفسى والعقلى الناجم عن إجراءات التحقيق. وفى سجن بيوتركى عرف الأمل الكاذب الخداع فى قرب الافراج عنه ليكتشف انه صدر ضده حكم بالحبس لمدة ثمانية أعوام.. وأنه ينام فى زنزانة واحدة مع مائتى سجين آخرين . أما سجن كراسنايا بريسنيا فقد عرف فيه الصقيع والريح الذى تجمد برودته أطراف الإنسان . الأمر الذى مهده للنفى فى جو سيبريا القارص. وعرف سولجنتسين أن زوجته وصديقيه كيريل وليديا بخير فغمره فرح عظيم . وشعر بالخجل من نفسه لما أظهر من فظاظة نحو زوجته. وحتى لا يكون مصدرا لتعاستها عرض عليها حرية الطلاق منه والزواج من رجل آخر .

وفى سجن كراسنايا بريسنيا كان من المستحيل على سولجنتسين أن يحصل على الهدوء الذى يحلم به فقد كان

هذا السجن بمثابة معبر يمور بحركة السجناء الغادين والرائحين. وبالنظر الى قصر الفترة التى يقضيها النزلاء فيه (فقد كانوا غالبا لا يمكثون هناك أكثر من يومين) لم يكن هناك متسع من الوقت كي يتعرف النزلاء الى زملائهم كما كان الحديث بينهم سريعا وخاطفا. ولكنه على أية حال اتسم بالصدق والصراحة المتناهية وهم يروون مآسى حياتهم. وكان بينهم سجين مخضرم متقدم فى السن متخصص فى الإنشاءات التف حوله بقية السجناء ليعطيهم خلاصة تجاربه في السجون السوفيتية فنصحهم بعدم تصديق أى مخلوق فى السجن فالكل بسبب الأثرة والأنانية على استعداد أن يدوس على أعناق الآخرين. كما نصحهم ما أمكنهم ذلك تجنب العمل فى معسكرات العمل لأنه كثيرا ما يفضى الى الموت بسبب الإجهاد وسوء التغذية. ورغم هذا قرر سولجنتسين أن يتطوع فى حمل خشب الأشجار من نهر موسكو . وهو عمل مجهد وشاق - حتى يهرب من جو زنزانته الخانق ويستنشق نسمة هواء متجددة ويهرب من الرائحة النتنة ودرجة حرارة الصيف العالية .

معسكر (أورشليم الجديدة) :

شاءت المصادفة أن تقع عينا فيرونيكا خالة زوجته ناتاليا عليه أثناء عمله فى حمل الأخشاب فأسرعت بالكتابة الى ابنة أختها كى تطمئنها عليه . ولكنها بالغت فى وصف حالته الصحية والمعنوية الجيدة حتى تبدد أى قلق قد يساورها عليه. وفى خطابها الى زوجته لم تستطع أن تشير الى اسم زوجها سولجنتسين صراحة خشية أن يقع فى يد الرقيب. ومن ثم تحايلت على هذا بأن أشارت اليه باستخدام أقرب اسم مؤنث له حتى لا يكتشف الرقيب عمن تتحدث وفيما بعد ضمن مؤلفنا هذه الحادثة فى «الدائرة الأولى». بعد أن أدخل عليها بعض التغييرات الطفيفة. وفى الوقت نفسه تلقت ناتاليا رسالة أخرى من زوجها بعث بها من السجن. (كانت ناتاليا فى ذلك الوقت قد اجتازت بنجاح امتحانات الكيمياء الصيفية فى روستوف وتستعد للسفر إلى موسكو حتى تكون بالقرب من زوجها. ولم يكن هذا بالأمر السهل فقد تعين عليها اقناع السلطات بالموافقة على تغيير محل اقامتها وإعطائها تصريحا بالإقامة فى موسكو) . ثم جاءها خطاب آخر من فيرونيكا

خالتها تخبرها فيه بطريقة ملتوية عن نقل زوجها الى معسكر عمل جديد أسمته للتعمية أورشليم الجديدة وأضافت إلى ذلك قولها أن ناتاليا امرأة محظوظة لأنها تستطيع السفر كل يوم أحد من موسكو الى أورشليم الجديدة ذات المناظر الجميلة الخلابة الواقعة فى قلب الريف والتى تسمى «سويسرا الروسية».

فى يوم ١٤ أغسطس ١٩٤٥ قامت عربتا لورى بنقل سولجنتسين مع ستين سجينا سياسيا إلى هذا المعسكر الجديد الواقع فى منطقة زيفنفجورود فوجدوا الشوارع والطرق تزدان بالأعلام فعرفوا أن اليابان استسلمت أخيرا وأن الحرب العالمية الثانية انتهت تماما. وكان المارة يتفرجون على السجناء القابعين فى اللوريات المكشوفة فيصرخون فى وجوههم قائلين «الفاشيون وصلوا» وعند وصول اديبنا الى المعسكر بدا له مريحا على غير حقيقته. وراقت له المناظر الطبيعية الخلابة والهواء الطلق. ومن خلال الأسلاك الشائكة رأى التلال الجميلة وخضرة الريف الروسى الممتدة .

كانت الزنزانة التى زج فيها سولجنتسين تحتوى على

أربعة أسرة متراصة الواحد فوق الآخر مكونة من أسياخ أو قضبان حديدية غير ثابتة عليها ألواح خشبية عارية تماما حتى من مرتبة من القش .. وحاول مؤلفنا - كما طلب اليه - أن ينام على سريره بحذائه وكامل ملابسه . فلم تغمض له عين لأن أدنى حركة من جانب أى من زملائه النائمين كانت كفيلة بأن تهز سريره هزا يوقظه من نومه . وفى الفجر فى الساعة الرابعة والربع قبل أن يأخذ أديبنا أى قسط من النوم قام الحراس بإيقاظه مع غيره من المساجين ثم ساقوهم فى الظلام إلى المقصف ليتسلموا تعيينهم من الطعام المقزز الذى تعافه النفس. وبدأ نور النهار فى البزوغ فى السادسة صباحا. وجاء دور توزيع الأعمال على المساجين فتذكر نصيحة زميلهم المخضرم بأن يتجنب كل منهم قدر استطاعته أداء ما يسمى بالواجبات العامة فى معسكرات العمل لأنها - كما أسلفنا - مضنية الى حد الموت ،ومن ثم دخل على المسئول عن توزيع العمال وهو يرتدى بزته العسكرية، الأمر الذى ترك فى نفس هذا المسئول أثرا طيبا جعله يعهد اليه بمهمة الإشراف على العمل بالاشتراك مع زميل له اسمه

أكيموف. ولكن لسوء حظ سولجنتسين وصلت الى المعسكر أثناء الوردية التى أشرف عليها مجموعة جديدة من السجناء تتكون من عتاة اللصوص والمجرمين الذين رفضوا الانصياع لأوامره ورفضوا القيام بأى عمل واكتفوا بأن تمددوا على الحشائش. وعندما حاول مؤلفنا ان يحفزهم للعمل ضحكوا منه ساخرين. لقد سبق أن تعلم فى سجن كراسنايا برويسينا النتائج الوخيمة الناجمة عن الاحتكاك بمثل هؤلاء المجرمين. وكان موعد انتهاء الوردية قد اقترب فتركهم وشأنهم. أما زميله أكيموف فكان أسوأ حظا فعندما فعل هؤلاء البلطجية معه الشيء نفسه ذهب ليشكو الى رئيسه الذى أمره بضرورة إرغامهم على العمل عن طريق استخدام الشدة معهم، مما أدى إلى ثورتهم عليه وضربه بقضيب من حديد ضربة أفضت الى تهتك كليته، الأمر الذى اقتضى نقله على الفور الى المستشفى ليختفى من المعسكر الى الأبد .

كان فى ذلك المعسكر العمل مصنع لإنتاج الطوب يقع بالقرب من منجم لاستخراج الطفلة اللازمة لتصنيعه ويتلخص عمل المساجين فى رفع الطفلة بالجاروف من المنجم الى

عربات نقل صغيرة تتحرك على قضبان عبر وديان صغيرة ليقوم ونش برفعها ثم دفعها الى المصنع. ولاحظ أديبنا أن مساعده وهو رجل من موسكو اسمه بارتينوف يتستر على تكاسل عماله وتراخيهم دون أن يبدو عليه أنه يفعل ذلك . ونظرا لأن هذا الرجل كان مخضرما فى الموقع ويعرف كل كبيرة وصغيرة عن طبيعة العمل فيه فقد استطاع بهدوء ومكر أن يستذل أديبنا ذلا بلا حدود وذلك بسؤاله عن بعض الجوانب الفنية فى العمل التى يجهلها سولجنتسين مستهدفا إحراجه والسخرية منه أمام الجميع. فعلى سبيل المثال سأله عما عساه أن يفعل عندما يتعطل الونش أو يجرى اى شىء لعربات النقل . فإذا عن لسولجنتسين أن يفتى برأى فى هذا الشأن بادر الرجل بتسفيه هذا الرأى أمام الملأ معتمدا فى ذلك على خبرته الطويلة بالموقع والعمل فيه . وكانت هناك رئيسة على سولجنتسين اسمها لولجا ماترونينا أعدمت السلطات السوفيتية زوجها الشيوعى فى الثلاثينيات وحكمت عليها دون سبب واضح بالحبس لمدة ثمانية أعوام . غير أن هذا الحبس لم يقلل قط من تحمسها المتأجج للنظام وولائها

الشديد له . وطلبت هذه المرأة من سولجنتسين أن يقوم بإرغام العمال على مضاعفة الانتاج فأسقط في يده فهو عاجز تماما عن السيطرة على مرءوسيه ومساعده بارينوف، كما أنه يعرف أن العمال مكدودون ويوشكون أن يتضوروا جوعا . ويطبيعة الحال عجز سولجنتسين عن تحقيق ما طلبته منه ماترونينا. فحضرت بنفسها لتهزأ به ومن عدم كفاءته أمام العمال وأمام مساعده بارينوف الذى أثلج صدره هذا الاستهزاء برئيسه. وأمرت ماترونينا بتنحية مؤلفنا عن وظيفته وتحويله الى مجرد عامل عادى يستخرج الطفلة وتعيين مرءوسه بارنينوف مكانه. وإمعانا فى اذلاله التفتت الى بارينوف لتقول له : «إعطه عتلة ولا تجعل نظرك يغيب عنه أبدا وتأكد من أنه يملأ ست عربات فى كل وردية. واجعله يتصبب عرقا».

وشعر سولجنتسين بالتعاسة والاكتئاب وعدم القدرة على التركيز. ورغم أنه كتب الى زوجته ناتاليا يطلب اليها أن ترسل له ورقا وأقلاما وحبرا وبعض الكتب لتحسين مستواه فى اللغة الانجليزية والتغلب على حالة الاكتئاب التى أصابته

فقد أخفق فى ذلك كما أن زحام المعسكر وضوضاءه منعاه من كتابة أى شئ خلاق. أما زميلاه إنجال وجاميروف فكانا أسعد حالا فقد استطاعا التغلب على مشاكل المعسكر بالانصراف الى الكتابة والتأليف ونظم الأشعار. وبلغت أحوال المساجين فى مصنع الطوب درجة من السوء تمزق نياط القلوب . فقد رأى مؤلفنا بعض عمال المصنع الجياع يأكلون صلصال البحر (وهو نوع من الطفلة لا ينفع جسم الإنسان أو يضره) حتى يتوهموا أنهم شبعوا وأن بطونهم الخاوية قد امتلأت .

معسكر بوابة كالوجا :

فى ٩ سبتمبر ١٩٤٥ نقل سولجنتسين من معسكر أورشليم الجديدة الى سجن بوابة كالوجا في موسكو بعد صدور الأوامر بإخلاء هذا المعسكر من أجل استيعاب فريق من أسرى الحرب الألمان. وكان مؤلفنا محظوظا هذه المرة فهو لم ينقل الى مناطق نائية مثل الأورال وسيبيريا وآسيا الصغرى شأن كثيرين من زملائه،بل الى موسكو حيث التحق بمعسكر اسمه بوابة كالوجا تحت إدارة نقيب اسمه نفزين .

وفى المقابلة التى أجراها هذا النقيب مع المساجين لتوزيعهم على الأعمال المختلفة قرر سولجنتسين بينه وبين نفسه ألا يرجع مرة أخرى الي الخدمة العامة. أى ألا يكون عاملا من عمال السخرة واستطاع مؤلفنا أثناء المقابلة التى أجريت معه أن يكسب ثقة قائد المعسكر الذى عينه فى وظيفة متميزة للغاية استحدثها خصيصا من أجله، وهى وظيفة مشرف انتاج، مما جعله فى مركز أعلى من القيادات الأخرى بل أعلى حتى من السجناء المتعاونين مع السلطة وأصحاب الحظوة لديها. وبسبب تميزه الوظيفى أصبح لأول مرة منذ القبض عليه يعيش فى راحة ورفاهية أكثر من أى وقت مضى فهو الآن ينام فى حجرة مخصصة لستة أشخاص فقط هما لواءان وطبيب ومهندس وفلاح كان رئيسا لأحد المجالس السوفيتية، كما أنه الآن يحصل على حصته من الطعام بيسر وليس بحاجة الى الاصطفاف مرتين فى اليوم من أجل الحصول عليه. وكان مسلك أحد هذين اللواءين - وهو اللواء طيار الكسندر بليابيف - ملفتا للأنظار فقد اتسمت كل تصرفاته بالشموخ والعظمة تساعده على ذلك قامته الطويلة

ووسامته غير العادية ورغم أن سولجنتسين كان رئيسه فى العمل فإن مرءوسه أصر أن يظهر نحوه الاحترام اللائق ويلقبه باللواء . ولم يجد أديبنا غضاضة فى أن يفعل هذا، وإن وجد فيه غرابة شديدة فهو أول سجين يقابله فى معسكرات العمل يحتفظ بلقبه العسكرى. واستطاع هذا السجين بتعاليه أن ينأى عن كل المحيطين به ويشعرهم انه ليس واحدا منهم بل فوقهم جميعا . وأبى هذا اللواء أن يذهب الى المقصف ليستلم تعيينه من الطعام. وهو فخور بأنه لا يعرف الطريق الى بابه. وكانت زوجته تأتى الى باب المعسكر كل يوم بانتظام فى تمام الساعة الواحدة بعد الظهر حاملة معها وجبة طازجة ساخنة يتناولها فى حجرته أمام زملائه مع قطعة الخبز التى يصرفها المعسكر يحملها اليه زميله الفلاح فيقوم اللواء بتقطيع جوانبها واستبعادها حتى يضمن ألا يدخل فمه شىء قد تكون أصابع الآخرين قد لمسته ودخل هذا اللواء السجن بتهمة الفساد والاختلاس وهى التهمة نفسها الموجهة ضد اللواء الثانى بافيل زينوفييف. كانت زوجة زينوفييف وابنته تحضران له الطعام كل يوم كذلك. غير أنه

من الواضح أنه لم يكن على قدر زميله بليافييف نفسه من اليسار وكان الزميل الثالث الدكتور برافدين طبيب أعصاب في نحو السبعين من عمره حكم عليه بالسجن لمدة ثمانية أعوام مثل سولجنتسين وبتهمة نفسها وهى القيام بدعاية مناهضة للدولة وكان الزميل الرابع المهندس اوراتشيفسكى الذى يتميز باخلاصه الشديد للعمل وكذلك الفلاح بورخروف - موضع مقت اللواءين وكراهيتهما. وكان اللواء بليابيف على وجه الخصوص يمعن فى اذلال الفلاح الذى اضطر الى تحمل معاملته السيئة بسبب عدم كفاية الطعام الذى يصرفه له المعسكر مما جعله يأخذ حساء هذا اللواء وعصيدته . ويرجع السبب فى الزج بهذا الفلاح الى السجن الى اتهامه بالمحسوبية فقد كان يصرف كوبونات تموين زائدة الى أهل قريته الجياع مكافأة لهم لاعادة انتخابه رئيسا لمجلس القرية السوفيتى.

ولكن تعيين سولجنتسين فى وظيفة مشرف على العمال فى هذا السجن الجديد لم يدم طويلا بعد أن تم استبعاد ضابط المعسكر المتعاطف معه النقيب نيفرين واستبداله

بالنقيب ميرونوف الذى رأى فى أديبنا سذاجة ورخاوة وجنوحا الى التساهل مع السجناء الأمر الذى أدى الى انخفاض معدلات الانتاج. ونتيجة لهذا تحول سولجنتسين مرة أخرى إلى سجين عادى من سجناء السخرة. ولكن تعيينه فى فرقة الطلاء أعفاه من العمل المضنى الشاق. كما انه لم يفقد امتيازه فى النوم فى إحدى الغرف المخصصة للمتعاونين مع إدارة السجن. ولعله من المفيد ان نذكر فى هذا الصدد أنه قبيل نقل سولجنتسين الى معسكر بوابة كالوجا تمكنت زوجته ناتاليا من الانتهاء من الإجراءات المعقدة الخاصة بالحصول على تصاريح الإقامة فى موسكو ومقابلة زوجها الذى فوجئت بنقله من معسكر أورشليم الجديدة الى سجن كالوجا حيث تمكنت من زيارته بحضور واحد من الحراس فوجدت أن تغيراً طرأ عليه . فقد أصبح أكثر حساسية لآلام الآخرين عن ذى قبل وعبر لها عن شديد أسفه بل وخجله من نفسه لأنه كتب اليها فى ألمانيا بعض العبارات التى تنم عن القسوة . وتصور روايته «الدائرة الأولى» هذا التغيير الذى طرأ عليه . وعندما التقى الرجل بزوجته كرر لها استعداده للموافقة على

طلاقـهـا منه اذا كـانت ترغب فى ذلك. ورغم ان الشك بدأ يساورها فى رغبته فى الخلاص منها فقد أكدت له اخلاصها كما أكدت استعدادها الكامل للانتظار لمدة ثمانية أعوام حتى يخرج من السجن . ورغم الصعاب التى أحاطت به فإن الأمل فى حصوله على عفو لم يفارقه آنذاك أبدا . فكان يصعد الى قمة العمارة التى يقوم المساجين ببنائها ويسرح ببصره الى عالم الحرية والانطلاق خارج الأسور، فحيا - دون طائل - أمله فى العفو من جديدة غير أن الكيل فاض به فى نهاية الأمر فالتمس من المسئولين نفيه فى أية بقعة فى الاتحاد السوفيتى مدى الحياة دون أن يدرى أن الحكم الصادر ضده يتضمن حكما بالسجن والنفى معا . ولحسن حظه تحسنت ظروفه بعد نقل الجنرال بليافييف الذى كان شغل وظيفة مساعد مشرف انتاج فى سجن بوابة كالوجا الى سجن بيوتركى فقد حل محل الجنرال المنقول. وأسعدته كثيرا هذه الترقية الى صفوف المتعاونين مع ادارة السجن. فخلع ملابس السجن ليزهو فى بزته العسكرية، مظهرا حرصه البالغ على استرضاء القائمين بأمر المعسكر .

ثم بدأ أحد المسئولين عن إدارة السجن واسمه سينين يتردد على غرفته ليتحدث الى نزلائها عن الأدب وأحدث الأفلام التى شاهدها . وفى إحدى زياراته أشار هذا المسئول اليه بالخروج من الغرفة ليخرج فى أثره بعد دقائق معدودات. وطلب اليه سنينى التوجه لمقابلة ضابط الأمن فى مكتبه فغاص قلبه في جنباته وتوقع شرا مستطيرا . ودخل سولجنتسين غرفة ضابط الأمن فوجدها مريحة وتحتوى على أثاث وثير وسمع صوت الموسيقى الكلاسيكية تنبعث من مذياع. فشعر بنبض الحياة المتدفق خارج أسوار السجن - واعترته دهشة، عندما رأى ضابط الأمن يعامله بأدب شديد ورقة بالغة ويسأله عن أحواله فى السجن - هل هو مرتاح أم أن هناك مايضايقه. وهل زادته حياة السجن مرارة وحقدا على النظام السوفييتى. ثم سأله اذا كان لايزال يؤمن بهذا النظام مثلما كان يؤمن به فى صدر شبابه. وحاول أديبنا أن يتجنب استثارة غضبه فقال له انه لا يزال يؤمن بالاشتراكية والنظام السوفيتى. فطلب اليه ضابط الأمن ألا يبخل عليه بالتعاون معه ماداما يشتركان فى الايمان والأيديولوجية

والأهداف نفسها . وأضاف أن سولجنتسين هو الشخص النموذجي الذى يمكنه الاطمئنان اليه والاعتماد عليه فى نقل كل ما يدور بين السجناء اليه . وأسقط فى يد أديبنا وحاول أن يتنصل من هذه المهمة باعتبار أنه غير كفء لها وظل يحاوره ويداوره لمدة أسبوعين. فبدأ رجل الأمن يستخدم معه لغة تنطوى على التهديد. وأخيرا قال له إنه سمع عنه أنه يناصب المجرمين العاديين العداء ويقف لهم بالمرصاد وأنه لا يحب أن يراهم يسيطرون على مقدرات المواطنين الأبرياء يعملون فيهم قتلا وسلبا واغتصابا. وطلب منه أن يقوم بالتبليغ عما يدور بينهم من أحاديث وعن أية محاولة قد يبذلونها أو يفكرون فيها للهرب من السجن. فلم يجد غضاضة فى الموافقة على ذلك. ولكن المشكلة التى واجهته أنه كان ينأى بنفسه عن مخالطة هؤلاء المجرمين. وبالتالى فإنه لم يعرف الكثير عنهم وفى لمح البصر اقتنص ضابط الأمن هذه الموافقة من جانبه وطلب منه التوقيع على تعهد بتبليغ ادارة السجن بأية محاولة يبذلها السجناء للهرب. وتردد سولجنتسين فى بادئ الأمر فى التوقيع بحجة أن التعهد لا

ينص على السجناء المجرمين فقط ولكنه عاد ووافق على التوقيع عندما طمأنه رجل الأمن بأن المجرمين وحدهم هم المقصودون فى هذا التعهد . ثم أخرج له تعهدا آخر طلب منه التوقيع عليه مفاده أنه يتعهد بالمحافظة على سر التعهد الأول وعدم افشائه لأحد وحتى يكتمل إذلال سولجنتسين الذى شعر أنه انحدر إلى أسفل سافلين اختار له ضابط الأمن اسما جاسوسيا مستعارا هو فيتروف يوقع به على الأوراق. وهكذا تحول أديبنا الكبير فى مطلع حياته الى مخبر أو جاسوس يعمل لحساب إدارة السجن . لقد كان فى إمكانه أن يخفى هذا العمل الشائن عن الناس ولكنه اعترف به فى شجاعة بعد مضى نحو ثلاثين عاما على الإتيان به رغم أن هذا الاعتراف يساعد كثيرا على تمكين أعدائه منه . وكان سولجنتسين أميناً مع نفسه عندما اعترف لنا أيضا أن تدهوره المعنوى لا يرجع الى إدارة السجن بقدر ما يرجع إلى طبيعته الطموحة التى تتأجج رغبة فى الوصول الى القمة وفى أن يصبح واحدا من هيئة السجن الحاكمة، فضلا عن أن نفوره الشديد من أن يكون مجرد سجين عامل يكدح وينصب حفزه إلى استرضاء

السلطة المسئولة عن إدارة السجن .

وبسبب فشله فى مهمة التخابر والتجسس على المساجين كلفته إدارة المعسكر بأداء الواجبات العامة المضنية غير أن اشتراكه فى أنشطة المعسكر الثقافية والتعليمية أتاح له فرص القراءة والتمثيل ومخالطة النساء المهتمات بالفنون بطريقة طبيعية. وفى يوم من الأيام نسى نفسه وهو يمثل دوره فى مسرحية أثيرة الى قلبه بعنوان «الويل لصاحب الدعابة الذكية» للكاتب جروبيب ويدوف فارتفع صوته قائلا : «من هم آباء الوطن؟ أليسوا هم الذين يقومون بتكديس المغانم والأسلاب ؟» وما أن سمع المسئول عن السجن هذا حتى انتهره وأمره بالنزول من خشبة المسرح. وساعده تخفيض رتبته وتحويله الى الخدمة العامة بسبب فشله فى التبليغ عن زملائه على التعرف على مراكز السلطة والنفوذ الحقيقى فى المعسكر وعلى أساليب استغلال الأقوياء للضعفاء فيه. واتضح له أن المرأة السجينة أكثر تعرضا للضغط والاستغلال من الرجل فهى مطمع لشهوات رؤسائها الجنسية.

وترامى الى سمعه أن بعض المعسكرات تضم فرقا

مسرحية كاملة من الممثلين والممثلات والراقصات المحترفين والمحترفات وان ادارة السجون تعفيهم من أداء أى عمل حتى يتفرغوا تفرغا كاملا للتمثيل فانبهر لهذا وأخذ يحلم بالانضمام الى احدى هذه الفرق. وسرت شائعة بين المساجين أن وزارة الداخلية السوفيتية فى الثلاثينات كانت تحتضن المواهب التمثيلية وتسعى الى اجتذابها من السجون السوفيتية كافة، تماما مثلما كان أصحاب الأراضى فى روسيا فى القرن التاسع عشر يتنافسون فى اجتذاب الموهوبين فى التمثيل بين رقيق الأرض من مختلف المناطق فى البلاد، لتكوين فرقة مسرحية يزهون بها . وبقدر ما كان النشاط المسرحى يخفف من كربه بقدر ما كان يزيد أحيانا من هذا الكرب فقد كان قائد المعسكر يؤوب الى المعسكر فى حالة سكر بين وفى ساعة متأخرة من الليل ليطلب الى الفرقة المسرحية أن تقدم اليه أحد عروضها. فيضطر أعضاؤها البائسون الى الاستيقاظ من عز النوم ليمثلوا فى مسرح خال من النظارة باستثناء القائد السكير وبضعة من الحراس .

وفى معسكر بوابة كالوجا أمضى مؤلفنا تسعة أشهر

بغيضة. وصفها بأنها فترة من الفشل الروحي وصلت فيها حالته الى الحضيض. وفي يوم ١٨ يوليه ١٩٤٦ فوجئ سولجنتسين باستدعائه على عجل الى حجرة الحارس ومعه كل ممتلكاته. واستبدت به الحيرة والقلق لهذا الاستدعاء المفاجئ فلم يعرف اذا كان نذير شؤم أو بشير خير. وتم تبليغه بصدور أمر بنقله إلى سجن بيوتركى الذى سبق أن دخله ثم عرف أنه سوف ينتقل اليه كسجين ذى مهمة خاصة دون أن يتبين طبيعة هذه المهمة الخاصة.

مراكز أبحاث داخل أسوار السجون

نسي سولجنتسين أنه في يوم من الأيام ملأ استمارة وزعت على المساجين بهدف حصر كفاءاتهم العلمية والاستفادة من تخصصاتهم المختلفة. وزعم مؤلفنا فى هذه الاستمارة انه عالم من علماء الذرة أملا في أن تحسن الدولة معاملته وتلحقه بمعهد أبحاث تابع لأحد السجون .ولم يدر بخلده أن المسئولين في وزارة الداخلية سوف يقبلون زعمه على عواهنه دون فحص أو تحميص. واستغرقت إجراءات إعادته الى سجن بيوتركى نحو أحد عشر ساعة فى التفتيش

وحمامات البخار وحمامات الماء والاسئلة الروتينية عن اسمه ومكان وتاريخ ولادته .. إلخ وعندما دخل الغرفة وجد نفسه فى زنزانة شديدة الحرارة والعفن بسبب وجود خزان البراز فيها لا تسع أكثر من عشرين شخصا فانحشر فيها مع ما يقرب من ثمانين رجلا . ويجد سولجنتسين نفسه وسط حشد كبير من العلماء والباحثين فى التخصصات كافة، فى الفيزياء والكيمياء والرياضيات والهندسة والتصميمات . خامره شعور بأنه دعى ليس له مكان بين هؤلاء العلماء . وسرعان ما اقترب منه رجل وقور عرف نفسه بأنه البروفيسور تيموفييف - رسوفسكى رئيس الجمعية العلمية للزنزانة رقم ٧٥ ، وطلب منه رئيس الجمعية أن يلقى محاضرة على أعضائها الذين يجتمعون كل صباح تحت النافذة من ناحية اليسار بعد توزيع حصة الخبز عليهم ، وأسقط فى يده فهو مجرد خريج من الجامعة درس الرياضيات والفيزياء ولا عهد له بالدراسات العليا . ولكن الحيلة أسعفته فقد كان قد انتهى من قراءة ترجمة لتقرير أعدته الحكومة الأمريكية بشأن الآثار المترتبة على إنفجار أول قنبلة ذرية، فتبادر إلى ذهنه أن يلقى

محاضرة فى هذا الموضوع ووافق البرفيسور تيموفييف على اقتراحه، ورغم انه اتضح له عند إلقاء المحاضرة أن تيموفييف كان يعرف عن الموضوع الذى يتحدث فيه أكثر مما يعرف هو شخصياً، فقد استقبل المجتمعون محاضرته بالاستحسان بوجه عام. الأمر الذى أدى إلى قبوله عضوا فى جمعيتهم، وأتاح له انضمامه إلى هذه الجمعية فرصة الاشتراك مع أعضائها فى لعب الشطرنج والقراءة الممتعة وحضور الحفلات الموسيقية والمحاضرات والندوات . ورغم العلاقات الطيبة الودية التى كانت تربطه بأعضاء الجمعية فقد احتدم الخلاف بينه وبين قس أرثوذكسى من أعضائها حول المذهب الماركسى الذى كان حتى ذلك الوقت لايزال مؤمنا به. ورغم أن حماسه للماركسية لم يعد بالدرجة نفسها من القوة والحرارة السابقة فإنه دافع عنها بشىء من الحماس ضد هجوم هذا القس الضارى عليها. وبعثت حيوية المناقشات التى دارت بين أعضاء الجمعية فى مؤلفنا الرغبة في تلاوة الشعر وقرضه فتلا عليهم بعض قصائد ياسنين الأثيرة إلى قلبه، كما ألف مجموعة من القصائد عن حياة السجون مثل «أول طرد

تسلمته» و«إلى زوجتى» و«إلى ولدى».

عندما أدركت السلطات السوفيتية مدى ما أصاب التقنية السوفيتية من تأخر وانهيار نتيجة الزج بالخبراء والعلماء والمهندسين فى غياهب السجون فكرت فى الثلاثينيات فى الاستفادة من تخصصات المساجين المتنوعة عن طريق إنشاء مركز للبحث العلمي داخل أسوار السجون ويعتبر معهد الأبحاث الذى أقامه البروفيسور ليونيد رامزين من أول هذه المعاهد وأفضلها. وعين البروفيسور رامزين - الذى كان يتعاون تعاونا وثيقاً مع أجهزة وزارة الداخلية - رئيساً لمعهد دراسة الكهرباء الحرارية ضم إليه نخبة من السجناء الخبراء. واستطاع رامزين أن يتوصل فى مجال الكهرباء الحرارية إلى اختراع اعترفت بأهميته الدوائر العلمية والعالمية، الأمر الذى دفع الدولة السوفيتية إلى العفو عنه ومنحه جائزة . وفى مجال الهندسة استطاع المهندسون المساجين أن يدخلوا سلسلة من التطويرات على قاطرات السكة الحديد وفى صناعة المدافع والدبابات . ولكن أعظم منجزاتهم على الإطلاق يتمثل فى الدور الكبير الذى لعبوه فى تطوير صناعة الطائرات فى فترة

محاكمات التطهير بين عامى ١٩٣٧ و١٩٣٨، عندما ألقى القبض على عدد كبير جداً من مهندسى الطيران ببيع بعض تصميمات الطائرات للأعداء الألمان. ونجم عن هذه السياسة الباغية أن انهارات صناعة الطائرات فى الاتحاد السوفييتى فلم يجد المسئولون مناصا من إقامة مصانع الطائرات ومعاهد أبحاثها داخل أسوار السجون ومعسكرات العمل وإسناد الإشراف عليها إلى المتخصصين من بين المسجونين، واستدعى المسئولون المهندس توبلوف وطلبوا منه أن يعد كشفا بأسماء مهندسى الطيران الذين يعرفهم، وأن يرأس فريقاً بحثياً منهم . وتمكن هذا الفريق من العلماء من تطوير صناعة الطائرات خاصة الطائرات العسكرية قبل نشوب الحرب العالمية الثانية. وفى صيف عام ١٩٤١ تم إطلاق سراح توبولوف ومن بعده عدد آخر من المهندسين بسبب الخدمات الجليلة التى قدموها لصناعة الطائرات. وفى نهاية الحرب تم نهائيا إغلاق معهد أبحاث الطائرات الذى يعملون فيه بالقرب من موسكو.

ولكن هذا لم يكن معناه بحال من الأحوال نهاية إنشاء

مركز الأبحاث داخل السجون السوفيتية فبعد انتهاء الحرب أقام السوفيت - على بعد نحو مائة وستين ميلا من الشمال الشرقى لموسكو معهداً يعرف باسم «بولشينو» لتطوير تكنولوچيا الصواريخ. وفى سبتمبر ١٩٤٦ عين سولجنتسين فى ذلك القسم من المعهد الذى تخصص فى إنتاج محركات الطائرات النفاثة حيث مكث هناك خمسة أشهر. وأبلغه المسئولون أن يستعد للانتقال إلى معهد آخر سوف يفتح قريباً فى زاجورسك. وبطبيعة الحال راقت له هذه الحياة الجديدة فى معاهد السجون فقد تحسنت ظروفه المعيشية تحسنا ملحوظاً، فأصبح الآن يتمتع بقدر أكبر من الراحة ونوع أفضل من الطعام. وفى زاجورسك تم تعيينه أميناً للمكتبة، وهناك تعرف إلى ضابط بحرى برتبة نقيب استطاع عن طريق النصب والادعاء أن يقنع إدارة السجون بأنه مخترع عظيم حتى تنقله من عمله المضنى فى أداء الواجبات العامة إلى حياة فيها شيء من الراحة والدعة. فكان هذا الدعى يقترح القيام بأبحاث علمية تنتهى دائماً بالإخفاق والفشل بغية تفادى - بقدر الإمكان - العودة إلى أداء الواجبات المضنية

ومن بين مشروعاته العلمية الفاشلة اختراع من شأنه تحويل أشعة الردار عن مسارها . وكان سولجنتسين مكلفاً بأن يعمل له الحسابات الرياضية اللازمة لاختراعه الوهمى. ورغم هذا فإن مثل هذا الأسلوب الذى اتبعته السلطات السوفيتية مع المساجين العلميين حفز الكثير منهم على إظهار مواهبه طمعاً فى أن ينجو بنفسه من مشقة العمل المضنى فى معسكرات العمل .

وكذلك استفاد الاحتلال السوفييتى من احتلاله لألمانيا الشرقية فنقل منها مصانع بأكملها إلى الأراضى السوفيتية وعن طريق تقليد الصناعات الألمانية عرف السوفيت لأول مرة صناعة الساعات الدقيقة وساعات الحائط والكاميرات الحساسة، وأحدث صيحة فى صنع أجهزة التسجيل والراديو إلخ...

فضلاً عن أنهم نقلوا إلى بلدهم مالا يقل عن ستة آلاف ألمانى مع عائلاتهم إلى روسيا لإنتاج الصواريخ والعمل فى مجال تكنولوچيا الفضاء. وحتى تستفيد السلطات السوفيتية من أسرى الحرب من المهندسين إلى أقصى حد ممكن وزعت

عليهم استبيانات عن تخصصاتهم الدقيقة والوظائف التى كانوا يحتلونها قبل وقوعهم فى الأسر. وعهد إلى سولجنتسين بترجمة هذه الاستبيانات وتقييمها . ولكن يبدو أن هذه الفكرة لم يكتب لها النجاح لأن أسرى الحرب الألمان تعمدوا تضليل السوفيت وإخفاء المعلومات الصحيحة عنهم .

ولعل أهم حديث فى حياة سولجنتسين فى فترة بقائه القصير فى زاجورسك اكتشافه على رفوف المكتبة،وجود المعجم الذى وضعه فلاديمير داهل فى أربعة أجزاء فى القرن التاسع عشر (والذى كانت خالته إيرنا أهدته نسخة منه فى طفولته). والمدهش أن هذا المعجم الحجة فى اللغة الروسية من وضع رجل ينحدر من أصل دانيماركى نذر حياته لتنقية اللغة الروسية من أية روافد عليها سواء أكانت لاتينية أو فرنسية أو ألمانية . ومن ثم توفر على دراسة الفولكلور الروسى والأمثال الروسية التى تنجرى على ألسنة الناس. ومن فرط إعجاب مؤلفنا بهذا المعجم قرر أن يطالع صفحة أو صفحتين منه كل يوم، ثم يقوم باستظهار ما فيه من تعبيرات وألفاظ غير مألوفة كنوع من ممارسة الرياضة الأدبية ولم يكن يهمه حفظ

الكلمات في حد ذاتها بل سعى إلى استيعاب روح اللغة الروسية والانغماس فيها. وذهب إلى حد نقل بعض أجزاء هذاالمعجم في كراسات كاملة سماها «مختارات من داهل».

وبعد زاجورسك أعيد سولجنتسين في أوائل يوليه ١٩٤٧ إلى سجن بيوتركي الذي انتقل منه وأعيد إليه أربع مرات، ليمكث فيه آخر مرة فترة وجيز قبل نقله في ٩ يوليه من العام نفسه إلى سجن مارفينو في ضواحي موسكو الشمالية حيث أودع في «السجن الخاص رقم ١٦». كان مارفينو قبل تحويله إلى سجن، ديراً قديماً للنسك والعبادة (صوره سولجنتسين تحت اسم مارفينو في روايته «الدائرة الأولى» ولا شك أن مؤلفنا كان محظوظا في ذلك السجن الجديد، فهو أكثر راحة من أي سجن آخر عرفه حتى الآن وأتيحت له فرصة التجول بحرية فيه والرقاد على حشائشه والسماع بوضوح لمحطة الـ «بي. بي سي» البريطانية، لأن التشويش على المحطات الإذاعية لم يكن معروفاً حينذاك، وفوق هذا كله احتفظ مؤلفنا في سجنه الجديد بوظيفة أمين المكتبة.

واستغرق إعداد معهد سجن مارفينو للمعامل اللازمة

للأبحاث نحو ستة أشهر. وأحضر السوفيت كل معداته وأثاثه خصيصا من ألمانيا واضطلع سولجنتسين بمهمة فرز مجموعة الكتب والمجلات الفنية المنشورة باللغات الروسية والإنجليزية والألمانية المتصلة بعمل هذا المعهد، وتولى تصنيفها إلى جانب القيام بترجمة بعض منها واضطلع المعهد فى بدايته بمشروع بحثى يهدف إلى اختراع جهاز لا سلكى متحرك يمكن لرجال الشرطة. استخدامه وفى أرجاء المعهد التقى مؤلفنا برجلين تركا أثراً لاينمحى فيه وأصبحا من أعز أصدقائه وهما ديمترى بانين كوبليف. يقول المهندس بانين أنه أحب سولجنتسين من أول مقابلة معه حتى قبل أن يتبادلا الحديث معا فقد أحب فيه وجهه الواضح الصريح وعينيه الزرقاوين الجريئتين. ولم ينس بانين قط أول عبارة تفوه بها مؤلفنا أمامه إذ قال له : فى أثناء هبوطى الدرج ماذا كان يمكننى أن أرى فى ظلام الصالة غير وجه أيقونة تحمل صورة مخلصنا يسوع المسيح وتصور رواية « الدائرة الأولى» شخصية بانين بقامته المديدة ووجهه الوسيم الذى يشبه فارساً من القرون الوسطى. شاهد بانين الذى يكبر سولجنتسين بست سنوات

فظاعات الحرب الأهلية فى طفولته، فلا غرو أنه كره النظام البلشفى من سويداء قلبه. ومما زاد من كراهيته له ما رآه من اضطهاد منظم للمهندسين فى أوائل الثلاثينيات، ويبدو أن أحداً من زملائه المهندسين وشى به لدى السلطات الأمر الذى أدى إلى الحكم عليه عام ١٩٤٠ بالحبس لمدة خمسة أعوام فى معسكر للعمل ثم صدر حكم آخر ضده عام ١٩٤٣ يقضى باستمرار حبسه عشرة أعوام أخرى بتهمة نشر الدعاية الانهزامية .

كان بانين قد أمضى فى معسكرات العمل فى القطب الشمالى سبعة أعوام قبل أن يلتقى بسولجنتسين ورغم الأهوال التى مر بها فى هذه المعسكرات فإنه استطاع أن يتحملها ويخرج منه سليم الجسد والعقل معا .

أما السجين الآخر كوبليف (الذى رسمه مؤلفنا فى شخصية ليف روبين فى «الدائرة الأولى») فكان على النقيض من بانين، فهو عضو فى الحزب الشيوعى يؤمن بالماركسية إيماناً شديداً ويؤازر النظام مؤازرة كاملة . ومع ذلك فقد ألقى القبض عليه فى جبهة القتال ، وفى نفس الظروف،

وبالتهم نفسها التى قبض فيها على سولجنتسين، ولم يفت السجن فى عضده بل زاده تحمساً للنظام الشيوعى وولاء له وتفاؤلا بالمستقبل، واقتناعاً بأن سلسلة الاعتقالات ومحاكم التطهير التى تحدث أمام عينيه لاتعدو أن تكون سحابة صيف عما قريب تنقشع. عرف بانين وكوبليف بعضهما البعض فى سجن بيوتركى حيث تقابلا لأول مرة، وهناك استطاع كوبليف - رغم التباين الواضح فى آرائهما - أن ينتزع حب بانين له، وأن يلمس شغاف قلبه بكرمه ونبل أخلاقه، فعندما تسلم كوبليف من أهله طرداً يحتوى على شيء نادر وهو رغيف من الخبز الأبيض كسره هذا الرجل نصفين واحتفظ لنفسه بالنصف وأعطى لبانين النصف الآخر . فلا غرو إذا رأيناه يلح على قائد سجن مارفينو أن يستدعى كوبليف من سجن بيوتركى للاستفادة به فى المعهد رغم أنه ليست له أية صلة بالجوانب الفنية أو التقنية اللازمة للعمل فيه ، فهو بحكم تخصصه مؤرخ أدبى وفقيه لغوى يتقن عدة لغات من بينها اللغة الألمانية، وفى فترة التحاقه بالجيش السوفيتى تولى كوبليف مهمة القيام بدعاية مناهضة للنازية خلف خطوط

الجيش الألمانى من أجل تحطيم معنوياته ويرجع السبب فى القبض عليه إلى اعتراضه على السياسة القاسية التى انتهجتها القوات السوفيتية فى الأراضي الألمانية المحتلة ومقاومة أعمال الإرهاب والنهب والسلب التى تمارسها هذه القوات الأمر الذى جعل بنى جلدته يتهمونه باللين والرخاوة مع العدو وفى بادىء الأمر لم يصدق سولجنتسين أن ظروف هذا الرجل تصل فى تشابهها مع ظروفه إلى حد التطابق، فظن أن كوبليف مدسوس عليه لمراقبته والتبليغ عنه. غير أن الشك الذى ملأ قلبه سرعان ما تبدد. وساعد مقت الرجلين المشترك لأعمال العنف والنهب فى الأراضى الألمانية المحتلة على أيدى الجنود السوفييت على تقوية روابط الود والصداقة بينهما، واستمع مؤلفنا للحكايات التى رواها كوبليف له عن هذه الأعمال البغيضة فى قصيدته السردية «ليالى بروسية». وتوثقت علاقة الرجلين أكثر وأكثر بسبب شغفها المشترك بقراءة الصحف والإنتاج الأدبى . كان كوبليف محاضرا شابا فى معهد موسكو للفلسفة والأدب والتاريخ فى الفترة نفسها التى كان سولجنتسين طالباً

بالمراسلة فيه وعندما اكتشف كوبليف فى مارفينو حماس مؤلفنا لمعجم داهل وتاريخ اللغة الروسية ساعد المكتبة على إقتناء مجموعة كاملة من هذا المعجم ، وعندما انتقل سولجنتسين إلى اسيا الوسطى حرص على أن يأخذ معه الجزء الثانى من المعجم فى حين احتفظ صديقه كوبليف بالأجزاء الثلاثة الأخرى، وعندما اجتمع شمل هذين الصديقين فى الخمسينيات سلمها كوبليف إلى سولجنتسين حتى يحتفظ بالمجموعة كاملة وزاد من قرب هذين الصديقين والتصاقهما إيمان كليهما بالحزب الشيوعى والماركسية اللينينية واعتقادهما أن القبض عليهما لايرجع إلى فساد النظام البلشفى بل إلى فساد بعض أجهزته والقائمين عليها . ولم يكف كوبليف عن الحلم بقرب موعد العفو عنه فى حين أن سولجنتسين الذى اتسم بواقعية أكثر كف عن مثل هذه الأحلام . أما بانين الذى فاق مؤلفنا فى نظرته الواقعية فقد بلغ حد التشاؤم المطبق وآمن بأن النظام السوفييتى لن يسمح لهم بالخروج حتى يخفى أسرار معسكرات العمل وما يدور فيها عن العالم الخارجى . وكتب سولجنتسين إلى زوجته

ناتاليا يقول : «كلما بدأوا يتحدثون عن العفو العام ترتسم على وجهى ابتسامة ملتوية وابتعد عنهم».

وهكذا وجد سولجنتسين نفسه منجذباً نحو مجالين مغناطيسيين متعارضين كل التعارض، فصديقه كوبليف يرضى فيه الرغبة فى التصديق والإيمان بسلامة النظام البلشفى، فى حين كان صديقه بانين يستحثه للشك فى سلامته مستخدماً فى سبيل ذلك منهجا عقلانيا بارداً فى الاستقصاء والتحليل والاستدلال. وبات من الواضح أن خبرة بانين فى السجون ومعسكرات العمل خبرة نادرة ليس لها نظير فقد عرف سجون الشرق الأقصى والقطب الشمالى والأورال وروسيا الأوروبية . وهناك نقطة أخرى راقت له فى بانين هى حرصه البالغ على الوصول باللغة الروسية إلى أقصى درجة من النقاوة بالسعى إلى استبعاد كل مايشوبها من ألفاظ أجنبية وافدة عليها من اللغات الأخرى ومعنى هذا أن بانين آمن بالسلافية فى مجال اللغة الروسية حتى المنتهى وصولاً بها إلى أعلى درجة من الوضوح والدقة فى التعبير . وهو شىء قريب مما جذب مؤلفنا إلى التوفر على دراسة

معجم داهل وإلى اهتمامات صديقه كوبليف الفيلولوچية، ورغم أن مؤلفنا يتهكم على نظريات بانين فى اللغة ويعارضها فى روايته «الدائرة الأولى» فإنه يفعل ذلك بشيء من العطف وعلى أية حال لم يكن بانين متخصصاً فى اللغة مثلما كان كوبليف متخصصاً فيها، وتناوب سولجنتسين وكوبليف فى تلاوة الشعر ومنه بعض قصائد ماياكوفسكى وياسنين التى ألقاها أديبنا على نحو مؤثر . وتنبه بانين منذ البداية إلى ما فى طبيعة سولجنتسين من تناقض فهو منذ طفولته يتسم بالرغبة التلقائية فى مشاركة الناس احتفالاتهم ومخالطة الرجال فى ضحكاتهم المتعالية وصخبهم الشديد، ولكنه فى الوقت نفسه ينزع إلى الزهد والتقشف وقهر النفس، يقول بانين عن مؤلفنا إنه حين يترك نفسه على سجيتها كان يفيض بالحيوية المتدفقة ويطلق النكات الطلية، غير أن إحساسه بالدعاية كان يتلاشى عندما يتغلب عليه ذلك الجانب البيوريتانى فى طبيعته «فيحزن على أنه يضيع وقته فيما لا يجدى أو يفيد، كان يتوق فى كثير من الأحيان إلى الانفراد التام بنفسه ويكره أن يقطع عليه أحد خلوته» وكان من عادة الأصدقاء الثلاثة : سولجنتسين

وبانين وكوبليف - الذين سموا أنفسهم الفرسان الثلاثة - أن يتناوب اثنان منهما للحيلولة دون أن يقتحم أحد خلوة زميلهما الثالث.

وفى مارفينو استعاد سولجنتسين رغبته فى الكتابة الخلاقة وإعادة التفكير فى وضع الرواية التى كان فى صدر حياته يحلم بتأليفها عن قصة الثورة البلشفية ولكن ثقته الباكرة بنفسه وفى عظمة هذه الثورة بدأت تزايله، فأصبح الآن أكثر شكا فى قدراته الأدبية وفى روعة الثورة، البلشفية والتجأ إلى كوبليف للوقوف على المزيد من المعلومات عن هذه الثورة، لأنه عرفها عن كثب وخبر أحداثها . وليس أدل على أنه بدأ يشك فى عظمة الثورة من أنه طلب إلى صديقه كوبليف أن يروى له الحقائق كاملة دون نقص أو زيادة بلا مبالغة أو تزويق، حتى صورة لينين الناصعة بدأت تهتز أمامه فهو الآن يتساءل: هل صحيح أن ستالين وحده هو المسئول عن كل ماحدث من أخطاء؟ وهل صحيح أنه لو قيض للينين أن يعيش لما حدثت المجاعات والمزارع الجماعية ولما أبيدت طبقة الكولاك؟ واختلف سولجنتسين مع كوبليف فى نظرته

إلى ستالين فقد لاحظ مؤلفنا أن صديقه يحمل إعجاباً عظيماً به لأسباب استعمارية محضة، فاحترامه لستالين يرجع إلى أنه الحاكم القوى الذى استطاع أن يعيد إلى روسيا سالف عظمتها واتساعها . ورفض سولجنتسين أن يقر زميله على هذه النعرة القومية والزهو الاستعمارى ومن جهة أخرى بدأت الشكوك تراود مؤلفنا فى سلامة فكرة الحتمية التاريخية، وهى إحدى ركائز التفكير الماركسى. بالرغم من هذا كله فإنه لم يخطر على بال مؤلفنا أن يرفض المذهب الشيوعى أو الفكر الشيوعى برمته ولهذا نراه يقف فى صف كوبليف ضد صديقهما الثالث بانين الذى رفض الفكر الماركسى والثورة البلشفية من أساسها.

وأراد سولجنتسين أن يجد مخرجاً لمحنته الناجمة عن شكوكه فى الشيوعية فالتجأ إلى فلاسفة الشرق وحكمائه مثل لا وتسى الفيلسوف التاوى الصينى (الذى سبقت دعوته إلى السماحة ومقابلة الشر بالخير دعوة المسيحية لها) يلتمس لديهم الحكمة والحجى ولهذا فقد كان يصطحب معه باستمرار، بعيداً عن أنظار زملائه، كتاباً يتضمن بعض

مأثورات هؤلاء الحكماء وتعاليمهم، وذهب سولجنتسين إلى أن الماركسية فشلت فى أن تشد من أزر ستالين فى مقاومة الغزو الألمانى . فقد اضطر إلى التخلى عن الدعاية البلشفية والتجأ إلى الشعور الوطنى الغائر فى نفوس الروس وليسْ إلى المبادىء الماركسية ودعوتها المزعومة إلى الدولية الزائفة فضلاً عن أنه بدأ يتشكك فى الدور السيىء الذى لعبه اليهود والأجانب من غير الروس فى السياسة التى انتهجها الحزب الشيوعى يقول كوبليف إن سولجنتسين آمن أن كل التروتسكيين في العشرينيات والثلاثينيات كانوا من اليهود فى حين أن أنصار بوخارين كانوا من الروس. على أية حال بلغ إعجاب مؤلفنا بكل من صديقيه مبلغا جعله يكتب إلى زوجته قائلاً : «إنه من الطبيعى أن يترك من كانوا فى مثل عقليتهما وتعليمهما وخبرتهما أثراً عميقاً فى شاب لايعدو بوجه عام أن يكون ريفياً ذا خبرة ضئيلة بالحياة». ويعترف بجميلهما عليه فيقول إنه تعلم على يديهما أكثر مما تعلم فى جامعة روستوف واعتبر سولجنتسين السجون والمعسكرات مدرسته الحقيقية وأسعده أن يعيش بين هؤلاء المساجين المتعلمين لأنه ناقش

معهم أخطر الموضوعات بصراحة وحرية تامة مثل ، محاكم التطهير والمزارع الجماعية، فى حين أنه لو كان يعيش خارج الأسوار لما تجرأ أن يعالجها بمثل هذه الحرية والصراحة.

كانت القيود المفروضة على معهد السجن فى مارفينو أقل بكثير من القيود المفروضة على غيره من السجون فنزلاؤه يتلقون الطرود من ذويهم بعد مرورها على رقيب السجن فضلاً عن القرب الشديد لهذا السجن من مدينة موسكو حيث انتقلت ناتاليا لاستكمال دراستها العليا فى الكيمياء . وشعر مؤلفنا بالإحباط لعدم قدرته على رؤية زوجته بعد وصوله مباشرة إلى سجن مارفينو فى يوليه ١٩٧٤ . وحيث أن السلطات السوفيتية كانت ترغب فى الاحتفاظ بمكان ونشاط هذا السجن سرا فإنها لم تسمح للسجناء بمقابلة ذويهم فيه. بل كانت تسمح لهم بهذه المقابلات فى سجن باجانكا بعد أن يخلعوا ملابس السجن ليرتدوا الملابس المدنية وهو ماتصوره لنا روايته «الدائرة الأولى» ورغم أنه كان محظورا على السجناء أن يدلوا بأية معلومات عن مكان هذا السجن الجديد فإن زوجات المساجين ومن بينهم ناتاليا كن على علم بمكانه

ومن ثم نراها ترافق افجينيا زوجة بانين التى تعرفت إليها أثناء وجودهما معا فى غرفة الانتظار إلى حديقة مجاورة للسجن على أمل أن ترى كل من الزوجتين زوجها وهو يمشى أو يتريض أو يلعب الكرة الطائرة فى ملعب السجن. وكان أول لقاء بين سولجنتسين وزوجته يفيض عذوبة ورقة ومضى عام كامل قبل أن تسمح السلطات لناتاليا أن ترى زوجها للمرة الثانية.

فى أول لقاء مع زوجها فى صيف ١٩٤٧ كانت ناتاليا تستكمل رسالة الدكتوراه فى الكيمياء التى حصلت بفضلها بعد مرور عام تقريباً على هذه الدرجة العلمية . ولكن هذاالنصر الأكاديمى لم يمنعها من اتباع هوايتها الأصلية للموسيقى والعزف على البيانو بوجه خاص. وبالرغم من ازورار مؤلفنا السابق عن الموسيقى فقد بدأ فى مارفينو يستهويه سماعها عبر الأثير إلى الحد الذى جعله من وراء الأسوار يلح على زوجته كي تخفف بعض الشىء من اهتمامها بالكيمياء وتزيد اهتمامها بالموسيقى التى نصحها باحترافها، وفى تلك الفترة من حياتهما شعر الزوجان رغم

بعدهما عن بعضهما البعض من الناحية الجسدية أنهما أشد مايكونان قربا والتصاقا، فلا غرو إذا رأينا سولجنتسين قبل مقابلته الثانية مع زوجته فى يونيه ١٩٤٨ (أى قبل مناقشتها رسالة الدكتوراه بثلاثة أيام فقط) يستعد لهذا اللقاء كعاشق ولهان يتحرق شوقاً للقاء حبيبته ويحرص على تصفيف شعره وتلميع حذائه. وفى لقائهما الثانى عام ١٩٤٨ ذكر مؤلفنا لزوجته إنه فوجىء بوصول صديقهما القديم نيكولاى فيتكفتش الذى ألقي القبض عليه فى ابريل ١٩٤٥ (عقب القبض على سولجنتسين) وصدر ضده حكم من محكمة عسكرية بالسجن لمدة عشرة أعوام، وبات من الواضح رغم كل مايجمعهما من تمرد مشترك على النظام السوفييتى أن طريقهما لم يعد واحداً . ففى حين ظل مؤلفنا مشغولا بقضايا الاشتراكية والماركسية والدور الذى لعبه كل من لينين وستالين أصبح نيكولاى فيتكفتش- رغم مقته للستالينية ومظاهر الحياة السوفيتية- لا يطمع فى شىء سوى أن يعيش حياته الخاصة فى هدوء وسكينة بعيداً عن خضم السياسة وتقلباتها.

ولاحظ مؤلفنا أن شعار نيكولاى فى الحياة أصبح (نحن

نعيش الحياة مرة واحدة فلماذا لانعيشها وليذهب كل شيء آخر إلى الجحيم)، ولاحظ أيضاً أن رغبته في الحياة الهادئة جعلته يميل إلى شخصية كوبليف ولا تروق له شخصية باتين المثالية التي تتسم بالتمرد والرفض اللذين يجران في أعقابهما أوخم العواقب، وعلى العكس من ذلك شعر مؤلفنا أن ميله السابق لشخصية كوبليف قد تغير عن ذي قبل، فقد صار الآن يميل إلى شخصية بانين التي أخذت ديناميكيتها وقدرتها على الصمود والتحدي في مجالات الفكر والسياسة تروق له. ويحدثنا أديبنا عن هذا التغير الحيوي الذي طرأ عليه بقوله :

«من ناحيتي لم أكن قط قادراً على الابتعاد عن السياسة أو التخلي عن معتقداتي صحيح أنني تعودت الدفاع عن الماركسية في الأيام الأولى من سجني ولكنه اتضح لي عجزي عن ذلك فقد أثيرت ضدي محاجات قوية للغاية كما جاءتنا اعتراضات من أناس يتمتعون بالخبرة العميقة، الأمر الذي جعل الدفاع عن الماركسية أمرا مستحيلاً وكانوا يهزمونني في كل مرة أقارعهم الحجة بالحجة . وهكذا

بدأت بالتـــدريج ابتـعد عن الماركسـيـة وكنت فى سجنى الأخير أعبر عن تشككى فيها، فى حين أن الواقع أنى لم أعد أؤمن بها أصـلاً . وعلى أية حال شعرت بالارتياح لاتخاذى هذا الموقف : اتركونى وشأنى فلست أؤمن بشىء كما أنى لا أعرف شيئا، وأثناء وجودى فى سجنى الأخير أخذت أتخلى تدريجياً عن تشككى ، كما أنى فى حقيقة الأمر بدأت بالتدريج فى العودة إلى المفاهيم الأصلية التى تكونت لدى فى طفولتى ومن خلال قراءة ديستوفسكى بدأت بالفعل اتحرك ببطء وثبات فى المقام الأول نحـو موقف يتسم بالمثالية كما يسمونها .. أى الإيمان بسيادة الروح على المادة، وهو موقف وطنى فى المقام الأول ودينى فى المقام الثانى، وبمعنى آخر عدت بالتدريج وفى بطء إلى كافة آرائى السالفة وأفكارى الباكرة.

وإذا كانت جذوة علاقة سـولجنتسين بصديقه القديم نيكولاى خمدت بحيث لم تترك أية بصمات واضحة على روايته «الدائرة الأولى» فقد نشأت علاقة جديدة شديدة الدفء بينه وبين رسام أودعته السلطات سجن مارفينو حتى يرسم

صورة كل شهر لتزدان بها جدران السجن. ويرجع السبب فى الحكم عليه لمدة خمسة وعشرين عاماً إلى أن السلطات ضبطته متلبساً بالاستماع إلى قراءات من رواية مناهضة للنظام السوفييتى ألفها دانييل أندرييف، وتدل «الدائرة الأولى» على أن الطابع الدينى .. للوحات هذا الصديق الفنان راق له رغم عدم ارتياحه لإفراطه فى العاطفية وجنوحه إلى الرومانسية . وكذلك توثقت علاقة مؤلفنا بالمهندس نيكولاى سيميونوف (واسمه بروتابوف فى الرواية المشار إليها) الذى كان واحداً من المسئولين عن إقامة محطة دانيير الشهيرة للطاقة الهيدروليكية فى عهد ستالين. ورغم أن ولاء هذا المهندس للنظام الستالينى أمر لايرقى إليه شك، وأنه رفض رفضاً باتاً أن يتعاون مع الألمان عندما وقع فى أسرهم، فقد اتهمه السوفييت عند عودته إلى بلده بالخيانة وإفشاء الأسرار للعدو. وصدر عليه حكم بالسجن لمدة عشرة أعوام. والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن سولجنتسين لم يجد فى تلك الفترة من حياته غضاضة فى الاحتفاظ بالعلاقات الطيبة مع الذين يختلفون معه من الناحية السياسية ويؤيدون النظام

السوفييتى المقيت. فقد بدأ يهتم بالنواحى الأخلاقية فى شخصية الإنسان أكثر من اهتمامه بالنواحي السياسية . كما أنه سعى إلى توثيق صلاته بسجين آخر وهو رجل بسيط اسمه سبيريدون الذى تولى مهمة قطع الأخشاب من أجد تدفئة المساجين. فهو من ناحية يرى فى هذه العلاقة سبيله إلى اكتساب الحكمة على أيدى العاديين والبسطاء من البشر، وهو من ناحية أخرى يتعلم عن طريقه اللغة الروسية النقية الأصيلة كما يستخدمها البسطاء فى حياتهم اليومية، وهو ما نراه بجلاء فى بعض صفحات روايته «الدائرة الأولى» التى تصور سيرة حياة سبيريدون من خلال استخدام أسلوبه فى الحديث. وقد توسع مؤلفنا فى استخدام هذه الحيلة الأدبية نفسها فى روايته «يوم فى حياة دينيسوفتش».

وفى سجن مارفينو أكمل سولجنتسين قراءة «الحرب والسلام» لتولستوى التى عاب عليها أسلوبها الذى عفا عليه الزمن ولحسن حظه أن امتلأت مكتبة السجن بالكتب ودواوين الشعر التى قرأها بنهم شديد ومن بينها أعمال داروين وتورجنيف وألسكى تولستوى وتيوشيف وفيت ومايكوف

وبولونسكى وبلوك وإلف وبتـروف وأناتول فـرانس وفـيـودور دبستوفسكى الذى اكتشف روعته عندما أعاد قراءته. وفى تلك الفترة من حياته توفر على نظم كثير من القصائد بتشجيع من صديقه كوبليف الذى يقول : إنه قرأ وناقش معه قصائد لبوشكين وجميلوف وباسترناك وسيمونوف. ولكن مؤلفنا تأثر تأثراً خاصا وعميقا بثلاثة شعراء هم نيكولا نكراسوف وألكسندر تفاردوفسكى وباسنين. وأيضاً استمتع هذان الصديقان بالاستماع عبر الأثير إلى نفر كبير من الموسيقيين الرومانسيين أمثال شوبان وجلنكا وماسورجسكى وتشايكوفسى وبيتوفن الذين فضلهم على الكلاسيكيين من مؤلفى الموسيقى . وانغمس مؤلفنا فى مشاهدة الأفلام التى يعرضها السجن على نزلائه ويبدو أن تجربة السجن جعلته مفرطاً فى حساسيته لآلام الآخرين وعذابهم. فهو يقول فى هذا الصدد: «السنون تجرى نعم تجرى. ولكن إذا تحسن قلب الإنسان نتيجة مايقاسيه من عناء وشقاء ويتطهر بهما فإن هذه السنين لم تضع هباء منثوراً».

وبعد عيد ميلاده الثلاثين بفترة وجيزة سمحت له السلطات

السوفيتية بأن يقابل زوجته فى ١٩ ديسمبر ١٩٤٨ فشرحت له القيود الثقيلة الجديدة التى بدأت إدارة السجن فى فرضها حتى تضمن سرية التجارب التى يجريها الباحثون فى المعامل التابعة لها. وطلبت الجامعة من الباحثين فيها ومن بينهم ناتاليا أن يملأوا استمارة عن أهلهم وذويهم، ولو أن ناتاليا ذكرت الحقيقة أو اسم زوجها لقامت الجامعة بطردها . لهذا فكرت فى السفر إلى مدينة أخرى بعيداً عن موسكو لتدون فى الاستمارة أنها غير متزوجة وشرحت ناتاليا لزوجها أبعاد هذه المحنة الجديدة التى تعيشها فتفهم موقفها وتعاطفَ معها وأعاد طرح فكرة الطلاق التى سبق أن رفضتها، وقالت له ناتاليا إنه سوف يكون مجرد إجراء شكلى لن يؤثر بحال من الأحوال على عواطفهما أو علاقتهما، ورغم هذا فقد اجتاحه ألم ممض وقتامة مغالمة أصابته فى الصميم، وهو ما تصوره لنا رواية «الدائرة الأولى» وخروجها من ورطتها كتبت ناتاليا فى الاستمارة أنها زوجة سابقة وتقدمت بطلب للطلاق من سولجنتسين واستمرت علاقتهما رغم ذلك كالسمن على العسل ويتبادلان العواطف الدافقة كالعادة وسره أن يسمع زوجته

تشترك فى العزف فى حفل موسيقى فى الراديو تصادف إذاعته فى ذكرى مرور تسعة أعوام على زواجهما (فى ٢٦ ابريل ١٩٤٨) ودق قلبه من فرط فرحته وانفعاله. وبعد مرور مايقرب من شهر استطاعت ناتاليا أن تقابل زوجها مرة أخرى فى ٢٩ مايو ١٩٤٨.

وفى الفترة التى سارت فيها ناتاليا فى إجراءات الطلاق من زوجها تغير الإشراف على سجن مارفينو وأسند إلي الكولونيل أنتون فاسيليف الذى تجد بعض جوانبه وسماته متمثلة فى شخصية ياكونوف فى «الدائرة الأولى»، وانصرفت جهود السجناء إلى اختراع تليفون متنقل يستخدمه ستالين وكبار معاونيه، ولهذا كان فاسيليف مدير السجن مسئولا مسئولية مباشرة عن المضى قدما بهذا الاختراع أمام بريا رئيس المخابرات السوفيتية . وبعد فترة من السماحة والحرية أصبحت إجراءات الأمن فى سجن مارفينو أكثر تشدداً عن ذى قبل وارتفعت ساعات عمل المساجين من ثمان ساعات إلى اثنتى عشرة ساعة ، كما انخفضت ساعات التمرينات والتريض اليومية وأعيد تنظيم العمل فعهد إلى بانين بوضع

التصميمات الخاصة باختراع التليفون المتنقل كما عهد إلى سولجنتسين وكوبليف (اللذين تركا عملهما كأمينين للمكتبة) بعمل دراسة إحصائية للخصائص الصوتية فى اللغة الروسية . وتولى كوبليف الجانب اللغوى والصوتى من هذه الدراسة فى حين اضطلع سولجنتسين بجانبها الإحصائى وحتى يتمكنا من إجراء أبحاثهما على الوجه الأكمل كانت أمينة المكتبة التى عينت حديثاً بدلاً منهما تحصل لهما على ما يشاءان من كتب ومراجع ونصوص أدبية من مكتبة لينين وأكاديمية العلوم، مما أعطاهما فرصة لقراءة الكثير من الأعمال الأدبية لأدباء مثل فكتور نكراسوف وكازاليفتش ويانوفا ويابايفسكى إلى جانب سيمونوف وفيرتا وسوفرونوف،وأثلج صدر مدير السجن فاسيليف أن مؤلفنا وزميليه استطاعوا أن يحققوا تقدما ملموسا فى أبحاثهم فأمر بنقلهم إلى معمل لدراسة توزيع الأصوات. وفى هذا المعمل استطاع الصديقان سولجنتسين وكوبليف الانتحاء جانبا فى ركن هادىء حيث تمكنا بسبب استخدامهما المستتر للسماعات، بحكم عملهما أن يستمعا إلى محطة الإذاعة

البريطانية الموجهة باللغة الروسية من خلال مذياع مثبت مؤشره على هذه المحطة بصفة دائمة دون أن يلفت أنظار الآخرين إليهما . كما أنهما كانا أحياناً يستمعان إلى الموسيقى الكلاسيكية، أضف إلى ذلك أن إدارة السجن عينت بعض النسوة لمراقبة المساجين، وكن معظمهن يعاملن المساجين معاملة رسمية تماماً غير أن البعض منهن لم يجدن غضاضة فى التودد اليهم وتبادل العواطف معهم. وأظهر كوبليف عاطفة متأججة نحو زوجة أحد الضباط أهملها زوجها كما أن سولجنتسين وقع فى غرام رومانسى مع حارسة أخرى يطلق عليها اسم سموكا فى «الدائرة الأولى»، غير أنه أوقف علاقته بها قبل أن تتطور كما أن إدارة السجن جندت بعض المساجين للتبلغ عن زملائهم ومن بين الذين جندتهم لهذا الغرض دارس للرياضيات اسمه هرتزنبرج لعب دور العميل المزودج، فخسر ثقة إدارة السجن وثقة زملائه فيه، غير أن علاقة سولجنتسين به، لم تنقطع رغم علمه بطبيعة الدور التجسسى الذى يقوم به وبعد الإفراج عنهما استمرت الصداقة بين الرجلين حتى أوائل الستينيات،

وأصبح هرتزنبرج واحداً من مصادر مؤلفنا عن حياة السجون والمعتقلات السوفيتية في «أرخبيل الكولاج» فضلاً عن أنه ضمن نشاط هذا المخبر في التجسس في «الدائرة الأولى».

وفي عام ١٩٤٩ بدأ النظام الستاليني في اتخاذ المزيد من الإجراءات المتشددة مع نزلاء السجون وتضييق الخناق عليهم للقضاء على كل ما قد يعترض سبيله من عوائق بعد أن فرغ من القضاء على أعدائه الألمان. وفي تلك الفترة دس أحد زملاء ناتاليا لها لدى مسئولي الأمن في جامعة موسكو فأصدرت قرارا بالتخلص منها، الأمر الذي اضطرها إلى السعي للحصول على وظيفة محاضر في جامعة ريازان القريبة نسبيا من موسكو وراودتها فكرة احتراف الموسيقى وأرسل إليها زوجها يشجعها على هذا، غير أنها فضلت أن تستمر في الاشتغال بتدريس الكيمياء وفي تلك المرحلة اجتاح

سولجنتسين احساس بالذنب نحوها وأنه المسئول عن كل ما تتعرض له من متاعب ورغم أنه كان يشجعها على طلب الطلاق منه فقد كان يذوب شوقا إلى أن يعيش حياته الأسرية معها تحت سقف واحد فقد كتب إليها آنذاك خطابا يقول فيه:

«يغمرنى لأول مرة بعد مرور كل هذه الأعوام الإحساس الرائع بأن الحياة العائلية تنتظرنى فى مكان ما خارج الأسوار ولايمكن لهذه الحياة العائلية أن تقوم لها قائمة بدونك والبيت ليس له وجود بدون أن تكونى ربته فهو موجود حيثما نعيش» .

ورغم أن بانين استطاع أن يتوصل إلى نتائج إيجابية بشأن إختراع التليفون المتنقل فإنه احتفظ بها سرا لنفسه وأقدم على إحراق التصميمات حتى يمنع السلطات السوفيتية من الإنتفاع بها مضحياً بذلك بفرص الإفراج عنه . ويصور سولجنتسين موقف بانين الرافض للتعاون مع السلطة والمحتقر لها ولكل مايمكن أن تثيب المساجين وتكافئهم به فى «الدائرة الأولى» وأعجب مؤلفنا بهذا الموقف الشجاع واحتذى به فلم يعد يهمه أن ترضى عنه إدارة السجن أو تزور وتحول

سولجنتسين إلى سجين مشاغب يتعمد بالإصرار على المطالبة بحقه إحراج هذه الإدارة فعلى سبيل المثال تقضى لوائح السجن بصرف خمسة جرامات من الدقيق يوميا تضاف إلى حسائه وجأر مؤلفنا بالشكوى من أن حساءه يخلو من الدقيق. فاضطرت إدارة السجن إلى تنفيذ اللوائح والاستجابة إليه ورسم له الفنان إيفاشوف – موساتوف داخل أسوار سجن مارفيتو بورتريها بالقلم تميز بأن عينيه تشعان بنظرات التحدى . وفى تلك الفترة من حياته أيقن مؤلفنا أن الحكم عليه بالنفى بعد إنهائه مدة السجن لن يتغير أو يخفف ، فاستسلم لقدره ومصيره ونفض عن نفسه الأوهام ومن بينها الوهم الزائف بأن له زوجة تخلص له وحياة عائلية تنتظره ، فعاد من جديد يؤكد لها ضرورة أن تعمل على الطلاق منه وبعد انتقالها للعمل فى جامعة رازان قابلت ناتاليا زوجها لأول مرة فى مارس ١٩٥٠ وكانت ناتاليا من ناحيتها تخفى عن المسئولين أنها متزوجة وتتحاشى إرسال الخطابات إلى زوجها حتى تتجنب ماقد يجر عليها ذلك من مشاكل وانشغلت بعملها الجديد فى تدريس الكيمياء بالجامعة وكذلك انشغلت

بالاشتراك فى إقامة بعض الحفلات الموسيقية وسار عملها المهنى على مايرام ، فعينت رئيسا لقسم الكيمياء بالجامعة وتجددت متاعب سولجنتسين التى انتهت بطرده فى ربيع ١٩٥٠، حين قام خبراء سجن مارفينو ومن بينهم سولجنتسين باختبار نتائج التجارب التى أجراها مدير السجن الكولونيل فاسيليف على بعض الخطوط التليفونية التى استحدثها فقد وجدوا أنها ضعيفة ولا تنقل الصوت بقوة ولم يسكت سولجنتسين على هذا العيب الفنى وأمعن فى الحط من شأن صاحبها العلمى أمام الملأ .. وعبثا حاول صديقه كوبليف أن يرده إلى صوابه وينبهه إلى طيشه ونزقه ولكن مؤلفنا استرسل فى إهانة مدير السجن ظنا منه أنه بمأمن من أى عقاب أو أذى بسبب كفاءته فى العمل المشهود لها واعتقاده بشدة حاجة أبحاث المعهد إليه ، غير أن الأمر صدر بنقله من القسم الذى يعمل فيه إلى قسم آخر . وكان يمكن لهذه المتاعب أن تنتهى عند هذا الحد لو أنه رضى القيام بعمله الجديد فى الشفرة دون اعتراض أو ضجيج فقد تصادف أن زار السجن آنذاك أحد أساتذة سولجنتسين القدامى فى

جامعة – روستوف لتقييم الأبحاث والتجارب التى تجرى فيه ، ولما علم الأستاذ بوجود تلميذه استدعاه للدردشة وتبسط معه في الحديث، الأمر الذى شجع سولجنتسين على رفض القيام بالعمل الجديد المسند إليه والمطالبة بالعودة إلى عمله القديم الذى قال إنه برع فيه ولايمكن الإستغناء عنه، وفوجىء مؤلفنا وبانين مع المخبر برتزر هرتزنبرج باستدعائهم على عجل إلى مكتب الأمن حيث تم نقلهم إلى بيوتركى قبل ترحيلهم فى ٢٤ يونية ١٩٥٠ إلى جهة غير معلومة كل ما عرفه سولجنتسين أنهم كانوا يتحركون به فى عربة مقفولة تتجه نحو الشرق . وليس من شك أن الفترة التى أمضاها مؤلفنا فى سجن مارفينو وهى قرابة ثلاثة أعوام كانت أكثر فترات سجنه راحة وامتيازا والأهم من هذا أنها ساعدته على البقاء على قيد الحياة ، فمن المؤكد أن عذاب السجون الأخرى كان كفيلا بالإجهاز عليه .

الطريق إلي خازاخستان ذاكرة من حديد :

قامت السلطات السوفيتية بنقل المساجين ومن بينهم سولجنتسين وبانين بالقطار فى عربة مغلقة لاتختلف فى

مظهرها الخارجى عن أية عربة عفش حتى لايعرف الأهالى
من بداخلها وكانت هذه العربات مقسمة إلى مقصورات أو
دواوين تطل على ممرات القطارات ويقوم الحراس بتكديس
المسجونين فيها ويرصونهم كعلب السردين على نحو غير
أدمى ، وفى الطريق إلى سجن كيوتشيف المؤقت تضور بعض
المساجين جوعا ومات بعضهم الآخر مختنقا وفى زمهرير
الشتاء مات البعض من البرد، وانتشر العفن فى المقصورات
لأن المساجين كانوا يتبولون ويتبرزون بداخلها، ولم تكن
حصتهم اليومية من الماء تكفى لرى ظمأهم، وخاصة لأن
طعامهم اليومى كان من السمك المملح ، الأمر الذى زاد من
عطشهم . وبلغ تعسف الحراس مبلغا جعلهم لايسمحون لهم
بالتبول أكثر من مرة فى اليوم ، مما أدى إلى عدم تحكم
البعض فى أنفسهم ، ولكن مؤلفنا وزميله بانين كانا أكثر حظا
من زملائهما ، فقد كانت مقصورتهما أقل تكدسا من غيرها
وسمح لهما بزيارة دورة المياه مرتين يوميا مرة فى الصباح
ومرة فى المساء ، كما أن الحراس فتحوا نوافذ عربتهم حتى
يدخلها الهواء النقى ولاحظ سولجنتسين أن المساجين الذين

صدرت ضدهم أحكام بالسجن المؤبد ينتقدون النظام السوفيتى بجرأة وضراوة مذهلة فهؤلاء المساكين خسروا كل شيء ولم يعد لديهم شيء يبكون عليه .

كان بين هؤلاء المساجين عدد كبير من الأوكرانيين المطالبين بالاستقلال فى طريقهم إلى المنفى فى سيبريا، كما كان بينهم عدد كبير من سكان أستونيا ولتوانيا ولاتنيا، وهى البلاد الصغيرة التى ابتلعها الاتحاد السوفيتى في أعقاب الحرب العالمية الثانية وضمها عنوة واقتداراً إليه ، وشعر سولجنتسين بالعطف عليهم لأن بنى جلدته السوفيت حرموهم ظلما وعدوانا من حياتهم الوديعة المنتظمة الهادئة ليس لجرم ارتكبوه ولكن لأن موقع بلادهم الجغرافى حال دون أطماع السوفيت فى الوصول إلى البحر ، ورأى مؤلفنا أن مشكلة أوكرانيا أكثر المشاكل صعوبة وتعقيداً وإلحاحاً على نحو مباشر ، ولا غرو أن يوليها كل هذا الاهتمام فنصف دمائه تنحدر من أصل أوكرانى وهو يقول فى هذا الشأن فى المجلد الثالث من «أرخبيل الكولاج» :

«إن روسيا وأوكرانيا تسريان فى دمى وقلبى وفكرى» .

ولهذا كان على استعداد أن يسلم على مضض أن من حق أوكرانيا أن تنسلخ عن الاتحاد السوفيتى. وتكون دولة مستقلة إذا شاءت ذلك ، غير أن الأمل كان دوما يحدوه فى أنه حتى إذا حدث هذا فسوف تعود أوكرانيا طواعية وباختيارها إلى الاتحاد مع روسيا فى كيان واحد .

وفى أغسطس ١٩٥٠ بعد أن أمضى سولجنتسين شهرا فى كيوبشيف تم نقله مع بانين وعدد من المسجونين إلى شرق أومسك وهى المكان نفسه الذى سبق أن نفى فيه الكاتب الروسى الكبير فيودور ديستوفسكي قبل قرن من الزمان فى يناير ١٨٥٠ ليقضى هناك مدة عقوبته ، ولكن شتان الفرق بين معاملة النظام القيصرى لديستوفسكى ومعاملة النظام السوفيتى لسولجنتسين . فقد وجد ديستوفسكى بعض السيدات فى انتظاره يعملن على راحته ويقدمن إليه الهدايا ويوصين حراسه خيرا به فيستجيبون لتوصيتهن فى حين أن حراس سولجنتسين وزملائه هددوهم بالضرب بالرصاص إذا حاولوا الاتصال بالأهالى . وبينما كان عدد المسجونين السياسيين أيام ديستوفسكى لايتجاوز ثلاثة فى المائة

أصبحت الغالبية العظمى من المساجين أيام سولجنتسين من السياسيين بحيث لايتجاوز عدد اللصوص بينهم أصابع اليد . ولكن سجن أومسك لم يتغير منذ أيام ديستوفسكى فهو السجن الرهيب ذاته الذى أقامته القيصرة كاترين العظمى بقبابه وزنزاناته المخيفة تحت الأرض . ومن أومسك تم نقل مؤلفنا وزملائه إلى بافلودار ثم عبر صحراء خازاخستان فى آسيا الوسطى حيث بنى ستالين عام ١٩٤٨ مجمع سجون يعرف باسم أكيباستوز أودع فيه أوقات الذروة ستين ألف سجين . ولقصد التموية أو التخفيف أطلق المسئولون على بعض هذه السجون أسماء شاعرية تخفى طبيعتها فسجن أكيباستوز على سبيل المثال كان يعرف باسم «معسكر المراعى». والغريب فى الأمر أن يتولى المساجين استكمال مجمع السجون بأيديهم ويساهمون فى تطويرها وفقا لأفكار ستالين وخططه .

ولاشك أنها مفارقة أن يبنى هؤلاء المساجين الحواجز والأسوار وأبراج المراقبة والأسلاك الشائكة التى تمنعهم من التفكير فى الهرب ، وعهدت إدارة المجمع إلى سولجنتسين

وجماعة الأوكرانيين بمهمة البناء، نظرا لمهارة الكثيرين منهم في مثل هذا العمل ونظم مؤلفنا قصيدة بعنوان «البناء» تحدث فيها عن عمله في تطويع الحجارة ليبني بها السجون في سيبريا أى في إقامة نظام الكولاج أو معسكرات العمل والجديد في «معسكر المراعى» أن السجناء لم يعودوا يعرفون بأسمائهم بل ينادى عليهم بأرقامهم التي حيكت على ملابس السجن ، ويعطينا كاتبنا وصفاً تفصيليا لهذا الإجراء غير الآدمي في الجزء الثالث من «أرخبيل الكولاج» وفي هذه الفترة من حياته تحول إلى إنسان مؤمن بالقسمة والنصيب واستسلم لقدره وأدرك أن تفكيره السابق في قدرته على تغيير مسار حياته ليس سوى ضرب من السخف يرقى إلى مرتبة الكفر . ويساعده الاستلام لمصيره على أن يجد في عمله كبناء – الذي دام لمدة عام تقريبا في سجن أكيباستوز لذة وسعادة وأن ينعم بهدوء البال الذي حرص عليه حرصا بالغا آنذاك لأنه مكنه أثناء رحلته الطويلة إلى هذا السجن أن ينظم جانباً كبيراً من قصيدته «الطريق» التي تتضمن سيرة حياته وهو يقول في هذا الصدد : [١]

«أحيانا كانت أبيات الشعر والأخيلة تلح بشدة وتزدحم فى رأسى أثناء أدائى للعمل والحراس يصرخون من حولى ممسكين بمدافعهم الرشاشة لدرجة أنى شعرت بنفسى وأنا أطير فى الهواء وأتخطى الطابور مندفعاً إلى مبنى المعسكر لأجد ركنا أكتب فيه . فى تلك اللحظات شعرت بالحرية والسعادة معا» . والغريب أنه يستخدم هنا لفظ «أكتب» مما يتعارض مع قوله فى موضع آخر أنه كان يستظهر أشعاره ، ولعله استخدم كلا الأسلوبين معا ففى معسكر أكيباستوز التجأ شاعرنا إلى حفظ أبياته بأسلوب لطيف فقد قام بجمع أعواد الكبريت المكسورة وعمل منها صفين كل صف منهما من عشرة أعواد يضعها جميعاً على حافظة سجائره، ويمثل الصف الأول العشرات فى حين يمثل الصف الثانى الوحدات وكان بعد أن يحفظ فى سريرته كل بيت من تأليفه يحرك عوداً فى خانة الوحدات فإذا تم له استظهار عشرة أبيات يقوم بتحريك عود فى صف العشرات وهكذا دواليك وبعد أن يحفظ القصيدة بأكملها يقوم باستظهارها مرة كل شهر حتى يتأكد من سلامة حفظه لها . وكان من حسن حظه أن سجن

أكيباستوز يسمح لسجنائه باستخدام القلم والورق ولكنه يطالبهم بعرض مايكتبونه على إدارة السجن ولهذا كان سولجنتسين يكتفى بكتابة مالايزيد عن عشرين بيتا فى قصاصة ورق صغيرة ثم يقوم بعد استظهارها بحرقها فى موقد السجن لكن هذه الطريقة كانت محفوفة المخاطر ففى إحدى المرات ضبط الحارس معه ورقة مكتوبة فإدعى مؤلفنا أنها محاولة من جانبه لأن يتذكر عن طريق الكتابة أغنية عن تقدم الجيش السوفيتي داخل ألمانيا الشرقية وساعده على هذه الفرية خلو الورقة من أية ألفاظ تورطه . وفى مرة أخرى زعم أن الورقة المضبوطة معه (والتى سطر فيها ستين بيتا من مسرحيته الشعرية «عيد المنتصرين») جزء من مسرحية ينوى تقديمها على خشبة مسرح السجن فقام الحارس بتمزيقها وأرجعها له وعندما ضبط معه جزء من الفصل التاسع من مسرحية «الليالى البروسية» أدعى أنها جزء من قصيدة تفاردوفسكي «فاسيلى تيوركن» ذات الطابع الوطنى التى كان الجنود السوفيت على جبهة القتال يتغنون بها .

وقبل ذلك لاحظ مؤلفنا عندما كان فى سجن كيوبشيف

المؤقت أن المساجين الكاثوليك من لتوانيا يصنعون لأنفسهم حبات المسابح التى يتلون عليها صلواتهم من عجينة الخبز الطرى المطلى بألوان مختلفة يجففونها على حافة النافذة ، فذهب إليهم وزعم أنه مثلهم يريد الصلاة على مسبحة تحتوى مائة حبة ورجاهم أن يصنعوا له مسبحة بهذا العدد من الحبات بحيث يضعون بعد كل تسع حبات مستديرة حبة عاشرة مكعبة، وبحيث تكون الحبة الخمسين والحبة المائة لهما ملمس خاص يتميزان به وتعاطف هؤلاء اللتوانيون مع نزعته نحو التدين وتضافروا لعمل المسبحة التى يريدها وكان يحمل هذه المسبحة فى كل مكان يذهب إليه، تحت قفاز من القماش يلبسه ويستعين بها فى عد الأبيات التى نظمها وفى استظهارها، وفى بعض الأحيان عثر الحراس على هذه المسبحة فلم يعلقوا عليها أية أهمية ظنا منهم أنه يستخدمها للصلاة وذات مرة خرج ليستظهر قصيدته «البناء» من ورقة مكتوبة ففوجىء باستدعاء قومندان السجن له فعجل بكرمشه.. الورقة والقائها على الأرض ولم ينم طيلة الليل خوفا من أن يكون الحراس عثروا عليها ، وابتهل إلى الله كى

يستر عليه ويصون سره. وفى الصباح الباكر تسلل للبحث عن الورقة الملقاة وسط ريح عاتية قذفت بالحصى والرمل فى وجهه فلم يجدها وحانت منه التفاتة فوجد الورقة على مقربة من نفس المكان الذى ألقاها فيه فحمد الله كثيرا . ويدلنا هذا على أن سولجنتسين كان يتمتع بذاكرة حديدية يندر أن نجد لها نظيراً كما يدلنا على أنه وجد فى الله مأمنا وملاذاً عند المحن والشدائد .

وفى سجن إكيياستوز قابل سولجنتسين عددا من الشعراء من بينهم أناتولى سيلين الذى يدين بالمذهب المعمدانى وتمتع بمقدرة مذهلة على حفظ الشعر ، فضلا عن أنه أثار إعجاب مؤلفنا بشخصيته الوديعة المتواضعة والشديدة التدين . نظم سيلين قصائد دينية طويلة أعجبت مؤلفنا إلى الحد الذى جعله فيما بعد يذكر بعضاً من أبياتها فى «أرخبيل الكولاج»، وفى شعره عبر سيلين عن قدرة الألم على تطهير الإنسان من الأوشاب وقدرة الحب على الرقى به إلى درجة الكمال .

وحدث تغيير ملموس فى أحوال سجن إكيباستوز عندما حلت فيه قافلة من الشبان الأشداء المؤمنين بقوميتهم

الأوكرانية جاءت بهم السلطات إلى إكيباستوز بسبب عصيانهم وإحراق سجنهم السابق فى ديوبوفكا ، غير أنهم لم يرعووا فى سجنهم الجديد واستمروا فى شق عصا الطاعة ولم يقف هؤلاء الأوكرانيون مكتوفى الأيدى أمام نشاط الجواسيس الذين بثتهم إدارة السجن وسطهم بل قاموا بتعقبهم والأعتداء على حياتهم واتحدا الواحد تلو الآخر فى وضح النهار وأمام عينى القومندان واستطاعوا التخلص من خمسة وأربعين مخبرا فى المعسكر فى مدة لاتتجاوز ثمانية أعوام . وعجزت إدارة السجن عن السيطرة عليهم فرفضوا الأمتثال لأوامرها حتى تقوم بتحسين أحوالهم وبالأستجابة إلى مطالبهم ومن بينها تقليل مقدار وساعات العمل وزيادة حصة الخبز المنصرفة لهم إلى أقصى حد ممكن ، وفشلت كل وسائل الإدارة فى الضغط عليهم وإرهابهم ، الأمر الذى شجعهم على المطالبة بمزيد من الحقوق، ومنها إخراج خزانات البراز من داخل زنزانتهم والسماح لهم بكتابة اثنى عشر خطابا فى السنة بدلا من خطابين فقط ! وقرر السجناء الأوكرانيون الإضراب عن الطعام . ولكن الإدارة بادرت

بمهاجمتهم فى ٦ يناير ١٩٥٢، واستطاعت أن تفاجئهم وتأخذهم على غرة وتسوقهم خارج الزنزانات وتعزلهم عن بعضهم البعض، حتى تمكنت فى نهاية الأمر من السيطرة عليهم تماما وتشفيا فيهم أودعتهم فى الزنزانات التى فر إليها الجواسيس هربا بجلدهم فقام هؤلاء الجواسيس بالفتك بهم دون أن يستطيع زملاؤهم الأوكرانيون أن يخفوا لنجدتهم، فضلا عن أن إدارة السجن استطاعت عزل القوميين الأوكرانيين وعددهم نحو ألف سجين عن بقية المساجين وعددهم نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة سجين، وكانت مستشفى السجن فى الجزء الذى تم فيه عزل الأوكرانيين عن بقية السجناء .

الألم طريقة إلي الله :

كان انتصار المسجونين على إدارة السجن مؤقتا ففى يناير ١٩٥٢ تجمع بعضهم وقاموا بشن هجوم على زنزانات السجناء المخبرين فى عششهم التى أودعوا فيها بقصد الانتقام منهم ، ولكن قضبان الزنزانات حالت بينهم وبين مايريدون فتوجهوا إلى المخبز وأحضروا منه برميلا من الزيت

ومـلأوا بعض الجـرادل بالزيت ورشـوه فى الزنزانات تمـهـيـداً لإشـعـال النار فـيـهـا وقـبل أن يتـمكنوا من ذلك بادر الحـراس بإطلاق النار عليـهم مـن أبراج المراقـبـة ، فـقـتلوا اثنى عشـر سجيناً، الأمر الذى أثار حفيظة زملائهم فقرر جميع المساجين الإضـراب عن الطعـام والعـمل. لم يفـهم سـولجـنتـسين وزمـيله بانين الوضـع على حـقيقته فلم يلتزما بهذا القرار بدافع الجبن والخـوف ولكنهم لاما نفسـيـهمـا بعد ذلك على هذا التـقاعس ، واعـتـصـم المسـجنون فـى عـشـشـهـم لايغـادرونهـا ويرفـضـون الطعـام المقدم إليهـم وأحست إدارة السجن أنها لم تعد قادرة على السيطرة عليهم فـاضطرت إلى إبلاغ القـيادة العليـا وهو ما كانت تتحاشاه، فـجاء النائب العام فى كازاخستان بنفسه وحـاول اسـتـرضـاءهم حـتى يضـع حـدا لـتـمـردهم وبات من الواضح أن إدارة السجن تستسلم لهم . يقول مؤلفنا فى هذا الشـأن فى الجـزء الثـالث من «أرخـبيل الكولاج» طلبت إدارة المعسكر من السـجناء أن يتناولوا طعـامـهم ووعـدتـهم بقـبـول شكاواهم وفـحصـهـا وإزالة أسباب الصراع القائم بين الإدارة والسـجناء وتشـاور زعمـاء السـجناء مـع زملائهم فـأبدى الكثير

منهم استعداده لإنهاء الإضراب ولكن بانين وقف بينهم خطيبا مفوها واستطاع إقناعهم بضرورة مواصلة الإضراب للضغط على الإدارة، الأمر الذى أثار إعجاب سولجنتسين به ولكن هذا الاقتناع بضرورة الاستمرار فى الإضراب سرعان ماتبدد ، فلم يمض غير يوم واحد على خطبة بانين حتى خرج نزلاء العشة رقم ٩ الذين عاشوا طوال فترة الإضراب التى دامت أربعة أيام مع جثث زملائهم من ضحايا الإضراب فى الزنازين نفسها متوجهين إلى المطعم لتسلم حصصهم من الطعام وبذلك تفتت تضامن السجناء على صخرة الجوع والهزال. واعتبر سولجنتسين ماحدث هزيمة للسجناء رغم حصولهم على بعض المكاسب المؤقتة مثل متأخراتهم من حصص الطعام والسماح لهم بالتجول فى أرجاء المعسكر وعقد المسئولون اجتماعا حضره المسجونون بزعم الاستماع إلى شكواهم، فتهيب معظم الحاضرين من مجابهة الإدارة وعجزوا عن التعبير الصريح عما يشعرون به . حتى سولجنتسين نفسه قرر أن يغلف كلماته بغلاف من الحرص والحيطة، وهكذا فشل السجناء فى استثمار ماليهم من

نواحى القوة ولم يمض وقت طويل حتى كشرت إدارة السجن عن أنيابها وقلبت للمسجونين ظهر المجن فقبضت على زعمائهم وقامت باستجوابهم وعزل المساجين عن بعضهم البعض، ولم يسلم بانين من انتقامهم فتم نقله إلى سجن سباسك بعد مرور أسابيع قليلة .

وفي اليوم التالى على استجوابه دخل سولجنتسين مستشفى السجن فقد لاحظ وجود ورم فى فخذه الأيمن عند التقائه بالبطن وتجاهله في بادىء الأمر غير أنه أخذ ينمو تدريجيا حتى أصبح فى حجم الليمونة، وبنمو هذا الورم أشتد عليه المرض وخاصة أثناء الإضراب عن الطعام .

وبعد فحصه قرر الأطباء أنه مصاب بالسرطان ونصحوا بإجراء عملية له فورا . وعند وصوله إلى المستشفى لاحظ أن بعض السجناء ماتوا من تعذيب الحراس وضربهم المبرح لهم، ومرت عدة أيام قبل أن يقوم سجين / جراح بإجراء العملية له على مدى نصف ساعة تقريبا، فى يوم ١٢ فبراير ١٩٥٢، بعد أن تم تخديره موضعيا . وبحرمانه من الامتيازات فى سجنه الجديد شعر سولجنتسين بأنه أكثر قوة من الناحية الروحية

وأكثر قدرة على تحمل الألم النفسى عن ذى قبل ، وكان هذا مواكبا لتوجهه إلى حظيرة الدين، لقد سبق له فى إحدى رسائله إلى ناتاليا أن حدثها عن إيمانه بالقدر والمصير، وربما كان هذا الإيمان بالدين ، غير أن الطريق الذى تعين عليه أن يسلكه كان طويلا قبل أن يصل إلى الاقتناع بالإيمان بالله .

وكان للحادثة التالية تأثير واضح على تفكيره واقترابه من الله، ففى أثناء رحلة الشفاء من عملية السرطان التى أجريت له زاره طبيب اسمه الدكتور بوريس كورنفيلد جلس بجواره وروى له قصة تحوله من اليهودية إلى المسيحية، وامتدح فى حماس شديد مافى المسيحية من قيم روحانية رفيعة ، واعترف لمؤلفنا الذى كان يشك فى أنه مخبر يتعاون مع إدارة السجن بأنه يؤمن أن مامن عقاب ينزل بأى إنسان إلا وسببه جريمة ارتكبها فى وقت أو آخر من حياته، فى بادىء الأمر لم يأخذ سولجنتسين هذا الكلام مأخذ الجد حتى جاء يوم سمع فيه جلبة شديدة ورأى الدكتور بوريس كورنفليد منقولا إلى المستشفى بعد أن ضربه عامل محارة على أم رأسه بالمطرقة وأجريت له عملية جراحية ، ولكنه لفظ أنفاسه الأخيرة فتذكر

مؤلفنا كلماته المشئومة قبل وفاته ويبدو أن سولجنتسين اهتدى إلى الله فى الفترة التى أجريت له عملية السرطان بالمستشفى، ففيها توصل إلى «الإيمان بمشيئة الله ورحمته» ، وأن هذا الإيمان، يزيل كل مخاوفه وقلقه مما قد يحدث له .

وفى تلك الفترة عاد إليه يقينه القديم وهو طفل بوجود الله وأدرك أن إلحاده الماركسى إن هو إلا نتيجة السفسطة واللغو اللذين تعلمهما من الكتب، فلا غرو إذا رأيناه فى ختام الجزء الرابع من الفصل الأول فى «أرخبيل الكولاج» ينظم قصيدة دينية تنتهى بالأبيات التالية :

الأن وقد عاد إلى الكأس

أنهل من ماء الحياة

يا إلهى القادر على كل شىء أنا أؤمن بك

فأنت موجود فى الوقت الذى أنكرتك فيه

وبعد أن زايله تأثير الماركسية فيه بدأ يؤمن بأفضلية جميع الأديان وتفوقها على هذه الأيديولوجية لأن الأديان فى رأيه تقاوم الشر داخل الإنسان فى حين أن الأيديولوجية تُقضى فقط على الذين يحملون بداخلهم جراثيم الشر وقت

حدوثه ، ولكنها فى الوقت ذاته ترث الشر نفسه بدرجة أعظم.
وبدأ سولجنتسين يشعر بالامتنان للسجن وأن ما لقيه من ألم وعذاب علماه نقاط الضعف فيه كما علماه أن يعرف نفسه بنفسه .

وبعد أن استأصل الأطباء الورم أرسلوه للتحليل فأكتشفوا أنه من النوع الخبيث ولكن من حسن حظه أنه توقف عن النمو ، الأمر الذى جعلهم يرون أنه ليس هناك أى سبب للأنزعاج واستبعدته إدارة السجن من عمله كبناء كنوع من العقاب فيما يبدو وتمنى لو أنه تعلم النجارة فى السجن ولكنهم ألحقوه بالمسبك ليعمل فى صهر المعادن وكان هذا أشق وأقسى عمل قيض له أن يقوم به خلال فترات سجنه الطويلة .

وفى أوائل عام ١٩٥٢ أدخل المسئولون بعض الإصلاحات على نظام السجون والمعسكرات ومنها تحويل كل سجن ومعسكر إلى وحدة اقتصادية قائمة بذاتها، وأصبح من حق المساجين العاملين أن يتقاضوا أجورا عن عملهم حسب إنتاجهم بحيث لاتتجاوز ٤٥٪ من قيمة هذا الإنتاج ، غير أن

السجناء لم يحصلوا على كل حقهم فى النسبة المقررة لهم بل كانت السلطات تخصم منها نحو ٧٠٪ لدفع نفقات الصيانة والحراسة والأمن والطعام والملبس إلخ ، فلا يتبقى للسجناء فى نهاية المطاف إلا مايقرب من ١٣٪ فقط من مستحقاتهم . وكانت إدارة السجن تحتفظ بنصف هذه النسبة لتسلمها إلى السجين عند خروجه.وتصرف له النصف الآخر فى شكل كوبونات لشراء أشياء إضافية من الكانتين مثل الحلوى واللبن والبسكويت .

وفى تلك الفترة من حياة مؤلفنا فى سجن إكيباستوز لم تنقطع صلة زوجته ناتاليا به فقد داومت على إرسال الطرود إليه والتى احتوت على الطعام وعلى الكتب التى توفر على قراءتها بنهم شديد فضلا عن أنها أرسلت إليه بالأقلام والأوراق والكراسات . ومن الكتب التى أرسلتها إليه أعمال ألكسى تولستوى وأستروفسكى وبلوك . وفى إكيباستوز قرأ كاتبنا أيضا كثيراً من الشعر إلى جانب أعمال هرزن وجونشاروف وتشيكوف وسوليتكوف - ششدرين وولكى كولينز وعبر سولجنتسين لزوجته عن امتنانه العميق لما ترسله

إليه من أشياء ، خاصة ذلك النوع الممتاز من التبغ الذى وجد متعة بالغة فى تدخينه .

ولاحظ مؤلفنا أن زوجته كادت أن تتوقف عن الكتابة إليه تماما ويبدو أن الوحدة والوحشة التى عاشت فيها لسنوات طوال كانتا فوق طاقتها . فأحبت زميلا لها له ولدان من زوجته السابقة ويعمل محاضراً فى مادة تخصصها وهى الكيمياء . ولم تشأ ناتاليا أن تزيد من متاعب زوجها بعد إجراء العملية الجراحية له فامتنعت عن تبليغه بأمر زواجها الذى تم بطريقة الشهر الشفوى بعيدا عن الرسميات وبطبيعة الحال أضطرها هذا إلى إنهاء إجراءات فسخ زواجها كما تقضى القوانين بذلك . وفى سبتمبر عام ١٩٥٢ أوحت ناتاليا إلى الخالة نينا بأن تبلغ سولجنتسين بأمر زواجها بعد أن رفضت ماريا أمها أن تفعل ذلك ، فكتبت إليه الخالة نينا عبارة مبتسرة للغاية جاء فيها :

«طلبت منى ناتاليا أن أخبرك أنه عليك أن ترتب حياتك فى استقلال عنها ».. وزاد غموض هذه العبارة من قلقه وتوتره لأنه كان فى قرارة نفسه متمسكا بها رغم أنه أعطاها حرية

الطلاق منه والزواج من رجل آخر .

واستفسر سولجنتسين عن معنى هذا العبارة الغامضة فاضطرت زوجته إلى إخباره بالحقيقة الموجعة واستبد الغضب والغيرة به إلى الحد الذى جعله يصف زوجها الجديد:

«إنه وغد أغري بالزواج امرأة متزوجة، لايزال زوجها حيا يرزق»، ودفعه تفاؤله العارم إلى الأمل فى الإفراج عنه، ولكنه سرعان ماتذكر أن نهاية مدة العقوبة لاتعنى بالضرورة نهاية مدة السجن وأن الحكم الصادر ضدة يقضى بنفيه نفيا دائما، وحتى ينسى همه كتب إلى الخالة نينا كى ترسل له كتبا فى الهندسة والرياضيات فقد كان يحلم بممارسة التدريس فى مدرسة فى إحدى القرى الروسية النائية .

وفى إبريل ١٩٥٢ فوجىء سولجنتسين باستدعائه إلى مكتب الأمن وطلب إليه مسئول الأمن أن يؤكد سابق شهادته بأن صديقه كيريل الذى أصبح جراحا مشهوراً بكفاءته يتواطأ فى نشاط معاد للدولة السوفيتية . ولكنه أبى وأكد أن صديقه مثال للولاء للوطن والتفانى فيه . فالتجأ رجل الأمن

إلى المكر والخديعة ، وقرأ على كيريل شهادة سولجنتسين السابقة التى أدلى بها فور إلقاء القبض عليه حتى يقنعه بخيانة صديقه وغدره .

وانطلت الحيلة على كيريل الذى بدأ التحقيق معه هذه المرة بتهمة الشذوذ الجنسى .

وفي فترة عمله بالمسبك نظم سولجنتسين في نهاية عام ١٩٥٢ قصيدة بعنوان «روسيا» استهدف من وراءها الغوص فى الروح الروسية واستجلاء معالمها وما تتصف به من فضائل ، ورذائل، وذهب شاعرنا فى هذه القصيدة إلى أن انشغال روسيا بالحروب والغزوات لايعود عليها بالنفع بل بالضرر وأن قوة روسيا وفتوتها سبب فى شقاء الدول الضعيفة المجاورة، وهى النغمة نفسها التى شاعت فى قصيدته السابقة «الطريق» يقول سولجنتسين فى قصيدته «روسيا» :

إن وحشية التتار التى لاتنمحى والتى تلازم الروس منذ ولادتهم وقذارة الوسخ الستالينى تدمغنا جميعاً فاسم روسيا ملعون بالثلاث من الآن فصاعدا .

وهكذا أمضى سولجنتسين فى السجون والمعسكرات ثمانية أعوام وفى سجن إكيباستوز ثلاثة أعوام انتهت رسميا فى ٩ فبراير ١٩٥٣ . وكثيراً ما رواده حلم المنفى الذى اعتبره جنته المرتقبة ، حيث يمكنه من الحركة بحرية مثلما يتحرك الآدميون لكن عندما حلت لحظة الانتقال إلى منفاه المجولى شعر أنه يرحل بجسده فقط وأنه يترك روحه وراءه تحلق فوق السجون والمعسكرات التى شاهدت آلامه وعذابه .

فى المنفـــى :

تحرك السجناء فى لوريات وشاحنات فى طريقهم إلى المنفى دون أن يعرفوا وجهتهم، وأخيرا تسلم سولجنتسين من الضابط ورقة بنية اللون تفيده بنفيه بصفة مستديمة فى قرية كوك تريك الواقعة على الحافة الجنوبية من صحراء كازاخستان الفسيحة المعروفة باسم بت باك دالا ، كما تهدده بالسجن لمدة خمس وعشرين سنة مع الأشغال الشاقة إذا عنْ له أن يغادر المنفى بدون إذن من السلطات ، وفى حالة رغبته فى مغادرة منطقة منفاه فى كوك تريك لأى سبب من الأسباب ،فعليه أن يستخرج تصريحاً خاصا بذلك مبيناً المكان الذى

يريد الذهاب إليه وتواريخ سفره وعودته منها ومحل إقامته فى فترة رحلته . وتم التنبيه عليه بضرورة الحضور إلى وزارة الداخلية مرتين كل شهر للتبليغ عن نفسه وفى منفاه لم يصدق نفسه وهو يتجول حرا طليقاً دون وجود حارس بجواره .. أو خلفه يصوب مدفعه الرشاش نحوه وكان أول شيء فعله فى منفاه أنه توجه إلى المنطقة التعليمية حيث قابل بعض المفتشين وطلب منهم تعيينه كمدرس رياضيات أو علوم فى إحدى المدارس فعلت الدهشة وجوههم وأظهروا تخوفاً منه وسألوه عن السر في وجوده فى ذلك المكان النائى القصى فاعترف لهم بأنه منفى . وعند سؤاله عن السبب زعم أنه حكم عليه بالنفى لسر من أسرار الدولة وأنه ليس فى حل أن يبوح به . ورفض المسئولون عن المنطقة التعليمية طلبه بزعم عدم وجود وظائف خالية لتدريس الرياضيات أو العلوم، ولكن سكرتيرة المنطقة التعليمية رقت لحاله وأخبرته أن مدارس المنطقة فى مسيس الحاجة إلى مدرسين فى كلا هذين الفرعين الأمر الذى شجعه على إعادة المحاولة فطلبوا منه الانتظار حتى يصلهم رد المنطقة التعليمية بوجود وظائف خالية .

وفى المنفى ذاق سولجنتسين طعم الحرية لأول مرة منذ ثمانية أعوام فانتشى بها ، ولم يمانع الضابط والحراس فى أن ينام دون أدنى قيود تحت قبة السماء التى انتشرت فيها النجوم . وقد سجل هذه التجربة المثيرة للغاية فى روايتيه ، «عنبر السرطان» و«أرخبيل الكولاج» وراق له الجو الريفى الخالص الذى أحاط به وأصوات حيوانات القرية التى أثلج صدره سماعها . وبحث عن سكن خاص فلم يجد غير حجرة صغيرة مبنية بالطين وواطئة إلى درجة لاتسمح له بالوقوف ، وخلت هذه الحجرة حتى من مصباح زيت فسادها الظلام الدامس الذى استمد منه راحة وسلوى بعد أن تعب من أضواء السجن الباهرة التى تسطع ليلا ونهاراً .. وفى اليوم التالى الموافق ٦ مارس ١٩٥٣ جاءته العجوز صاحبة الغرفة فى حالة اضطراب شديد، وأيقظته من نومه لتطلب منه الذهاب إلى الميدان ليسمع ماتذيعه الميكروفونات فى الناس، ولما سألها عن السبب همست إليه بأنها تخشى أن تبوح له به، فخرج سولجنتسين ليستطلع بنفسه الخبر فاتضح له أن ستالين مات واستقبل معظم الناس هذا الخبر بالنشيج

والبكاء . أما هو فأراد أن يقفز من فرحته غير أنه سعى جاهدا لإخفائها وقفل راجعاً إلى حجرته لينظم قصيدة بعنوان «الخامس من مارس» لإحياء ذكرى هذه المناسبة . ثم انتقل إلى مسكن آخر متواضع ولكنه أكثر راحة واتساعاً وتروى لنا صاحبة هذا المسكن لحظة دخول سولجنتسين البيت حاملا حقيبته التى وضعها أمام الباب الخارجى ، ولفت نظرها إليه سلوكه المهذب ، وتقاطيعه المليحة وأراد زوجها أن يساعده فحمل عنه الحقيبة فوجدها ثقيلة فسأله إذا كان قد حشاها بالكتب فأجابه بالإيجاب . ولاحظت صاحبة البيت أيضاً أنه يستهلك كمية كبيرة من وقود الزيت وأنه يسهر لساعات طويلة يقرأ ويكتب ،وأصابه الذعر عندما قدمت إليه البطاطس مسلوقة بقشرها فقد رأته يلتقط واحدة منها ويقضمها بقشرها فنبهته صاحبة البيت بقولها :

«ما الذى تفعله ياساشا ؟ أنزع القشرة أولا» فلم يفه بكلمة واحدة بل اكتفى بأن إبتسم لها بطريقة تدل على أنه يستعرض شريط حياته فى السجن والمعسكرات» .

وعندما فشل تهرب الإدارة التعليمية فى صده وإبعاده

عنها لجأت إلى المسئولين لإصدار منشور مفاده أن مدارسها ليست بحاجة لأى مدرسين فى الرياضيات والعلوم، ولأن الحياة علمته شدة الحرص والاقتصاد، فقد استطاع أن يعيش لفترة طويلة على النقود التى صرفها المعسكر له عند خروجه منه وذات يوم بينما كان يسير فى الطريق جاءه رجل من وزارة الداخلية ليقتاده إلى الجمعية التعاونية بالقرية وطلب منه أن يعمل محاسبا فيها لقرب حلول موعد الأوكازيونات بمرتب فاق كل أحلامه وهو ٤٥٠ روبلا فى الشهر. وحتى ينتهى المحاسبون من عمل التخفيضات على السلع فى فترة الأوكازيون وضبط الحسابات المتعلقة به أصدر رئيس الجمعية أمرا متعسفا باستمرارهم فى العمل لمدة سبع عشرة ساعة يوميا، واستفاد مؤلفنا من تجارب السجن فلم يجأر بالشكوى من هذا التعسف بل عمد إلى التزويغ من العمل فى صمت، فلاحظ رئيس المجمع تزويغه، وهدد بإنزال أقسى عقاب عليه. فارتعدت فرائص سولجنتسين ولحسن الحظ أنه لم ينفذ تهديده لأن موت ستالين فيما يبدو كان إيذانا بحلول جو جديد من السماحة النسبية .

وبعد أن أمضى مؤلفنا نحو شهر فى المجمع الاستهلاكى جاءته الفرصة التى ظل يتحرق شوقا لتحقيقها وهى أن يصبح مدرسا فقد أعجب بشخصيته واحد من أقطاب الحزب المحليين والعاملين فى مجال التعليم اسمه سيريمبتوف الذى تحمس لتعيينه فى وظيفة مدرس رياضيات وعلوم وفلك ، توسط له هذا الرجل لدى مدير التعليم العام وأقنعه أنه ليس من المعقول أن يكون بين ظهرانيهم رجل يحمل مثل مؤهلاته العلمية دون الاستفادة منه لرفع مستوى التعليم المتدنى بالمنطقة ، ووافقه المدير العام على هذا الرأى متجاوزا بذلك الجهات التعليمية الأدنى التى قررت رفضه، وكان هذا التعين أكبر فرحة عرفها سولجنتسين فى تلك الفترة من حياته فقد ردت إليه بعد طول مهانة وإذلال احترامه لنفس وآدميته ورغبة منه فى رفع مستوى طلبته العلمى لتأهيلهم لأداء امتحاناتهم بنجاح تفانى فى عمله وأعطاهم حصصا إضافية مكثفة فاستجابوا إليه وجاءوا إلى فصوله فى التقوية جماعات وزرافات ويبدو أن سيريمبتوف لحظة ما انتابه شك فى أن تكون سنوات السجن والمعسكرات أنسته الرياضيات والعلوم

فطلب منه قبل موعد الامتحان بيومين أن يفتح الظرف الذى يحتوى على الأسئلة التى أرسلتها الوزارة المركزية فى موسكو وأن يقوم بحل المسائل التى سوف يمتحن فيها الطلبة ولم يهدا للرجل بال إلا بعد أن تأكد من قدرة سولجنتسين على حلها بسهولة ويسر . وليس أدل على فساد النظام التعليمى السوفيتى وتدنيه من أن كثيرا من زملائه فى المنطقة عجزوا عن حل الأسئلة ولجأوا إليه ليشرحها لهم. بلغ الفساد مبلغا جعل نظار المدارس ومديريها يفرضون الإتاوات على المدرسين ويقتطعون جزءا من رواتبهم كسلفة لاترد ، ورفض سولجنتسين الاستسلام لهذا الابتزاز، كما رفض إعطاء بعض الطلبة المرضى عنهم درجات لايستحقونها مثلما كانت العادة. التزم مؤلفنا قدر ما يستطيع بموقف الاعتراض الصامت على هذا الفساد.

وفى منفاه استرجع سولجنتسين قصائد الشعر التى سبق له أن نظمها فى سجن اكيباستوز وعلى رأسها قصيدة «الطريق» التى كان قد لجأ إلى استظهارها وإعدام مخطوطاتها حتى لاتقع فى أيدى زبانية السجن ومما يثير

الدهشة أنه استطاع استظهارها رغم طولها غير العادى فهى تتكون من عشرة آلاف بيت من الشعر، الأمر الذى يجعل استظهارها عملا ذهنيا جبارا، يدل على ما تمتع به مؤلفنا من ذاكرة حديدية. والجدير بالذكر أن هذه القصيدة منظومة على غرار قصيدة تيوركن، التى ألفها الشاعر الكسندر تفاردوفسكى، كما أشرنا من قبل ونحن نقرأ فى فاتحة القصيدة أو البرولوج وصفا لحياة النصب والعناء التى عاشها فى زنازين السجون دون أن تفلح فى أن تقتل فيه الرغبة الملحة فى الكتابة نيابة عن الملايين من ضحايا ستالين فقد نذر نفسه فى كتاباته الشعرية والنثرية على حد سواء للتعبير عن آلامهم وعذابهم ابتداء من عمله الروائى الأول «يوم فى حياة إيفان دينيسوفتش» حتى «أرخبيل الكولاج» بمجلداته الثلاثة . ولكن يبدو أن شعره لم يرق إلى مستوى نثره فعندما أعاد صياغة بعض أجزاء قصيدة «الطريق» وسعى إلى نشرها فى المجلة السوفيتية المتحررة «العالم الجديد» اعترض رئيس تحريرها تفاردوفسكى على نشرها ونصحه بالاكتفاء بنشرها فى ذيل أعماله الكاملة (عند إعادة نشرها بطبيعة

الحال). وفى عام ١٩٦٢ قرأ مؤلفنا هذه القصيدة على الشاعرة المعروفة أنا أخماتوفا فنصحته بعدم نشرها والاقتصار على الكتابة النثرية التى تفوق فيها . وإلى جانب «الطريق» استرجع مؤلفنا أيضا المسرحية الشعرية التى ألفها فى سجن إكيبا ستوز بعنوان « عيد المنتصرين» وهى تتكون من ألفى وخمسمائة بيت على غرار المسرحية الكوميدية «الويل من الذكاء» التى ألفها جريبويدوف فى القرن التاسع عشر وتدور هذه المسرحية حول ماضى روسيا وحاضرها وسلبيات الثورة البلشفية وإيجابياتها والصراع المحتدم بين القيم الشيوعية الثورية والقيم الإنسانية والأخلاقية الأصيلة . فضلا عن أنها تتناول بعض التيمات التى أصبحت فيما بعد الموضوعات الرئيسية التى تعالجها كتاباته مثل إفلاس الأيديولوچية الماركسية والعواقب الوخيمة للمزارع الجماعية وتركيز السلطة فى يَد سلطات الأمن، ولوثة ستالين الناجمة عن شعوره بالاضطهاد وأدائه المزرى الفاشل كقائد عام للقوات المسلحة فى بداية الحرب العالمية الثانية والدور الحاسم الذى لعبته الوطنية الروسية فى كسب هذه الحرب .

وفى منفاه فى كوك نيريك أكمل سولجنتسين مسرحية أخرى له بعنوان «ديسمبريون بدون ديسمبر» التى غير عنوانها فيما بعد إلى «الأسرى»، وهى أطول وأكثر طموحا من مسرحيته الأولى «عيد المنتصرين» وينتقل فيها المؤلف من الشعر إلى النثر ، وتحتوى مسرحيته ديسمبريون على عدة شخصيات تظهر فيما بعد فى أعماله اللاحقة مثل «أغسطس ١٩١٤» «الدائرة الأولى» وحاول مؤلفها أن يحشوها بكل تجاربه فى السجون ومعسكرات العمل وتتضمن «ديسمبريون» الأفكار نفسها التى سبق لمؤلفنا أن عالجها فى «المنتصرين» ولكن بتفصيل أكبر . ولعل الجديد فى هذه المسرحية أنها تعالج موضوعات الروس البيض والروس الذين اختاروا البقاء مع الألمان على العودة إلى بلادهم ! والرأى عند سولجنتسين أن التاريخ يقف فى صفهم لأنهم أكثر وطنية من البلاشفة المغتصبين، وأن الثورة البلشفية كانت وبالا على الشعب الروسى . وهذه آراء واضحة الخطورة ولو أن هذه المسرحية وقعت فى أيدى المخابرات السوفيتية لكان لها شأن آخر مع صاحبها ولم يعرف العالم بوجودها إلا بعد هجرته

للغرب، ولا مناص من القول إن أعماله المسرحية التى أشرنا إليها مع ديواني الشعر اللذين نظمهما عن حياة السجون والمعسكرات (وهما : « القلب تحت الجاكتة المبطنة بمادة مطاطية» و «عندما يفقدون أثر السنوات») لاتعدو أن تكون مجرد تدريبات أدبية يبدأ بها كل أديب حتى يصل إلى مرحلة النضج .

أخيرا تمكن سولجنتسين من استئجار سكن هادىء يعتزل فيه إلى نفسه، ففى سبتمبر استأجر كوخا أو عشه غير مفروشه من الطين تتكون من غرفة ومطبخ فى ضواحى كوك تيريك واستطاع مؤلفنا أن يصنع سريرا من صناديق الخشب وضع فوقه مرتبة محشوة بالقش ونشارة الخشب. وساعده زميل أوكرانى منفى فى صنع منضده وكرسى من أفرع الشجر، ولأن حوائط الكوخ كانت تتآكل بسرعة فقد تعين عليه كل أسبوع أن يقوم باضافة طبقة من الطين والروث إليها ولكن كمية هائلة من التراب كانت تسقط من الطين والروث بمجرد جفافها الأمر الذى اضطره إلى إزالته بصفة متكررة .

ثم وصله خطاب من ناتاليا اقترحت عليه فيه بسذاجة أن

يستمرا فى التراسل كنوع من التواصل الأفلاطونى البرىء وفهم سولجنتسين من هذا الاقتراح الغريب أن زوجته لاتزال تحبه وتريد أن تعود إليه، فرحب بهذه العودة شريطة أن تنفصل عن زوجها الثانى فأرسلت إليه تخبره بأنه أساء فهمها وأنها لاتنوى أن تترك زوجها الثانى وختمت رسالتها بكلمات الوداع والتمنيات الطيبة له وفى تلك الفترة من حياته ساءت حالته الصحية فقد عانى من مغص شديد لم يستطيع الأطباء المحليون تشخيصه والوقوف على أسبابه فنصحه طبيب سجين أن يعرض نفسه على متخصص فى زامبول وبعد الكشف عليه بأشعة إكس اكتشف الأطباء وجود ورم فى حجم قبضة اليد فى تجويف البطن من الداخل. ولم يعرف سولجنتسين إذا كان الورم القديم الذى عولج منه قد عاد للانتشار أم أنه ورم جديد تماما ليس له بالورم القديم إيه علاقة ! وللعلاج من هذا الورم تعين عليه الرحيل إلى مستشفى يبعد مئات الأميال فى طشقند ، ولم يكن من السهل عليه بسبب نفيه لأسباب سياسية الحصول على إذن بالانتقال إلى هناك غير أن هذا لم يمنعه من البدء فى السير فى

إجراءات الحصول على مثل هذا الإذن. وسمع بوجود رجل عجوز قادر على معالجة مرض السرطان بالأعشاب والأدوية الطبيعية فراق له هذا النوع من العلاج وحاول أن يجربه ولكن حالته الصحية تدهورت بشكل واضح وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الموت الذى مهد نفسه لاستقباله ، وأصبح قلقه يتركز على شيء واحد هو : مصير مخطوطاته بعد وفاته . وخاصة بعد توقف المراسلات بينه وبين زوجته السابق ناتاليا، الأمر الذى جعله يقوم بنسخ مخطوطاته بخط صغير للغاية خبأها ملفوفة فى أسطوانات حلزونية ضيقة ثم حشرها فى زجاجة شمبانيا ودفن هذه الزجاجة فى حديقته .

وأخيرا وبعد لأى تمكن مؤلفنا من الحصول على إذن من وزارة الداخلية بسفره إلى طشقند. وفى فترة انتظاره مجيء القطار الذى يقله تعين عليه أن يسلم بطاقة تحقيق شخصيته إلى ناظر المحطة حتى يسمح له بالمبيت بإحدى حجراتها ولكن ناظر المحطة نسى أمره تماما فقد أخذ يشرب فى احتفالات رأس السنة حتى فقد وعيه فاضطر المحيطون به إلى نقله، ومعه تحقيق شخصية سولجنتسين الذى أسقط فى يده ولم

يكن باستطاعته السفر دون أن يحمل معه هذه البطاقة – وبالمصادفة شاهد مؤلفنا واحدا يعرفه من رجال الأمن فشرح له المشكلة وأراد الرجل أن يساعده فكتب له بخط يده إذنا بالسماح له بالسفر إلى طشقند، وعندما وصل مؤلفنا بعد رحلة شاقة ومضنية إلى طشقند رفض مستشفى طشقند استقباله فيه لأنه لايحمل معه إثبات شخصية، فأصر سولجنتسين على عدم مغادرة حجرة انتظار المستشفى وعلى النوم فيه حتى يقوم الأطباء بالكشف عليه وتدخلت الطبيبة المناط بها علاجه فى الأمر وقبلته بالمستشفى على مسئوليتها دون أوراق تحقيق الشخصية .

عنبر السرطان في مستشفي طشقند :

دخل سولجنتسين مستشفى طشقند فى ٤ يناير ١٩٥٤ بقسم الأشعة ثم بدأت الدكتورة ليديا دونابيفا علاجه في اليوم التالى لدخوله واكشفت الطبيبة أنه يعانى من وجود ورم سرطاني نادر يعرف فى الطب بالورم المنوى ورأت هذه الطبيبة علاجه عن طريق الأشعة وليس عن طريق الجراحة . واستمر علاجه سته أسابيع تعرض فيها لخمس وخمسين

جلسة أشعة مدة كل منها نصف ساعة . وهو ما يصفه في روايته «عنبر السرطان» وفي بداية الأمر تحسنت حالته وأخذ يستطعم الحياة من جديد بعد أن عادت إليه شهيته وارتفعت روحه المعنوية . وزايله الألم الممض الذى كان يعانى منه. ولم يمض أسبوعان على بدء العلاج بالأشعة حتى انكمش الورم غير أن تعرض المريض المركز لأشعة إكس جعله يشعر بالرغبة فى القيء وبفقدان الشهية، ووصف مؤلفنا تماثله للشفاء في إحدى قصصه القصيرة «اليد اليمنى» التى تقع أحداثها فى طشقند بعد أن ساءت حالته لدرجة أن صفرة الموت أعتلت بشرته، فضلا عن شعوره بالإنهاك الشديد والحاجة إلى الراحة كلما خطا بضع خطوات. ويرسم المؤلف فى روايته «عنبر السرطان» صورة ودودة ومحببة لإيرينا ميكى الطبيبة التى سمحت له بدخول المستشفى رغم عدم وجود أوراق تحقيق الشخصية فى حوزته. ، وكذلك ليديا دونايفا الطبيبة التى باشرت علاجه . ولم يكن سولجنتسين مريضا سهلا أو مطيعا بل كان صعب المراس وعنيدا، ورغم خلفيته العلمية فقد كان يغافل أطباءه ويعالج نفسه بالأعشاب

والنباتات الطبيعية . فضلا عن أنه رأى فى تناول كمية كبيرة من هذه الأعشاب والنباتات وسيلته فى الخلاص من حياته إذ اشتد عليه الألم وأصبح لايطاق، ولكن صحته تحسنت بشكل مطرد فلم يكتف بالمشى داخل المستشفى بل تجاوز حدودها أحيانا . وفى منتصف مارس ١٩٥٤ صدرت التعليمات بخروجه من المستشفى على أن يعود إليها فى يونيه من العام نفسه لإعادة الكشف عليه واستمرار علاجه بالأشعة . وقبل أن يغادر طشقند عائدا إلى منفاه فى كوك تريك دخل مؤلفنا قلب مدينة طشقند فوجد أبواب كنيستها مفتوحة أمامه، الأمر الذى أثار فيه الدهشة والاستغراب . ففى روستوف حيث نشأ وترعرع أغلقت كل الكنائس أبوابها فى عام ١٩٣٤، فدخل الكنيسة المفتوحة لأول مرة فى حياته منذ طفولته، وشكر الله على أنه من عليه بالشفاء . ومن حسن حظه أن نوع السرطان الذى أصيب به كان يمكن علاجه عن طريق الإشعاعات وحدها . وفى مرة من المرات نسب سولجنتسين شفاءه منه إلى إرادة الحياة القوية فيه. ولكنه فسره فى مرة أخرى بأنه معجزة من لدن الله . والجدير بالذكر على أية حال أن عودته

إلى حظيرة الإيمان تزامنت مع شفائه من السرطان . ففى المرة الأولى نجح التدخل الجراحى فى إزالة الورم السرطانى فى حين تم علاجه فى المرة الثانية عن طريق الإشعاعات ، الأمر الذى أقنعه بأن العناية الإلهية تقوم على حراسته . وبعد شفائه من مرضه كرس مؤلفنا كل وقته وجهده للتدريس الذى أحبه وأدخل على قلبه السرور رغم قسوة الحياة فى المنفى وهو يصف هذه الفترة من حياته بأنها أسعد الفترات التى عرفها . وكان تلاميذه من أبناء المنفيين الذين كتب عليهم دون جريرة ارتكبوها ألا تطأ أقدامهم أرضا غير أرض المنفى وانبهر سولجنتسين بإقبال هؤلاء الأطفال على التعليم ورغبتهم النهمة إليه، فأنشأ لهم ناديًا يعلمهم علم تقسيم الأرض كما علمهم الفلك ومواقع الأجرام السماوية . واحتفظ بمفكرة يسجل فيها سلوك كل تلميذ من تلاميذه ما يحب وما يكره والمواد التى يميل إلى دراستها واهتماماته فى أوقات الفراغ ، وبعد أن استطاع مؤلفنا اقتناء آلة تصوير بالتوقيت الذاتى صور بها نفسه سرا بملابس السجن تمكن من تهريبها معه إلى المنفى كما أنه حملها معه فى رحلاته مع التلاميذ

واستخدمها فى عمل ميكرو أفلام لكتاباته أخفاها فى أغلفة الملفات . وأخذت حياته فى المنفى وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره فى الانتظام والاستقرار فاشترى الكوخ الذى كان يستأجره، وباشر التدريس فى المدرسة صباحا واعتنى بتلاميذه فى العصر، وانصرف إلى الكتابة فى المساء وبدا كما لو كان راضيا عن حياته، ولكنه فى واقع الأمر كان ساخطا عليها ، ولم يصادق سولجنتسين فى المنفى سوى زوبوف وزوجته . وزوبوف هو طبيب النساء الذى أسدى له النصح بعلاج الورم الذى يشكو منه واستمتع مؤلفنا بدفء العلاقة التى تربطه بزوبوف وزوجته (اللذين يصورهما كعائلة كادمين فى «عنبر السرطان») وأنزلهما فى منزلة الوالد والوالدة .. وبلغت ثقته بهما مبلغا جعله يطلعهما على مخطوطاته فشجعاه على المضى فى الكتابة .

رحلة الشفاء والحرية :

وفى يونيه عام ١٩٥٤ عاد سولجنتسين إلى طشقند بناء على تعليمات الأطباء . وبدأ عليه تحسن ملموس فى صحته كما ازداد وزنه زيادة واضحة . وفى مستشفى طشقند مكث

نحو شهرين لاستكمال العلاج فقد لاحظ الأطباء أنه يعانى من انخفاض ملحوظ في عدد الكرات البيضاء الموجودة فى دمه . وفى خلال فترة استكمال العلاج انكب على قراءة سلسلة من المقالات النقدية حول المؤلفين السوفيت . ويبدو أنه تأثر بوجة خاص بمقال معروف نشره فلاديمير بوميرا تستيف فى مجلة «العالم الجديد» بعنوان «عن الإخلاص فى الأدب» يهاجم الستالينية وينتقد الواقعية الاشتراكية . (والجدير بالذكر أن المسئولين قاموا بطرد رئيس تحرير المجلة الشاعر ألكسندر تفاردوفسكى لسماحه بنشر هذا المقال). وتتضمن رواية «عنبر السرطان» إشارة إلى الأثر العميق الذى تركته قراءة هذا المقال فى إحدى شخصيات هذه الرواية. وبعد خروجه من المستشفى لم يغادر مؤلفنا طشقند إلا بعد قيامه بزيارة حديقة الحيوان فيها حاملا آلة التصوير . فى ذلك اليوم خطر له أن يكتب «عنبر السرطان» التى لم يشرع فى كتابتها بالفعل إلا بعد انقضاء ثمانية أعوام . ولفت نظره فى تلك الفترة أن معاملة الضباط ورجال الأمن والمخابرات له بدأت تتغير وأنها أصبحت أكثر رقة وتحضرا

عن ذى قبل فأدرك أن ريح التغير بدأت تهب على البلاد .

وبعد عودته إلى منفاه فى كوك تيريك استرد سولجنتسين صحته وعافيته تماما وخامره شعور قوى بأنه أعزب يعيش شبابه من جديد فى سن الخامسة والثلاثين ويتمتع بمطلق الحرية فى أن يتزوج. وراقت له فتاة روسية استقرت عائلتها فى إقليم خازاستان ، وأوشك فى عام ١٩٥٥ على الاقتران بها . ولكن منعه من ذلك أنه لاحظ أن فتاته كانت شديدة الارتباط بمنظمة الشباب الشيوعية المعروفة باسم الكومسمول ولاتكف عن ترديد أغانيها والتمتمة بأناشيدها . فخشى أن يكون ولاؤها للنظام السوفييتى يفوق ولاءه له فآثر الابتعاد عنها ، ورغم هذا فقد ظل يبحث لنفسه عن زوجة تؤنس وحشته لمدة ثلاثة أعوام بعد أن أمضى فى السجون والمعسكرات ثمانية أعوام كاملة . وأخيرا قرر أن يصرف نظره عن الزواج خشية ألا يجد الزوجة الوفية التى تصون أسراره . فقد كان جل ما يخشاه أن تقع كتاباته ومخطوطاته فى أيد غير موثوق بها ، فيؤدى ذلك إلى الحكم عليه بالحبس من جديد .

آثر سولجنتسين أن ينصرف عن الزواج ويكرس وقته لتأليف مسرحية بعنوان «جمهورية العمل»، تتناول حياة السجون والمعسكرات ضمنها تجاربه المستقاة من سجن أورشليم الجديدة كما ضمنها وقائع وشخصيات استمدها من سجن بوابة كاليوجا وسجن اكيباستوز . ولم يخف مؤلفنا سعادته أثناء كتابة هذه المسرحية الجديدة لأنه فى المنفى - بخلاف السجن والمعسكر - لم يكن بحاجة إلى حرق أصولها بعد استظهارها . فضلا عن أن السعادة غمرته وهو يقوم بتنقيح مسودتها وإعادة نسخها . لم يعجبه «جمهورية العمل» كعنوان فأعاد صياغتها بعنوان «العاهرة والتابع» التى تدور أحداثها حول شخصية روديوننيموف التى تمثل جانبا من سيرة حياة مؤلفها منذ اللحظة التى وصل فيها إلى المعسكر حتى وقت دخول المستشفى ، وتعالج هذه المسرحية البلطجة والفساد الذى يسود حياة السجون والمعسكرات الأمر الذى يؤدى إلى إعتلاء القمة أحط أنواع البشر ويستقر فى القاع أفضلها . وتروى لنا المسرحية قصة الغرام المتبادل بين بطلها نيموف وبطلتها ليوبا التى تحمل بين جنباتها قلبا زكيا طيبا

غير أنها تتحول إلى عاهرة بالرغم منها بسبب ظروفها القاهرة وتهديد طبيب المعسكر بالتنكيل بها . والجدير بالذكر أنها المرة الأولى التى يؤلف فيها سولجنتسين مسرحياته بأسلوب نثرى الأمر الذى منحه قدرا كبيرا من الحرية فى تناول موضوعاته لم توفره له صياغة المسرح الشعرية. وقرأ مؤلفنا فى يونيه ١٩٥٥ مسرحيته الأخيرة على كل من صديقه زوبوف وزوجته فكانا بذلك أو العارفين بوجودها .

وتعتبر فترة السجون والمعسكرات ثم المنفى فترة التدريب الأدبى الذى كان سولجنتسين فى أمس الحاجة إليه حتى يتمرس بالكتابة ويصل بها إلى درجة النضج والإتقان، فضلا عن أنها كانت بمثابة المطهر الذى ساعده على تنقية مشاعره وتهدئة عواطفه المكبوتة الهائجة حتى يصفو قلبه وعقله لمعالجة المواضيع الأدبية التى تستحق المعالجة . وفى خلال تجاربه الشعرية فى المسرح اهتدى مؤلفنا إلى لغة النثر والمواضيع والأشكال الروائية التى تناسب مواهبه . فلا غرو إذا رأيناه فى هذه الفترة ينتقل إلى التأليف الروائى ويسطر صفحات أولى رواياته ذات القيمة الأدبية وهى «الدائرة الأولى» .

وبعد وفاة ستالين تم القبض على بريا رئيس مخابراته ووزير داخليته وساعده الأيمن في التنكيل بالعباد . وبموت ستالين فقد جهاز مخابراته كثيرا من أمواله ومن سطوته، الأمر الذى ساعد على انتشار التذمر في صفوف المسجونين فطالبوا إدارة السجن بحقوقهم فاستجابت لكثير من مطالبهم. ومنها صرف أجور وليس كوبونات للسجناء نظير ما يقومون به من أعمال ، والسماح للأهالى بزيارة أقاربهم من المساجين ، وشاهدت الفترة التى أعقبت وفاة ستالين تحسنا ملحوظا في أحوال المنفيين المعيشية وخاصة بعد الزيارة التي قام بها فى عام ١٩٥٥ المستشار الألماني أديناور للاتحاد السوفييتى للاتفاق مع المسئولين السوفيت على إطلاق سراح كل الأسرى الألمان منذ الحرب العالمية الثانية. وفى ٩ سبتمبر من ذلك العام نفسه صدر أول عفو سياسى حقيقي وخطير الدلالة فتم العفو عن المساجين السياسيين الذين تزيد مدة الاحكام الصادرة ضدهم على عشرة أعوام ، فضلا عن خفض الأحكام بعشرين سنة إلى النصف . وكعادته اهتم مؤلفنا بمتابعة دقيقة لكل ما تنشره الصحف السوفيتية من

أنباء فهو أول من اكتشف فى منفاه نبأ العفو عن المساجين منشورا فى مكان غير بارز فى إحدى صفحات جريدة ازفستيا الداخلية دون غيرها من الصحف السوفيتية حتى لايلتفت إليه أحد وحتى يتابع الأخبار بصورة أدق اشترى سولجنتسين مذياعا ليستمع بانتظام شديد إلى محطة بى . بى . سى رغم أن السوفيت كانوا يقومون بالتشويش عليها .

وسعى زميلاه القديمان فى السجون والمعسكرات ديمترى بانين وليف كوبليف إلى معرفة عنوانه بهدف الكتابة إليه . وأرسلا إليه يستحثانه على أن يلتمس من السلطات الإفراج عنه ، ورغم قنوطه من هذا فقد فعل ما طلباه منه وفى أحد الأيام استمع من محطة الإذاعة البريطانية لأخطر نبأ أثر على حياته أثرا كبيرا ومباشرا . فقد وافته أخبار هذه الإذاعة بالخطبة التى ألقاها خروتشوف فى ٢٦ فبراير ١٩٥٦ أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى وهاجم فيها مبدأ عبادة الفرد وكشف عن جانب من الجرائم التى ارتكبها ستالين . ومنذ تلك اللحظة أدرك سولجنتسين أن سقوط ستالين عدوه سقوط لا رجعه فيه . وكتب سولجنتسين فى «أرخبيل الكولاج»

يقول في هذا الصدد «عرفت أن عدوى ستالين قد سقط الأمر الذى كان يعنى بداية الصعود بالنسبة لى» . وفى مارس ١٩٥٦ وقع مالم يكن فى حسبانه فقد استدعاه أحد رجال المخابرات وحاول تجنيده كجاسوس أو مخبر، وكما سبق أن حدث له حاول مؤلفنا أن يتنصل ويتهرب ولكن رجل المخابرات ألح عليه ، وفى احتجاجه ذكر سولجنتسين أن جهاز المخابرات السوفيتية المعروف باسم M.G.B قد انتهى إلى الأبد بسبب رياح التغيير الليبرالى التى هبت على النظام فشرح له رجل المخابرات أن جهازا جديدا للمخابرات يعرف باسم K.G.B قد حل محل الجهاز القديم المنحل ولغفلته لم يأخذ مؤلفنا هذه المعلومة مأخذ الجد. ولكنه أراد ألا يستثير غضب الرجل عليه فتعلل بسوء صحته فطلب منه رجل المخابرات أن يقدم إليه شهادة طبية بذلك ليرفعها لرؤسائه كى يبرر لهم فشله فى تجنيده .

ولم يمض شهر واحد حتى وصله خطاب فى ابريل ١٩٥٦ مفاده أنه أصبح حرا طليقا يحق له الذهاب إلى أى مكان يريد فقرر أن يختار موقعا هادئا فى قلب الريف الروسى

الجميل فى أواسط روسيا حيث يستطيع أن ينفرد بنفسه ويلعق جراحه ويواصل مهنة التدريس التى أحبها من سويداء قلبه . وتعين عليه البقاء فى كوك تيريك حتى نهاية العام الدراسى والانتهاء من أعمال التصحيح وفى ٢٠ يونية ١٩٥٦ استقل القطار المتجه إلى موسكو وأواسط روسيا . واستغرقت الرحلة أربعة أيام وبمجرد أن هبط من القطار ليقع نظره على جمال الريف الروسى الذى كان يحلم به هبت قبضة ريح فى وجهه وسالت على خديه الدموع .

سبحان مغير الأحوال :

فى الرابع والعشرين من شهر يونية عام ١٩٥٦ قابل سولجنتسين صديقيه القديمين بانين وكوبليف فى محطة القطار بموسكو . ولم يستطع الأصدقاء المجتمعون الاحتفال بهذه المناسبة السارة باحتساء الشراب، فقد كان سولجنتسين ممنوعا من شرب الخمر بسبب ظروفه الصحية، ولاحظ بانين وكوبليف أن صديقهما فقد كثيرا من وزنه وبدا عليه الشحوب ودهش مؤلفنا للتغير الكبير الذى طرأ على الجو العام وعلى الجرأة والجسارة التى أظهرها كوبليف وهو يتحدث عن

الأحوال السياسية فى البلاد وعبثا حاول الصديقان إقناعه بالبقاء فى موسكو فقد كره جلبة هذه العاصمة وضوضاءها وتردد على إدارات التربية والتعليم المختلفة يستفسر منها عن حاجتها إلى مدرس رياضيات فى إحدى المدارس بالقرى النائية . وبدا لهم هذا طلبا غريبا فقد تكالب جميع المدرسين على العمل بالمدارس الموجودة فى المدن الكبرى وأخبره صديقاه أن السلطات أعادت الاعتبار إلى كثير من المساجين السياسيين وألحا عليه أن يخاطب المسئولين بهذا الشأن ففعل هذا على مضض لعدم إيمانه بجدوى مثل هذا العمل . غير أنه دهش عندما استجاب له المسئولون وأبلغوه بضرورة توجهه إلى سجن لوبيانكا الشهير لمقابلة المحقق الجديد المسئول عن قضيته فى مكتبه . واستغرب مؤلفنا حين رأى هذا المحقق يخرج الملف الخاص به وهو يضحك من بعض النكات التى أطلقها عن ستالين فى ثنايا الخطابات التى أرسلها إلى صديقه نيكولاى ، بل إنه امتدح القصص التى ألفها أديبنا وهو على جبهة القتال . وهى القصص التى كانت من بين الأسباب التى أدت إلى الزج به فى غياهب السجون .

قال عنها المحقق الجديد : « لست أجد فيها أية اتجاهات معادية للسوفييت ويمكنك أن تسترجعها وتحاول نشرها » ولكنه رفض أن يأخذها معه قائلا إنه نبذ الأدب منذ فترة طويلة واحترف مهنة متواضعة هى تدريس الفيزياء .

وفى تلك الفترة سافرت نتاليا زوجة مؤلفنا السابقة لصاحبة بوريس الابن الثانى لزوجها فسفولود فى رحلة على نهر الدون والفولجا يممت فيها شطر العاصمة موسكو حيث اتصلت عند وصولها تليفونيا بصديقتها ايفجينيا زوجة بانين التى أخبرتها بوجود سولجنتسين هناك ورغبة زوجها السابق فى رؤيتها . فلم تمانع فى مقابلته على انفراد فى بيت عائلة بانين يوم ٢٦ يونيه ١٩٥٦ وسألها عن السبب الذى حدا بها إلى طلب الطلاق منه فارتبكت ولم تحر جوابا شافيا . ويبدو أنه أراد ألا تنقطع وشائج الود بينهما فسلمها نسخا من القصائد التى نظمها عنها فى سنوات المعسكر . وقام بزيارة قبر أمه وخاله رومان لكنه لم يعثر على قبر أبيه الذى تهدم واندثر بسبب الحرب . وسعى إلى مقابلة صديقيه القديمين نيكولاى وكيريل . كانت مقابلته مع نيكولاى غير ودية بالمرة

فقد بدا على نيكولاى البرم والغضب مما رآه تدخلا من جانبه فى حياته ، ورغم ما فعله سولجنتسين من أجله فقد اعتبره مسئولا عن النكبات التى حلت به . أما كيريل الذى أصبح جراحا ناجحا ومعروفا فقد رفض مقابلته ظنا منه أنه السبب فى توريطه مع المخابرات السوفيتية وهكذا صدم مؤلفنا فى صديقيه .

ومع بداية العام الدراسى الجديد جمع «سولجنتسين» متاعه القليل وتوجه فى سبتمبر ١٩٥٦ إلى مدينة تورفوربرودكت الصغيرة حيث تسلم فيها عمله كمدرس. ورغبة من جانبه فى أن يعيش فى جو ريفى تماما قرر أن يستقر فى قرية صغيرة مجاورة اسمها فيلتسبيفو لم يستطع أن يجد فيها سكنا واحدا خاليا ولكن أرملة تدعى ماتريونا زاخاروفا تعيش بمفردها ومعروفة بين أهل القرية بالقذارة وسوء الطبع قبلت أن تؤجر له جانبا من كوخها الذى راق له موقعه الجميل الذى ذكره بالريف الجميل الذى وصفه الشاعر ياسنين فى أشعاره . وفى مستقره الجديد أحس مؤلفنا بجو الحرية والانطلاق . فبعد أن يخلو إلى نفسه من مشاغل التدريس

ينكب على أشعاره ومسرحياته فى جو ريفى هادىء وخلاب ويبدأ فى تأليف رواية دون أن يضطره الخوف إلى إخفاء ما يكتب عن العيون المتلصصة ورغم أنه كان يعلم أن نشر ما يسطره من كتابات أمر مستحيل فإنه اختار لنفسه اسما مستعارا هو ستيفان كلينوف . ورغم كل ما عانى فى بيت ماتريونا من مضايقات مثل سوء الوجبات التى تقدمها إليه صاحبة البيت فقد مرت حياته هانئة لايعكر صفوها غير شعوره بالوحدة ورغبته فى أن يتمتع بالدفء المنبعث من جسد امرأة وعاوده شوقه إلى زوجته الأولى ناتاليا فأرسل إليها عنوانه الجديد لعلها تكتب إليه . ويبدو أن الأشعار التى نظمها عنها أثارت فيها الماضى وشجونه فبدأت تكابد الحنين إلى شخصيته الرومانسية القوية . كتب إليها ليعترف بأن عواطفه نحوها بدأت تتحدد واقترح عليها أن تقوم بزيارته حتى تستطيع أن تجدد عواطفها نحوه ، فاستجابت له ففى ١٩ أكتوبر ١٩٥٦ انتهزت نالتاليا فرصة غياب زوجها الجديد فى أورديسا فتركت ولديه فى رعاية والدتها وقامت سرا بزيارة مدينة تورفويرودكت . وهناك بدأت جذوة حبهما القديم

تتجدد ولم يمض وقت حتى استسلمت ناتاليا لأحضانه، وكأن أيام الفراق لم تكن وبات من الواضح أنهما لايستطيعان الاستغناء عن بعضهما البعض . وكشف سولجنتسين لناتاليا عن مرضه الذي قد يضع حدا لحياته في غضون أعوام قلائل فتعلقت به زوجته أكثر وأكثر وأطلعها على كتاباته وطلب إليها ألا تبوح بسرها مهما كلفها هذا من عنت ومشقة ، فوافقت دون أدنى تردد . وتصفحت قصاصات الورق التى بدأ عليها كتابة أولى رواياته «الدائرة الأولى» فأدركت على الفور أنها سوف تلعب الدور نفسه الذي تلعبه نادية في حياة زوجها جليب نرزين في هذا العمل الروائى . وتكررت زيارات ناتاليا له في السر وطلب إليها أن تبلغ زوجها الجديد برغبتها في الانفصال عنه ولكن قلبها لم يطاوعها . ولم يخف على زوجها الجديد أن تغيرا طرأ على موقفها منه ، فسعى ما وسعه السعى إلى التسرية عنها عن طريق الفسح والرحلات . ولكنه فشل في صرف إنتباهها عن زوجها القديم وعندما شعر فسفولود أن زوجته سوف تضيع منه اشتد تمسكه بها وقاوم فكرة الانفصال عنها وما يعنيه هذا الانفصال من خسارة

على ولديه اللذين وجدا فى ناتاليا ما يعوضهما عن أمهما .
غير أن سولجنتسين فى أثرته وأنانيته لم يلق بالا لهذه النقطة.
ولكنه أدرك فيما بعد أنه أخطأ فى حق هذين الولدين ، وبعد
لأى وخلافات حادة فى وجهات النظر اتفق فسفولود وناتاليا
على الطلاق وفى فبراير ١٩٥٧ قام سولجنتسين بإعادة
تسجيل زواجه من مطلقته .

كان سولجنتسين قد تلقى ردا من المسئولين باتخاذ
الإجراءات اللازمة نحو إعادة الاعتبار إليه . فى ٦ فبراير
١٩٥٧ عقدت محكمة عسكرية جلسة وأعادت فحص الظروف
التى ألقى فيها القبض عليه وطالب المدعى العام العسكرى
بتبرئته وإسقاط التهم الموجهة ضده . وتضافر زملاء
سولجنتسين فى الجيش وزوجته ناتاليا وأصدقاؤه فى الإدلاء
بشهادات فى صالحه . وعدد المدعى العسكرى الأسباب التى
تدعو إلى إلغاء الأحكام الصادرة ضد سولجنتسين فقال :
«يتضح من الأدلة الواردة فى هذه القضية أن سولجنتسين
رغم أنه تحدث فى مفكرته وخطاباته التى أرسلها إلى صديقه
ن . د. فيتيكفتش عن صحة وسلامة الماركسية – اللينينية

وتقدميه الثورة الاشتراكية في بلادنا وحتمية انتصارها فى كل أنحاء العالم ، فقد تحدث أيضا بصراحة ضد شخصية ستالين وكتب عن العيوب الفنية والأيديولوجية التى تشوب أعمال كثير من المؤلفين السوفيت وافتقارها إلى الواقعية . وكتب أيضا يقول إن أعمالنا الأدبية تخفق فى أن تعطى القراء فى العالم البورجوازى شرحا شاملا ومتنوعا بما فيه الكفاية لحتمية انتصار الجيش والشعب السوفيتى وأن أعمالنا الأدبية ليست على المستوى الملائم القادر على الرد على التشهير الذى يوجهه العالم البورجوازى بدهاء وذكاء ضد بلادنا» .

وهكذا برأت المحكمة سولجنتسين من كل الاتهامات التى سبق إلصاقها به . وأثلج صدر مؤلفنا إعلان المحكمة أنه مواطن سوفيتى لاريب فى مواطنته .

(والجدير بالذكر أن مؤلفنا فى تلك الفترة لاحظ أن عائلة ماتريونا تصرفت بمنتهى الأثرة والأنانية عندما تصارعت بلا هوادة حول الاستحواذ على متاع ماتريونا القليل ، وهو ما أوحى إليه بكتابة قصته القصيرة المعروفة بعنوان «بيت

مـاتريونا») وفـيـمـا يلى نص قـرار إعـادة الاعـتـبـار إلى سولجنتسين :

بداية الطريق إلى النشر :

في خريف عام ١٩٦٠ أكمل سولجنتسين قصته «ماتريونا زاخاروفا» التى تـأثر فيـها تأثراً واضحاً بتولستوى . وتصور هذه القصة من خلال شخصية ماتريونا بؤس الفقراء والمعوزين وافتئات البيروقراطية السوفيتية على حقوقهم التى يكفلها القانون فضلا عن أن القصة تتضمن جانبا دينياً مسيحياً على نحو غير مباشر . وبعدها عكف أديبنا على تأليف مسرحية بعنوان «النور الذى فيك» تتناول عودة اثنين من العلماء بعد غيبة طويلة فى السجون والمعسكرات بسبب إلصاق الاتهامات الزائفة بهما إلى الحياة المدنية العادية . ورغم حياة العزلة التى فرضها سولجنتسين على نفسه فى ريازان فقد توطدت علاقته برجل يهودى اسمه فينامين توش وزوجته اليهودية سوزانا توش اللذين تخصصا فى الرياضيات، وزاملا ناتاليا فى المعهد الزراعى . كان فينامين يحب الموسيقى من قلبه ويهتم بالفنون والعمارة والتاريخ

والدين ، الأمر الذى جعله يؤلف كتباً عن الموسيقى وتشيكوف وتاريخ الشعب اليهودى وأظهرت زوجته اهتماماً بالفنون المرئية بوجه خاص ، والذى لا شك فيه أن عشق فينامين للأدب هو الذى جذب سولجنتسين إليه وجعله موضع ثقته كما جعله يعرض عليه كتاباته وهو الدور نفسه الذى كان زميله نيكولاى زوبوف يضطلع به من قبل.

وعلى الرغم من اتجاه الاتحاد السوفيتى الواضح نحو الليبرالية بعد موت ستالين ومن إعادة الاعتبار لعدد كبير من الأدباء المغضوب عليهم بعد أن وافتهم المنية مثل بابل ويلجاكوف وفوكواستوف وإيفان كاتاييف وإعادة الإعتبار لكل من أوليشا وزابولوتسكى والسماح لباسترناك وأنا أخماتوفا وزوتشنكو بنشر كتاباتهم ، ورغم هجوم شولوخوف على الإجراءات القمعية التى اتخذها ألكسندر فادييف ضد الأدباء ، فإن الشك ظل يراود سولجنتسين فى صدق هذه الليبرالية ، ولا غرو فقد كانت السماحة الفكرية والأدبية عقب وفاة ستالين تصفو أحيانا وتتلبد بالغيوم أحيانا أخرى ، فبقدر ما كانت هناك اتجاهات ليبرالية واضحة كانت هناك مؤشرات نحو

العودة إلى الدكتاتورية الستالينية .

ومن المظاهر الواضحة للاتجاه نحو الليبرالية أن مجلة موسكو الأدبية حينذاك نشرت أعمال باسترناك وأخماتوفا وتسفتيفا ، كما أن مجلة «العالم الجديد» نشرت على صفحاتها سلسلة رواية فلاديمير دادينستيف المعروفة «ليس بالخبز وحده»، ومن مظاهر الليبرالية أيضا ذلك الهجوم العنيف الذى شنه خروتشوف عام ١٩٥٦ على الديكتاتورية الستالينية ومبدأ عبادة الفرد . غير أن خروتشوف ما لبث أن ألقى عام ١٩٥٧ خطاباً يدعو فيه إلى التشدد وينذر بالعودة إلى الوراء بعنوان «نحو ارتباط وثيق بين الأدب والفن وحياة الناس» ذهب فيه إلى أن الفن والأدب جزء لا يتجزأ من سعى الدولة وكفاحها من أجل إقامة نظام شيوعي ، كما ارتفعت آنذاك اسهم الروائى الستاليني المتصلب فسفولود كوتشيتوف الذى عين رئيساً لتحرير الجازيت الأدبى وصاحب رواية «الأخوة إرشوف»، ورغم أن باسترناك تجنب فى كتاباته الخوض فى الموضوعات الشائكة مثل محاكم التطهير ومعسكرات العمل والمزارع الجماعية فإن السلطات السوفيتية

قلبت له ظهر المجن ، الأمر الذى روع كاتبنا وأفزعه لأن هذه الموضوعات الشائكة هى المحور الذى تدور حوله كتاباته ، ومن بشائر السماحة أن المؤتمر الثالث للكتاب السوفيت أظهر عند انعقاده فى مايو ١٩٥٩ اتجاها نحو الليبرالية وفى هذا العام نفسه امتدح خروتشوف نفسه بعض جوانب رواية «ليس بالخبز وحده» بعد أن هاجمها بضراوة فى العام السابق . وبعد الرعيل الأكبر من الأدباء الليبراليين أمثال اهرنبرج ويوستوفسكى وبانوفا وتفاردوفسكى وفكتور نكراسوف ظهرت، آنذاك، بتشجيع منهم كوكبة من الأدباء والشعراء الليبراليين الشبان أمثال يفتشكنو، تبعه جيل أصغر من الشعراء الشبان والشاعرات الشابات أمثال أندريه فوزنسنتكسى وبولات أوكودزافا وبلا أخمادو لينا، ومن الناثرين والقصاصين أمثال يورى كازاكوف ودانيل جرانين ويورى ناجيبين وفلاديمير تندرياكوف وأفيم دوروش وفلاديمير سولوخين وفلاديمير ماكسيموف الذين وجدوا من جبل الليبراليين الأكبر سناً العون والتشجيع على نشر أعمالهم.

ولكن اتساع رقعة الليبرالية على أيدى هؤلاء الأدباء لا

يعني بحال من الأحوال اختفاء الأدباء من أنصار الستالينية أمثال ليونيد سوبوليف وألكسندرر ديمشيتس وفلاديمير أرميلوف وكوتشيتوف الذى ألف رواية بعنوان «سكرتير اللجنة المحلية» هاجم فيها الشاعر يفتشنكو .

ولهذا اختلطت على سولجنتسين الأمور فلم يعرف أى طريق يسلك طريق الجسارة أم الحذر ، فالبلاد نهب مقسم بين دعاه التحرر ودعاة الانغلاق ولم ينتشله من حيرته سوى المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى المنعقد فى عام ١٩٦١ ، فقد واصل هذا المؤتمر سياسة الهجوم على ستالين دون لبس أو غموض ، وحزم مؤلفنا أمره عندما قرأ الخطاب الذى ألقاه تفاردوفسكى فى ذلك المؤتمر ليرفع فيه راية الحرية والليبرالية .

وفى عزلته فى الأقاليم أعاد سولجنتسين قراءة الخطب التى ألقيت فى المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى أكثر من مرة فوجدها تعبر عما يجيش فى صدره ويجول فى خاطره ، كما أن فيها صدى لما كتبه فى روايته التى تحمل عنوان « سب ٨٥٤» قبل أن يستبدل به عنوانا آخر هو «يوم

واحد فى حياة ايفان دينيسوفتش» كان سولجنتسين قد أعطى صديقه كوبلوف الذى يعيش فى موسكو نسخة من هذه الرواية فعرضها بدوره على نفر محدود من الناس الذين اثنوا عليها ثناء عاطرا بعد قراءتها وأرادوا لها الانتشار والذيوع باعتبارها وثيقة اجتماعية وسياسية بالغة الأهمية وتردد مؤلفنا فى عرضها للنشر فقد كان الفأر لا يزال يلعب فى عبه ، ولكن كوبلوف شجعه على عرضها على تفاردوفسكي الذى أعيدت إليه فى سنوات السماحة والانفراج رئاسة تحرير مجلة «العالم الجديد» بعد اقصائه عنها . وبالنظر إلى أن نوعاً من سوء التفاهم نشأ بين كوبلوف وتفاردوفسكى فقد اتفق كوبلوف مع زوجته على تسليم مخطوطة الرواية إليه. وفى ٤ نوفمبر ١٩٦١ استقل سولجنتسين القطار متوجها إلى موسكو حيث فضل ألا ينزل ضيفاً على أحد أقربائه كما كانت عادته بل استأجر غرفة فى فندق يطل على المعسكر الذى شاهد عذابه وعذاب زملائه كوبليف وبانين وايفاشوف موساتوف ، وكان حينذاك فى نحو الثالثة والأربعين من عمره..

الرواية على مكتب خروتشوف :

بعد أن وصلت بصعوبة نسخة من رواية «يوم فى حياة إيڤان دينيسوفتش» إلى يد ألكسندر تفاردوفسكى عام ١٩٦١، انتقلت إلى مكتب خروتشوف عن طريق سكرتيره الخاص، ثم عن طريق خروتشوف نفسه إلى أعضاء مجلس السوڤيت الأعلى، ولم يدر سولجنتسين فى عزلته الريفية عن العالم الخارجي أن كثيراً من الأدباء الآخرين فعلوا ما فعل وتناولوا تجاربهم فى السجون والمعسكرات فى كتاباتهم . مثل مذكرات أولجا أداموفا سليوزبرج، التى استعان بها مؤلفنا فيما بعد فى كتابه «أرخبيل الكولاج»، وكتابات كل من أفجينيا جنزبرج وديمترى فيتكوفسكى وفارلام شالاموف . وكان جهل السوڤيت بوجود مثل هذه الكتابات يرجع إلى أنها لم تر طريقها إلى النشر وظلت حبيسة الأدراج بسبب مؤامرات الصمت التى درجت دور النشر آنذاك على اتباعها . وكانت المشكلة التى تواجه «برزر» المحررة الصغيرة فى مجلة «العالم الجديد» التى تسلمت نسخة الرواية من زوجة كويلوف هى كيف تتخطى البيروقراطية واللوائح الداخلية التى تمنع ارسال

العمل الأدبى المقدم للنشر إلى رئيس التحرير مباشرة دون المرور على مساعديه وإبداء الرأى فيه . فلو أن واحدا من هؤلاء المساعدين قرأ الرواية واعترض على نشرها لنشأت تعقيدات إدارية ورقابية تحول دون ظهورها وخاصة لأن الجهات المسئولة عن النشر كانت أحيانا لا ترى أية غضاضة فى تسليم أى كتاب معروض للنشر إلى جهاز المخابرات ، مثلما فعل فاديم كوزڤنيتوف محرر «زنانسيا» مع الروائى الشهير فاسيلى جروسمان عندما أرسل نسخة من روايته إلى K.G.B التى أرغمت المؤلف على تسليم ما بحوزته من نسخ والآلة الكاتبة التى كتبها عليها ، ومن ثم كان شغل «برزر» الشاغل توصيل رواية «يوم فى حياة إيڤان دينيسوڤتش» إلى يد تفاردوفسكى رئيس التحرير مباشرة . وكانت إحدى العقبات التى جابهتها أن سولجنتسين نسخ روايته على الآلة الكاتبة بطريقة تعوق القراءة على الوجه والظهر فضلا عن أنه لم يترك بين السطر غير مسافة واحدة الأمر الذى اضطرها إلى إعادة نسخها بطريقة مقروءة ، أضف إلى ذلك أن اسم المؤلف المجهول لم يكن مكتوبا على

الرواية وقـامت «برزر» باسـتدعـاء كـويلوف وسـؤاله عن اسم مؤلفها فاخترع لها على التو من عنده اسم أ . ريازانسكى .

وفى حذر شديد أخذت المحررة الصغيرة برزر تتلمس طريقها، فذكرت على نحو عابر أمام رؤسائها المباشرين إذا كانوا يرغبون فى قراءة رواية عن معسكرات العمل فاشاحوا بأيديهم ووجوهم عنها إذا لم يروا فى اقتراحها غير المتاعب . وفى يوم من الأيام تغيب رئيسها المباشر نائب رئيس التحرير فأصبح من حقها أن تدخل إلى رئيس التحرير فاغتنمت هذه الفرصة وصعدت إلى مكتبه فى الدور الثالث ووضعت أمامه مخطوطتين بعنوان «صوفيا بتروفنا» التى ألفتها ليديا تشوكو فسكايا و «سب ٨٥٤» وهى العنوان الأصلى لرواية «يوم فى حياة إيڤان دينيسوفتش» وبعناية شديدة اختارت برزر كلماتها وهى تتحدث إلى رئيس التحرير لتقول له إن هذين العملين المقدمين للنشر يثيران النقاش والجدل فرواية «صوفيا بتروفنا» تتناول محاكمات عام ١٩٣٧ وما سببته من عذاب وشقاء لإحدى الأمهات .

فى حين أن رواية «سب ٨٥٤» تعالج موضوع السجون

والمعسكرات من وجه نظر فلاح بسيط وأضافت ، أنها تعبر عن أفكار ومشاعر الشعب الروسي . كانت مناورة حاذقة فعالة تتسم بدقة الحساب فقد كان حب تفاردوفسكى للريف وأهتمامه الشديد بالموضوعات التى تدور حوله معروفاً لدى العامة والخاصة، فعندما قرر تفاردوفسكي أن يأخذ معه إحدى هاتين المخطوطتين وقع اختياره على رواية سولجنتسين عن الفلاح الروسى . حدث هذا فى ٧ ديسمبر ١٩٦١.

كان من عادة تفاردوفسكي أن يطالع مخطوطات الكتب وهو يتأهب للنوم فى فراشه ، ولكنه فى هذه المرة لم يكد ينتهى من قراءة بعض صفحات رواية «سب ٨٥٤» حتى خرج على عادته ونهض من فراشه وارتدى ملابسه لينكب على قراءة الرواية بروح الجدية والاحتشاد ولم يتوقف حتى فرغ من قراءة الكتاب فى مطلع الفجر ، ومن فرط تأثره به شعر برغبة ملحه في الفضفضة عن نفسه واتصل بكوبلوف وأنحى عليه باللائمة لأنه لم يقم بعرض الرواية عليه مباشرة دون الالتجاء إلى برزر كوسيط بينهما قائلاً له : «ينبغى عليك أن تشعر بالفخر لأن لك مثل هذا الصديق إنه يملك موهبة عظيمة

مدهشة ونقية لا يشوبها أدنى زيف أو ادعاء» ويقال: إن الانفعال بلغ به حداً جعله يتوجه إلى مكتبه في المجلة ناسياً أنه يوم السبت وأنه لن يجد أحدا من زملائه ومعاونيه وبطبيعة الحال لم يجد برزر على مكتبها ففتح درجها في غيابها وأخذ منه النسخ الأربع المتبقية . ثم انطلق لا يلوى على شئ إلى منزل صديقه المثقف سيميون لونجين الذى كان يعيش مع الأديب المعروف فتكور نكراسوف تحت سقف واحد وهو يصرخ : «أن عبقرية جديدة قد ولدت ! هات زجاجة شراب يافكتور للاحتفال بهذه المناسبة» ، وأضاف أن أمل حياته أصبح ينحصر الآن في نشر هذه القصة وأنه من أجل ذلك على استعداد لمقابلة نيكيتا خروتشوف نفسه . وتعجب من الزعم بأن الأدب الروسي قد مات، فهذه القصة تثبت أنه لا يزال ينبض بالحياة ، ثم تحدث فيما بعد إلى الروائية فيرا بانوفا ليقول لها : «صدقى أو لا تصدقى إن معى مخطوطة تنبئ بظهور جوجول جديد » وأرسل تفاردوفسكى برقية إلى المؤلف يدعوه إلى زيارة موسكو على نفقة المجلة وإذا كان تفاردوفسكى لم يغمض له جفن ليلة أن قرأ الرواية فإن

مؤلفها لم يغمض له جفن يوم أن تلقى برقية تفاردوفسكى .
(بعد مضى ما يقرب من عام كتب سولجنتسين إلى تفاردوفسكى يعترف له بأنه لم يعرف فى حياته قط سعادة كسعادته عندما علم من الشاعر الكبير أنه لم يذق طعم النوم بسبب قصته) ، والرأى عند تفاردوفسكى أن رواية سولجنتسين تتفوق على رواية «بيت الموتى» لدستويفسكى وفيها يقدم دستويفسكي الشعب من وجهة نظر المثقفين فى حين أن سولجنتسين فى قصته يقدم لنا المثقفين من وجهه نظر الشعب . وعبر تفاردوفسكى عن إعجابه الشديد بقدرة القصة على أن تقول كل ما يمكن قوله عن السجون والمعسكرات فى مثل هذا الحيز الضيق الذى لا يعدو أن يكون وصفا ليوم واحد ممل ورتيب فى روتين حياة إيفان دينيسوفتش فى السجن دون الالتجاء إلى تصوير أية فظاعات مروعة .

وفى الاجتماع الذى عقدته هيئة تحرير مجلة «العالم الجديد» برئاسة رئيس تحريرها مع سولجنتسين وصديقه كويلوف قرر الحاضرون بالإجماع.أن «سب ٨٥٤» عنوان غير مناسب

واقترحوا تغييره إلى «يوام واحد فى حياة إيڤان دينيسوفتش» وفى ختام الاجتماع وقع تفاردوفسكى عقداً بنشرها وأعطى مؤلفها مقدما قدره ألف روبل وهو مبلغ كبير بالنسبة له يربو على راتب سنتين من مهنته بالتدريس ، ورغم توقيع العقد فإن تفاردوفسكى لم يستطع تحديد أى موعد للنشر ، وسلم معاونا رئيس التحرير إلى المؤلف التقريرين اللذين كتباهما عن روايته ، وورغم ثنائهما الشديد عليها واعترافهما بموهبة مؤلفها ونبوغه فإنهما عبرا عن الشك فى إمكانية نشرها لأسباب سياسية ووسأله تفاردوفسكى عن أية كتابات أخرى سطرها تصلح للنشر فى المجلة فتوخى الحذر الشديد فى إجابته وأخفى عنه من الكتابات ما قد يكون سببا في الحاق الضرر به ثم عرض عليه فى زيارته التالية لموسكو جانباً من أشعاره الباكرة التى نظمها فى السجن فلم ترق فى عينى الشاعر تفاردوفسكى ، كما عرض عليه قصته ماتريوتا

التى راقت له بسبب جوها الريفى رغم أنه اعترض على بعض جوانبها وذلك بعد آن آدخل المؤلف عليها بعض التعديلات لتخفيف وقع ما فيها من نقد . التى راقت له بسبب جوها الريفى رغم أنه اعترض على بعض جوانبها وذلك بعد أن أدخل المؤلف عليها بعض التعديلات لتخفيف وقع ما فيها من نقد .

وبمرور الوقت تخفف سولجنتسين من بعض مظاهر السرية التى أحاط بها مؤلفاته، غير أنه لم يتخل عن احتياطات الأمن تماماً ، فقد آثر أن يجمع مخطوطاته، وعددها أثنتا عشرة مخطوطة فى حقيبة حملها معه إلى موسكو ليسلمها إلى توش وزوجته اللذين كانا موضع ثقته ليبقياها لديهما فى الحفظ والصون، واعتبر أنها مناسبة سعيدة فسمح لنفسه بشراء حلة جديدة بدلاً من الرثة العتيقة التى تعمد أن يلبسها عندما زار مقرمجلة «العالم الجديد» لأول مرة فبدا كما لو كان يجد نوعا من الزهو والفخار فى مظهره الريفى الغليان. وفى يوم رأس سنة ١٩٦٢ قام سولجنتسين بزيارة صديقه الرسام إيفاشوف فوجد أنه لايزال

مشغولا برسم لوحة «عطيل وديدمونة» رغم مرور ست سنوات على البدء فيها وتعجب سولجنتسين كيف ينصرف فنان عن تصوير ما يقع تحت أنفه من مآس جماعية إلي تصوير ما يحل على أبطال وبطلات شكسبير من مواجع فردية.

اعترض تفاردوفسكى على قصته ماتربونا لأنها تتضمن نقداً للحياة السوفيتية آكثر بكثير مما تتضمنه قصة «يوم فى حياة إيفان دينبسوفتش» التى تعالج فترة الأربعينيات المعروفة بالبطش الستالينى والمقترنة بالسجون والمعسكرات، في حين أن قصة ماتربونا تقع أحداثها نحو عام ١٩٥٦ وهى فترة السماحة والانفراج. ورغم هذا فهى تعطى الانطباع بأن الريف السوفيتى فاسد من أوله إلى آخره لارجاء فيه وتسيطر عليه الأثرة والأنانية والرغبة فى النهب والسلب، الأمر الذى ينسف النظام السوفيتي من أساسه. واعترض تفاردوفسكى أيضاً على وجود ايماءات مسيحية فى قصته ماتربونا تجعلها غير قابلة للنشر ومن الواضح أن تفاردوفسكى كان نهبا مقسما بين اعجابه بقصة ماتربونا كعمل أدبى وتخوفه منها لأسباب سياسية وعقائدية. امتدحها لواقعيتها وتأثرها

بتولستوى غير أنه رأى أنها أقرب إلى الواقعية التحليلية التى سادت روسيا فى القرن التاسع عشر منها إلى الواقعية الاشتراكية التى دعا إليها النظام السوفيتى، ورغم إدراك تفاردوفسكى ميل مؤلفنا إلى الخروج عن الخط السوفيتى التقليدى، فقد شجعه على عدم الالتزام به.. وفى نهاية الأمر رفض تفاردوفسكى نشر ماتريونا لأسباب أيديولوجية ولكنه طلب استبقاء مخطوطتها معه لعرضها على زملائه فى هيئة تحرير المجلة، وبهذا وجد سولجنتسين نفسه فى موقف غريب فكتاباته رغم كل ما نالته من تقريظ موقوفة فى واقع الأمر عن النشر .. وحتى لا يضيع وقته سدى عاد سولجنتسين إلى عزلته ليكرس وقته للانتهاء من إعادة صياغة روايته «الدائرة الأولى» للمرة الرابعة راجيا أن تكون آخر صياغة لها. وفى تلك الفترة فوجئ مؤلفنا بزيارة مفاجئة من سيدة لا يعرفها ولا يعرف كيف حصلت على عنوانه ، هى طبيبة جراحة أسمها دكتورة أنا دزيجوردا كان ولدها مصابا بمرض السرطان. جابت هذه الأم أرجاء البلاد بحثا عن علاج لابنها من السرطان. وأعطاها سولجنتسين بعض الأعشاب

والنباتات الطبيعية التى كانت يستخدمها لعلاج نفسه من ذلك المرض وإعرابا عن امتنانها له عرضت هذه الجراحة أن تكشف عليه. وبعد آن فرغت من ذلك التفتت إليه لتقول إنه رجل محظوظ منذ ولادته فقد اكتشفت أن ورمه السرطانى انفصل تماماً عن بقية جسمعه وضمر ضموراً كاملا لدرجة أن الخطر زال عنه، ولم ينس مؤلفنا أن يرسم شخصية جيولوجى شاب على غرار ابن الدكتورة دزيجوردا فى روايته «عنبر السرطان».

ورغم انقضاء أربعة أشهر على تسليم مخطوطة قصة «يوم واحد فى حياة إيفان دينيسوفتش» فقد ظل تفاردوفسكى حائراً عن أن يحدد لمؤلفها موعداً للنشر فهو يعلم جيداً أنه إذا دفع بالكتاب للمطبعة فسوف يعرض على الرقيب الذى لن يتردد فى حظره. بل من المحتمل أن يقوم الرقيب نفسه بعرضه على اللجنة المركزية للحزب الشيوعى أو على جهاز المخابرات K.G.B، وفى هذا قضاء مبره على فرص الكتاب فى الظهور وساعده على حسن التقدير وحصافة التصرف معرفته بطبيعة الصراعات المحتدمة آنذاك بين خروتشوف

وأعدائه من المحافظين وأنصار ستالين. كان خروتشوف يعتمد في إصلاحاته على بعض المثقفين وعلى رأسهم تفاردوفسكي الذي لم يكن شاعراً فحسب بل عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وأدرك هذا الرجل بحسه السياسي وبفضل موقعه في الحزب أن لخروتشوف أعداءه الأقوياء ومن ثم خطر له أنه يمكن إقناع خروتشوف بأهمية الرواية كسلاح ماض يرد به كيدهم ولهذا قرر أن يكتب تصديراً يقدم فيه الرواية على أنها تدعيم لتيار الإصلاحات الذي يتزعمه خروتشوف.. عرض الرواية على صديقه الناقد الأدبي البارز وكاتب أدب الأطفال المعروف كورني تشوكوفسكي الذي هنأه على هذه الموهبة الأدبية الفذة وكتب تشوكوفسكي تقريراً بعنوان «معجزة أدبية» قرظ فيه الرواية لقدرتها على التعبير عن الشعب الروسي بأكمله كما قرظ فيها تميزها بضبط النفس رغم موضوعها الذي يفجر مراجل الغضب في العروق. الأمر الذي جعله يصف مؤلفنا بأنه مؤرخ وليس مقاتلا بالكلمات وأضاف تشوكوفسكي في تقريره: «هذه القصة تكشف عن قدوم كاتب قوي أصيل ناضج في أدبنا.. وفي كل المناظر التي

يصورها يختار المؤلف لنفسه أوعر الطرق وأصعبها ليخرج منها ظافراً منتصراً».. وحذر من أن أية محاولة تغيير في النص أو إدخال التعديلات عليه سوف تنتهى بإضعافه والإساءة إليه، ورغم ما قد يبدو على أسلوبها أحيانا من غرابة وشذوذ فلا مناص من الاعتراف بأن صاحبها يتمكن من ناصية اللغة الروسية على نحو لا يرقى إليه الشك. ورأى في عدم نشر هذا الكتاب شيئاً مروعاً فصاحبه كرسه من ألفه إلى يائه لتمجيد الإنسان الروسى وتبيان عظمته، كان فى ذهن تشوكوفسكى وهو يكتب التقرير ضرورة مؤازرة صديقه تفاردوفسكى ضد الرقابة والأدباء المعترضين على نشر الكتاب.

وشجع هذا التقرير تفاردوفسكى على آن يستكتب أصدقاءه من الأدباء تقارير مماثلة تشد من أزره فى معركته من أجل نشر الكتاب مثل مارشال وميخائيل ليفشتز اللذين ناديا دون مواربة أو تحفظ بضرورة نشره. ولكن الكاتبين المعروفين اهرنبرج وفيدين امتنعا عن كتابة أية تقارير عن الرواية. ولم يفت فى عضد تفاردوفسكى أن فيدين أسر إليه

بأنها لم ترى النور وأنه يخوض معركة خاسرة وآخفى عن المؤلف كل التقارير التى تلتهب بالحماس لنشر كتابة خشية أن يلعب الغرور برأسه. والواقع أن الرواية ذاع أمرها حتى وهى مخطوطة وساعد على ذلك أن أربعة من الكاتبين على الآلة الكاتبة توفروا على نسخها وتوزيعها سراً. ويقال إن اهرنبرج نفسه نسخ منها صورة فوتوغرافية ليقرأها واحد من أصدقائه ، وتضايق سولجنتسين من النقد الذى وجهه إليه بعض القراء وهو أنه كان يجدر به أن يعرض حياة السجون والمعسكرات من وجهة نظر واحد من المثقفين وليس من وجهة نظر فلاح بسيط وليس هناك رد على ذلك أقوى من القول إن مؤلفنا استطاع عن طريق الفلاح البسيط شوخوف أن يعبر عن محنة روسيا السوفيتية كلها وليس محنة احدى الطبقات فيها.

ثم قام سولجنتسين مع زوجته بعد ذلك بزيارة سيبيريا لأول مرة ورؤية بعض مناظرها الطبيعية فانبهر لجمالها وانبهر بوجه خاص بروعة وجمال بحيرة بايكال الواسعة ، وبلغه أثناء تجوله وسياحته أن برقية وصلته من تفاردوفسكى

تطلب منه ضرورة التوجه على الفور إلى مقر مجلة العالم الجديد. وقرأ مؤلفنا نص البرقية فوجده كما يلي: «أخبرنا تلغرافيا حالا بفرصتك فى القيام بزيارة قصيرة إلى موسكو لإعادة إعداد المخطوطة للمطبعة» ورغم أنه كان يتوق إلى إستكمال رحلته وزيارة بعض الأماكن الأخرى فإنه قرر العودة إلى موسكو دون أدنى تأخير، وعند عودته من سيبريا قابله صديقه كوبلوف ليقول له إنه أصبح الآن أكثر الرجال شعبية فى موسكو ونقل إليه تقريظ الأدباء والنقاد لروايته وكيف أن مئات من نسخ المخطوطة انتشرت بين القراء انتشار النار فى الهشيم وعندما قابلته أنا برزر المحررة فى «المجلة الجديدة» أخبرته أن سكرتير خروتشوف الخاص قرأ روايته «إيفان دينيسوفش» وأعجب بها وأنه يزمع عرضها على خروتشوف نفسه ولكنه قبل أن يفعل هذا أراد من المؤلف الحضور من سيبيريا لعمل بعض التغييرات فى روايته.

وعقدت هيئة تحرير المجلة اجتماعاً يوم ٢٣ يوليو ١٩٦٢ لمناقشة التغييرات المقترحة وصرح له تفاردوفسكى أن بعض زملائه كتبوا خطاباً إلى خروتشوف يعبرون فيه عن إجماع

هيئة تحرير المجلة على نشر رواية «إيفان دينيسوفش» وأنهم يتوجهون بالرجاء إلى خروتشوف كى يهتم اهتماماً شخصياً بهذا الموضوع، وفضل تفاردوفسكى وزملاؤه الاتصال بخروتشوف عن طريق سكرتيره نظراً لأنهم اعتبروه حليفا لهم بسبب شدة تحمسه لنشر الرواية وطرح تفاردوفسكى على بساط البحث والنقاش التغييرات التى اقترحها سكرتير خروتشوف على المؤلف، أهمها أن يتجنب المؤلف السخرية من شخصية الكابتن بوتيوفسكى القائد فى البحرية وعضو الحزب الشيوعى السابق والتقليل من استعمال اللغة العامية السوقية التى يستخدمها المساجين ونزلاء المعسكرات، وكذلك التقليل من الإشارات المتكررة لضباط المعسكرات على أنهم «واغش». وطلب أيضاً منه سكرتير خروتشوف الخاص إدانة ولو عابرة ورمزية لدعاة القومية الأوكرانية. وأن يذكر فى روايته أن ستالين مسئول عن كل ما تتضمنه هذه الرواية من جرائم. بالإضافة إلى ذلك طالب ديمنتييف عضو هيئة تحرير المجلة بحذف الحديث الذى دار بين شوكوف الشخصية المحورية فى الرواية وبين أليوشا المعمدانى حول الذات الإلهية. وتصف

ناتاليا زوجته رد فعله فى هذا الشأن فتقول إنه قال للمجتمعين: «لن أوافق على إجراء أية تغييرات من شأنها أن تدمر تناسق قصتى وانسجامها أو تخالف ضميرى». فتدخل تفاردوفسكى قائلا: «ليس لزاماً عليك أن تفعل أى شئ بالمرة. فيمكنك أن تأخذ كل ما قيل اليوم أو تركه حسبما تراه مناسبا. المسألة وما فيها أننا جميعاً نرغب بشدة أن نرى المخطوطة منشورة». أحرجت هذه الكلمات صدور الحاضرين فالتزموا الصمت وفى نهاية الأمر وافق المؤلف على أن يحمل مخطوطته معه وأن يجرى عليها التعديلات التى طلبها سكرتير خروتشوف الخاص ومنها إشارة عابرة تسخر من ستالين على غرار ما كان يكتب من جبهة القتال إلى صديقه نيكولاى فيتكفتش، واستطاع فى خلال ثلاثة أيام من الانتهاء من التعديلات المطلوبة وسلم المخطوطة بعد مراجعتها إلى أنا برزر فى ٢٦ يوليو ١٩٦٢.

احتفظ مؤلفنا بتواضعه رغم المديح الذي كيل له وبدا على السطح هادئاً للغاية رغم كل ما يتعمل بداخله من انفعالات وأعطاه تفاردوفسكى المقدمة التى يزمع نشرها فى صدر

الرواية فلم يرتح إليها فقد كان يفضل ظهور روايته بلا مقدمات حتى يستجيب القارئ لها بعيداً عن آية مؤثرات. ويعتبر ٦ أغسطس ١٩٦٢ يوما حاسماً فى تحديد مصير الكتاب ففى ذلك اليوم قام تفاردوفسكى بإرسال النسخة المعدلة إلى سكرتير خروتشوف الخاص وأرفق بها خطاباً موجها إلى خروتشوف ومعه طائفة مختارة من آراء النقاد فيها وانتظر نحو شهر بأكمله دون أية بادرة سوى أن ديمترى بوليكاربوف اتصل تليفونيا بتفاردوفسكى وطلب منه نسخة من الرواية. وتضايق تفاردوفسكى لأن الأمل كان يحدو به أن يتجنب اللجوء إلى هذا الرجل لما عرف عنه من رجعية. ولكن يبدو أن سمعة الرواية التى جابت الآفاق جعلت فى غير رمكان بوليكاربوف الحيلولة دون نشرها ولعل هذا السبب فى أنه اتصل بتفاردوفسكى ليبلغه أنه ليس لديه أى مانع فى نشر الرواية. وذات يوم كان سكرتير خروتشوف الخاص يتجاذب أطراف الحديث مع سيركوف فى حضرة خروتشوف نفسه عن قصة «إيفان دينيسوفتش» فاستفسر خروتشوف مازحا: «ما هذا الذى تتحدثان عنه؟ ماذا تخبئان عنى؟»

فأخبره سكرتيره الخاص بأمر الكتاب فأمر بأن يرى نسخة منه مما اضطره إلى السفر إلى موسكو كي يحضر له النسخة المطلوبة. وطلب خروتشوف منه أن يقرأ عليه بصوت عال بعض أجزاء الرواية ففعل. وتعمد السكرتير الخاص أن يختار منها تلك المواقف الإيجابية التى تصف المساجين وهم يبنون بسواعدهم محطة لتوليد الطاقة وتساءل خروتشوف ما دام الأمر كذلك لماذا لم يقم تفاردوفسكى بكل بساطة بنشرها؟ فأجاب سكرتيره الخاص: إن تفاردوفسكى نفسه تعرض لمتاعب ومضايقات كثيرة قبل أن يتمكن من نشر قصيدته «الآفاق البعيدة» قال خروتشوف إنه لا يمانع مطلقا فى نشر رواية سولجنتسين واستقبلت محررة المجلة أنا برزر هذا الخبر بالفرحة والابتهاج. ولكن لم تصل إلى المجلة أية موافقة رسمية على النشر من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى التى طلبت من تفاردوفسكى يوم ٢١ سبتمبر ١٩٦٢ أن يقوم بإرسال ثلاثة وعشرين نسخة من الرواية فى صبيحة اليوم التالى. وأسقط فى يد تفاردوفسكى لأنه لم يكن يملك كل هذا العدد الكبير من النسخ وللخروج من هذه الورطة التى

واجهته، هداه تفكيره إلى الاتصال بمطابع جريدة أزفستيا لتخصيص أربع آلات طباعة وتجنيد عدد كبير من المطبعجية لطباعة خمس وعشرين نسخة من الرواية. وبطبيعة الحال ساعد على إنجاز هذه المهمة بنجاح صغر حجمها. وصدرت الأوامر لعمال المطبعة بالتزام الصمت إزاء العمل طوال الليل على جمع الكتاب وطباعته فما أن جاء الصباح حتى كانت الخمس وعشرون نسخة المطلوبة مطبوعة ومجلدة واحتفظت إدارة المطبعة بقوالب الحروف المجموعة فى خزانتها الحديدية وأرسل تفاردوفسكى الثلاث والعشرين نسخة المطلوبة إلى اللجنة المركزية واستبقى نسختين أعطى واحدة منهما لسولجنتسين. وأصدر خروتشوف أمراً بتوزيع هذه النسخ على أعضاء مجلس السوفيت الأعلى.

وفى الأرياف فى ريازان شعر المؤلف بالقلق يستبد به على مصير كتابه فاتصل بالمحررة أنا بررز بالتليفون ليسألها عن آخر الأخبار. وسألها سؤال محدداً «خبرينى بشئ واحد. هل قرأها؟»، «يعنى خروتشوف» فأجابته بقوله: نعم واستحسنها» فسافر إليها من موسكو ليستطلع جلية الأمر فأخبرته بكافة

تفاصيل الأحداث المشحونة. واجتمع مجلس السوفيت الأعلى مرة واحدة على أقل تقدير لمناقشة الكتاب. وسرت إشاعة أن اثنين من الأعضاء هما فرول كوزلوف وميخائيل سوسلوف اعترضا على نشره بحجة أنه لا يليق بالمؤلف أن يصور حراس المعسكر على هذا النحو المزرى. وأشيع أيضا أن خرتشوف تدخل بنفسه لإسكاتهما قائلا لهما: كيف يمكننا أن نحارب بقايا مبدأ عبادة الفرد لو ظل الستالينيون من هذا القبيل بين ظهرانينا؟» وأردف قائلا: «إن ستالين موجود فى كل واحد فينا. وهناك شئ من ستالين حتى فى أنا شخصياً وإننا يجب علينا استئصال هذا الشر»، وقيل إن الذى اقترح نشر الكتاب على مجلس السوفيت الأعلى هو خروتشوف نفسه يؤيده ميكويان.

وبتاريخ ١٥ أكتوبر ١٩٦٢ قام سكرتير خروتشوف الخاص بتبليغ تفاردوفسكى بموافقة مجلس السوفيت على النشر. غير أنه لم يتسلم القرار بالموافقة ألا بعد مضى خمسة أيام. ثم استدعى خروتشوف الشاعر تفاردوفسكى واجتمع به نحو ساعتين يناقش الرواية التى أثنى عليها الزعيم السوفيتى

لأسلوبها ولأنها تتمشى مع روح المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى. وعلى رغبة البعض أن يرسم المؤلف صورة أفضل للمعسكرات اعترض الزعيم السوفيتى بقوله: «إن هذه المعسكرات لم تكن مطلقا منتجعات وأماكن للراحة والاستجمام». ورأى خروتشوف أن الأسلوب الذى عرض به الكتاب عليه أسلوب غريبا حقاً. وتساءل عن وظيفة أجهزة الدولة واغتنم تفاردوفسكى هذه الفرصة ليطلب من خروتشوف إلغاء الرقابة على المصنفات الأدبية والاكتفاء بمسئولية رؤساء التحرير في هذا الشأن فهم أقدر من الرقباء فى الحكم على الأدب الضار والأدب النافع ويبدو أن خروتشوف تعاطف معه..

وبعد اجتماعه مع خروتشوف أرسل تفاردوفسكي برقية إلى سولجنتسين فى ريازان جاء فيها: «سوف تظهر القصة فى عدد الحادى عشر من المجلة فتهنئتى» فرد عليه سولجنتسين ببرقية يعبر فيها عن شكره وابتهاجه بعد طول اليأس من صدورها. ويبدو أن الاتجاه آنذاك نحو الليبرالية استطاع أن ينتصر على الدعوة إلى الشمولية الستالينية

والانغلاق. ففى ٢١ أكتوبر ١٩٦٢ نشرت جريدة الدولة الرسمية برافدا قصيدة بعنوان «ورثة ستالين» التى نظمها الشاعر المعروف يفتشتكو وحذر فيها من أن أنصار ستالين يتربصون بالشعب السوفيتى الدوائر ويريدون العودة بعقارب الساعة إلى الوراء، وهى قصيدة تداولها الروس فيما بينهم وحفظوها عن ظهر قلب حتى قبل أن تقوم برافدا بنشرها.

وبعد مرور أسبوع استدعى سولجنتسين إلى موسكو لتصحيح البروفة النهائية لقصته «إيفان دينيسوفش» كان من المفترض أن يتولى تصحيح البروفات الأولى التى تعرف عندنا بالخشن، ولكن المسئولين عن النشر خشوا عرضها عليه لئلا يتراجع فى إجراء بعض التغييرات التى أجراها فى النص. وكان قد انتهى لتوه من تأليف قصة جديدة بعنوان «حادثة فى محطة كوتشيتوفا» استمدها عن قصة حقيقية رواها ليونيد فلاسوف تدور أحداثها حول ضابط روسى شاءت الظروف أن ينجو بنفسه مع مئات الجنود من تطويق القوات النازية لهم وبدلا من استفادة الجيش الأحمر من قدراته القتالية ساور قائده الشك فيه وظن أنه جاسوس، لا لشئ إلا أنه مهذب

ودمث الخلق للغاية على النحو الذى كان عليه الضباط الروس قبل الثورة البلشفيه، ولأن لسانه زلف فسمى مدينة ستالنجراد باسمها القديم وهى مدينة القيصر. ويسخر سولجنتسين فى هذه القصة من نفسه ومن سذاجته وإخلاصه ومثاليته وولائه الأعمى للدولة السوفيتية أيام انخراطه فى شبابه فى صفوف الجيش للذود عن البلاد. وتصور «حادثة فى محطة كوتشيتوفا» فى ثراء واتقان - يفوقان ما سبق للمؤلف أن سطره فى مسرحياته الباكرة- الدور الفاشل الذى لعبه ستالين فى إدارة المعارك فى الفترة الأولى من الحرب كما تصور عدم اكتراث الفلاحين الروس بنتيجة الحرب سواء كانت لصالح بلدهم أو لغير صالحها.

وبعد مرور عامٍ كامل على أول زيارة قام بها سولجنتسين لمقر مجلة العالم الجديد تحسنت ظروف معيشته بشكل ملحوظ فقد نزل هذه المرة فى فندق فخيم فى وسط موسكو على نفقة المجلة، ولم يقابل مؤلفنا تفاردروفسكى فى هذه الزيارة غير أن أحد المسئولين بالمجلة اسمه بوريس ساش أبلغه أن سكرتير خروتشوف الخاص يطلب منه إجراء تعديل

أخير في الرواية وهو أن يذيل عبارة دينية وردت على لسان تيورين قائد الفرقة الذى قال: «رسمت إشارة الصليب، وقلت لله: أيها الخالق أنت فى نهاية الأمر موجود فى السماء. إنك تمهل ولا تهمل». وشعر المؤلف بالحرج الشديد فهو يدين بالفضل لسكرتير خروتشوف الخاص الذى لولا دفاعه المتحمس للرواية لما كانت هناك بارقة أمل فى نشرها ولكن ما عساه أن يفعل وهو يعتبر شخصية تيورين شخصية شديدة الأهمية فى الرواية أراد من خلالها معارضة وتفنيذ الصورة الرسمية الكاذبة للنظام السوفيتى. ولم يطاوعه قلبه أن يجرى هذا التغيير الأخير فقد استرجع فى مخيلته ذكريات السجون والمعسكرات التى يشيب لها الولدان، والأهوال التى لقيها زملاؤه منها وشعر أن فى إجراء هذا التغيير خيانة لهم وغدراً بهم لأنهم تحملوا هذه الأهوال على أمل أن تظهر الحقيقة أمام العالم فى نهاية المطاف. وبسبب انفعاله الشديد بكى سولجنتسين لأول مرة وهو يطالع قصته وأدرك أنه ليس بإمكانه أن يستجيب لطلب سكرتير خروتشوف الخاص هذه المرة.

وأثناء هذه الزيارة القصيرة لموسكو قابل مؤلفنا شخصيتين أدبيتين مهمتين هما أنا أخماتوفا وفارلام شالاموف، تمت المقابلة بينه وبين أنا أخماتوفا فى ٢٨ أكتوبر ١٩٦٢، وابتهجت الشاعرة الكبيرة عندما اكتشفت أنه يحفظ قصيدة «دون بطل» عن ظهر قلب واعترف لها أنه وجدها غامضة ومستعصية على الفهم في بادئ الأمر. وقرأت في حضرته بعض قصائدها فامتدح وطنيتها وسماها «روح روسيا» ثم قرأ لها جانبا من أشعاره غير أن هذه الأشعار لم ترق لها وأسرت لبعض خلصائها بذلك. غير أن موقفها من روايته «إيفان دينيسوفتش» كان شيئاً مختلفاً للغاية فبعد أن قرأتها فى نسخة مهربة من المخطوطة الأصلية قالت: «أظن أنه ينبغي على كل واحد من المائتي مليون مواطن سوفيتى أن يقرأ هذه القصة ويحفظها عن ظهر قلب» وعبرت أخماتوفا عن سرورها للتعرف إليه ووصفته بأنه حامل شعلة مضيئة. وسألته إذا كان يدرك أنه سوف يصبح فى غضون شهر واحد أشهر رجل على سطح الأرض. فأجابها بقوله: «إننى أمتلك أعصابا قوية فقد استطعت أن أتحمل معسكرات ستالين».

أما مقابلة مؤلفنا للأديب شالاموف فكانت من نوع مختلف فشالاموف أمضى سبعة عشر عاماً فى معسكرات كوليما فى شمال شرق سيبيريا حيث خاض تجارب أكثر مرارة من التجارب التى خاضها سولجنتسين وهى تجارب كتب عنها بعض قصصه وقصائده، ولم يكن اسم شالاموف جديداً عليه فقد قرأ مؤلفنا قصائد شالاموف فشعر على الفور بوشائج الأخوة تربط بينهما.

وبعد عودة مؤلفنا من موسكو إلى ريازان تلقى خطابا طويلا من تفاردوفسكى يطمئنه إلى أن رفضه إجراء التغيير الأخير الذى طلبه منه سكرتير خروتشوف الخاص لن يعطل نشر الكتاب بالمرة، وأزجى تفاردوفسكى بنصيحة إلى سولجنتسين أن يقاوم الآثار المدمرة التى سوف تجلبها له الشهرة فى أعقابها، وعبر عن أمله فى أن يحتفظ مؤلفنا رغم ذيوع صيته بهيبته ووقاره ونضوجه وقوته الأخلاقية وما تتسم به موهبته المدهشة من أمانة. كما أن حذره من الغواية ومن تهافت الصحف والمجلات الأخرى على نشر أعماله. وطلب إليه أن يشعر بأن عليه واجبا نحو مجلة «العالم الجديد» التى

فتحت أمامه الطريق وأفسحت له المجال. وعاتبه تفاردوفسكى لأنه استقبل تهنئته بنشر روايته بشئ من الفتور فكل ما قاله فى الرد على هذه التهنئة أن خبر نشر الكتاب أمر يدعو إلى السرور.

كتب سولجنتسين إليه يقول إنه يعرف أن عمر الشهرة قصير ويعتذر عن هذا الفتور بقوله إن حياة السجو والمعسكرات علمته ضبط النفس وكبح جماح عواطفه.

كما علمته ألا يتوقع من الحياة إلا أسوأ ما فيها. واعترف أنه لم يعرف الفرحة الحقيقية إلا عندما أخبره تفاردوفسكى أنه لم يستطع أن يذوق طعم النوم بسبب قراءة روايته، ووعد سولجنتسين بالامتناع عن الرد على الذين يهاجمونه فى الجرائد وأنه سوف يخص «المجلة الجديدة» بشعره ونثره مستثنياً من ذلك مسرحياته.

وعلى الرغم من أن رواية «إيفان دينيسوفتش»، كانت تحمل أسم مؤلفها المستعمار أريازانسكى فإن عدداً هائلا من الناس ومن بينهم زميل مؤلفها فى السجون فلاديمير جرشونى قرأها قبل صدورها فى نسخة من مخطوطتها

بفضل الضجة السياسية المدوية التى أحاطت بظروف نشرها واستطاع فلاديمير جرشوني أن يخمن اسم مؤلفها الحقيقى بسبب تعرفه على بعض شخصياتها التى خالطها مع المؤلف فى السجون.

وفى تلك الفترة سلم مؤلفنا نسخة من قصة «حادثة على محطة كوتشتوفكا» إلى تفاردوفسكى ليعرف رأيه فيها وأراد أن ينتهز فرصة نجاحه المنقطع النظير فى نشر بقية أعماله. وعندما وجه هذا الشاعر بعض الانتقادات الأدبية إلى «حادثة محطة كوتشتوفكا» ظهر على مؤلفنا الامتعاض ورغم استياء تفاردوفسكى من موقفه فإنه اقترح عليه أن ينشرها مع قصة أخرى هى «ماتربونا» فى العدد نفسه من المجلة الجديدة الصادر فى يناير ١٩٦٣. وحال انشغال مؤلفنا بالتدريس والتصحيح دون تكريس كل وقته للتأليف الأدبى وقرر أن يستغل شهرته العريضة التى أصابها مؤخراً فى مؤازرة زميل له اسمه ميخائيل بوتابوف تعرض للظلم والعدوان. فقد اختلف هذا الرجل مع جيران له كانوا يشاطرونه المسكن نفسه لأنهم حاولوا طرده منه للاستحواذ عليه بأكمله لأنفسهم فقامت

زوجته بتبليغ السلطات بأن هؤلاء الجيران يحصلون بطريقة غير مشروعة على معاشات لا يستحقونها فسعوا إلى الانتقام من زوجها بوتابوف ولفقوا ضده تهمة اغتصاب فتاة غجرية في الرابعة عشرة من عمرها تسكن معه في العمارة نفسها، وبالفعل تم تقديم هذا الرجل إلى المحاكمة في نوفمبر ١٩٦٢. ورغم اقتناع الجميع ببراءته فقد صدر ضده الحكم بحبسه لمدة اثنى عشر عاماً في معسكرات العمل، فهاج زملاؤه في المدرسة وماجوا وأرسلوا عريضة احتجوا فيها على قسوة هذا الحكم، الأمر الذي عرضهم للتهديد بالطرد من وظائفهم بزعم التشهير بنظام القضاء السوفيتي، وقرر سولجنتسين الذي أصبح الآن يشار إليه بالبنان أن يقف بكل ثقله بجانب هذا الرجل المسكين دون أن يخشى الملامة أو التهديد. وزاد من عطفه على بوتابوف أنه علم أنه سبق أن أمضى تسعة أعوام في معسكر عمل للتهمة نفسها التي ألصقت بمؤلفنا، وهي القيام بدعاية مناهضة للاتحاد السوفيتي. فأرسل احتجاجاً إلي المحكمة العليا واستغل صلاته في تحريض إحدى الصحفيات العاملات في جريدة «أزنستيا» على كتابة تحقيق

صحفى فى هذا الشأن. ويجدر بنا أن نضيف أن الكاتب المعروف كونستانتين سيمونوف عند صدور قصة «إيفان دينيسوفتش» كتب مقالا مطولا عنها فى الجريدة نفسها لم يرق فى عينى سولجنتسين رغم ثنائه عليها فقد كتب إلى زوجته فيما بعد يشكو من أن سيمونوف فاته أن يتنبه إلى لغة القصة وقدرتها على النفاذ إلى روح الرجل العادى. وأخبره تفاردوفسكى وهو فى منتهى البهجة والانشراح أن المسئولين طلبوا إليه عدم طرح عدة آلاف النسخ من هذه القصة المنشورة فى مجلة العالم الجديد لبيعها فى أكشاك داخل الكرملين إلى آلاف المندوبين القادمين من جميع أرجاء الاتحاد السوفيتى لحضور الجلسة التى عقدتها اللجنة المركزية بكامل هيئتها. ووقف خروتشوف نفسه على المنصة ليعلن أمام الحاضرين أن قصة «يوم واحد فى حياة إيفان دينيسوفتش» عمل بالغ الأهمية ينبغى على الجميع قراءته. وفى المقدمة التى صدر بها تفاردوفسكى هذا العمل ربط بين هذه القصة وبين الخطاب الذى هاجم فيه خروتشوف مبدأ عبادة الفرد فى المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى، فكان بمثابة الخط

الذى اقتفى أثره سائر النقاد والكتاب، وكان امتُداح صحيفتى «أزفستيا» و«برافدا» الرسميتين بمثابة إشارة من أجهزة الدولة الرسمية بأن المؤلف لم يعد خائنا للشعب بل بطلا قومياً يكن له الجميع أسمى آيات التقدير والاحترام، وتأكيدا لهذا المعنى كتب سيمونوف فى أزفستيا يقول: «أعتقد أن الكسندر سولجنتسين فى قصته أثبت أنه يناصر الحزب مناصرة حقيقية فى قضيته المقدسة والحيوية - وهى محاربة مبدأ عبادة الفرد والعوامل الناجمة عنها».

ترشيح سولجنتسين لجائزة لينين:

فى تلك الفترة ألف سولجنتسين مسرحيتين وعدداً من القصائد التى لم يستقبلها تفاردوفسكى بالرضا، وادراكا مؤلفنا أن رواية «الدائرة الأولى» التى أودعها أدراج مكتبه سوف تقابل بالرفض والاستهجان السياسى فقد امتنع عن نشرها، ولكنه عرض على تفاردوفسكى نشر فصلين منها غير أنه لم يقبل هذا العرض لأن المؤلف يكرر نفس الموضوع القديم وهو الحياة فى السجون والمعسكرات، مما دعاه إلى التفكير فى تأليف رواية عن عنبر السرطان الذى كان نزيلا

فيه عندما دخل مستشفى طشقند عام ١٩٥٥. غير أنه أرجأ تنفيذ الفكرة حتى يفرغ من كتابة قصته «العجلة الحمراء» وما أن شعر أن تفاردوفسكى على استعداد لنشر روايته «عنبر السرطان» فى مجلة «العالم الجديد» التى يشرف على تحريرها حتى ترك «العجلة الحمراء» لينكب على تأليفها. واقترح تفاردوفسكي عليه تغيير عنوانها إلى «مرضى وأطباء» حتى يستبعد شبهة وجود آية رموز أو إسقاطات سياسية ولكن مؤلفنا أصر على الاحتفاظ بالعنوان الذى اختاره ورغم هذا الخلاف فى وجهة النظر فقد رشح تفاردوفسكى «يوم فى حياة إيفان دينيسوفتش للحصول على جائزة لينين التى تمنح سنويا لواحد من كبار أدباء الاتحاد السوفيتي. ومما زاد من احتمالات فوزه بهذه الجائزة أن صحيفة ازفستيا أجرت حوارا مع بوريس بوركوفسكى القبطان البحرى الشيوعى المتفانى فى ولائه للحزب والذى زج به فى السجن فرسم مؤلفنا شخصيته الروائية الكابتن بونيوفسكى على غراره. والجدير بالذكر أن هذا القبطان أكد أن سولجنتسين فى روايته لم يبالغ قط فى تصوير الفظاعات التى حدثت فى

معسكر اكيباستوز. ومن المفارقة أن نرى أن هذا القبطان يؤكد أن السجناء فى هذا المعسكر لم يخطر على بالهم مطلقا الانفصال عن الحزب الشيوعى كما أنه لم يخطر لهم قط ان النظام السوفيتى هو المسئول عما لحق بهم من ضيم واضطهاد.

ومما دعم ترشح سولجنتسين للجائزة أن صامويل مارشال الحاصل على جائزة لينين فى العام السابق والممثل الرسمى للحزب الشيوعي كتب مقالا يدافع بقوة عن «يوم فى حياة إيفان دينيسوفتش» كما أن أدباء كبارا مثل إليا أهرنبرج وكورنى تشكوفسكى سطروا خطابات تعضيد لمؤلفنا وكذلك نشر فلاديمير لاكشين مقالا يفرظه بعنوان «إيفان دينيسوفتش: أصدقاؤه وأعداؤه» فحص فيه محاجات المعادين لسولجنتسين بدقة بالغة ودحضها.

ولم يسكت المحافظون على هذا التقريظ. ففى اجتماع عقده الكتاب السوفيت فى موسكو انبرى ديمترى إبرمين «الذى سبق أن هاجم رواية دادنيستيف ليس بالخبز وحده» بنقد «يوم فى حياة إيفان دينيسوفتش» نقدا لاذعا وشاركه

فى انتقادها الكاتب بوريس دياكوف والجنرال أ. تودورسكى وانصب معظم هجومهما على مقال لاكاشين المادح لمؤلفنا دون العيب فى سولجنتسين نظرا لأن خرتشوف الذي يمثل أعلى سلطة فى البلاد أثنى عليه عاطر الثناء كان سولجنتسين يتلقى يوميا من القراء نحو مائة وخمسين خطابا عبر معظمها عن تأييده والوقوف بجانبه. وبلغت الملاحاة المحتدمة حول الرواية حداً جعل الناس فى روسيا يقولون قل لى رأيك فى الرواية وسوف أقول لك من أنت وهكذا أصبحت الرواية محكا ومعيارا للحكم على اتجاهات الناس السياسية. وهو نفس ما ذهب إليه فينيامين توتش فى المقال الذى سطره بعنوان «سولجنتسين ورسالة الكاتب الروحى» والجدير بالذكر أن توتش اعتمد فى كتابة مقاله على مطالعته لآلاف الرسائل التى تلقاه سولجنتسين حول روايته «يوم فى حياة إيفان دينيسوفتش» و«قصة ماتربونا» وأيضاً اكتشف مؤلفنا من رسائل القراء شدة تعاطف الكثيرين معه حيث أن أقاربهم وأصدقاءهم كانت لهم تجارب مماثلة فى السجون فضلا عن أن مثقفين كثيرين فى الحزب عبروا عن ضرورة تحسين

أوضاع المجتمع والمعتقلات كما أن بعض أصحاب هذه الرسائل كانوا أنفسهم من السجناء السابقين رغم عضويتهم فى الحزب الشيوعى. وببساطة انقسم المجتمع السوفيتى إلى معسكرين متناحرين: معسكر يدعو إلى إصلاح السجون ومعسكر محافظ يدعو إلى إبقاء الوضع على ما هو عليه، أو بعبارة أخرى انقسم المجتمع السوفيتى إلى مؤيدين إلى ترشيحه لجائزة لينين ورافضين لهذا الترشيح.

وعلى الرغم من أن رواية «يوم فى حياة إيفان دينيسوفيتش» أثارت اهتمام المجتمع السوفيتى الشديد بها لأسباب سياسية فإنها كما يقول الناقد الانجليزى ماكس هايوارد تميزت بخصائص فنية وأدبية، ولا غرو فقد استطاعت هذه الرواية أن تتجاوز المفاهيم السياسية الضيقة لتناول مفاهيم أشمل وأعمق تتصل بالمصير البشرى كله. فضلا عن أن الرواية هيجت مشاعر الشعب الروسى الروحانية التى سعى ستالين إلى اجتثاثها. والجدير بالذكر أن سولجنتسين قرأ السيل العارم من الخطابات التى وصلت إليه من القراء بعناية فائقة، فاكتشف منها أن تفكيك خروشوف

للسجون والمعتقلات لم يكن كاملا حسبما صرح به وحثته هذه الخطابات أن يسير فى كتاباته اللاحقة على نفس المنهج. وفى يناير ١٩٦٤ التقى مؤلفنا ببعض ممثلى الحكومة لتدارس أوضاع السجون والمعتقلات السوفيتية. وبطبيعة الحال كان يتوخى الحذر فى اقتراحاته ويتحسس خطواته حتى لا يثير الشبهات ضده. وكذلك قابل الوزير المسئول عن إدارة السجون والمعتقلات، ورغم أن هذا الوزير استمع إلى مقترحاته الخاصة بإصلاح السجون برقة حاشية فإنه أبدى عدم اقتناعه بالكثير منها، وعندما قابل العاملين فى مجال البحث الجنائى تأثر بمشاعرهم الودية نحوه. ولكن ساءه كثيراً أن رئيسهم كان جامدا فى أفكاره ورجعيا فى مواقفه يؤمن بأن الانتقام وليس الاصلاح أو إعادة التعليم هو الهدف الحقيقى من الشجون كان كبار المسئولين السوفيت عن السجون والمعتقلات يقابلونه ويجتمعون به بسبب شهرته الفائقة ورضاء خروتشوف عنه.

فى تلك الفترة فى حياته تحسنت أحواله المالية الأمر الذى مكنه من ترك مهنته التدريس وكثرة السفر إلى موسكو

ولينينجراد ليرتاد مكتباتها العامة ومن بينها مكتبة لحفظ الارشيف الرئيسي للتاريخ العسكرى حتى يطلع على بعض الوثائق العسكرية التى تعينه على تأليف «العجلة الحمراء وبتحسن ظروفه المادية استطاع فى نهاية عام ١٩٦٣- رغم سخريته من السيارات فى إحدى قصائده أن يشترى سيارة من طراز موسكوفيتش استخدمها فى السفر من ريازان إلى موسكو ولينينجراد وكذلك إلى سولوشا قريته الأثيرة إلى قلبه وبسبب الشهرة العريضة التى أصابها بين عشية وضحاها والدعوات الكثيرة التى تلقاها لحضور الحفلات ومقابلة العظماء وكبار المسئولين شعرت زوجته بشئ من الانكماش وكثير فى الغبطة ورغم الثروة التى جناها من نشر «يوم فى حياة إيفان دينسيوفتش» فإنه كان شديد الحرص على المال لإدراكه أن الدهر قلاب وأن دخل الكاتب يمكن أن يتوقف فى أية لحظة، ولهذا قرر أن يعيش مع زوجته نفس الحياة المتواضعة التى كان يحياها قبل أن تدين له الشهرة ولم تجد زوجته سبيلا إلى تزجيه وقت.

الفراغ وتبديد الضيق والملل غير العزف لفترات طويلة على

البيانو. فضلا عن أنها توفرت على ترتيب أوراق زوجها والرسائل التى تلقاها والأبحاث التى أجراها فى المكتبات فى ملفات خاصة حيث أن زوجها أولى هذا التنظيم بالغ اهتمامه. فعلى سبيل المثال يحتوى الملف رقم ٢٨ ردود فعل العالم الخارجى لكتاباته.

اعتاد سولجنتسين أن يترك زوجته فى ريازان فجأة ويسافر وحده. ففى نهاية يناير ١٩٦٤ تلقت منه مكالمة تليفونية أخبرها فيها عزمه السفر إلى لينجراد لاجراء أبحاث في مكتباتها العامة. وفى احدى زياراته إلى هذه المدنية الحبيبة إلى قلبه تعرف على ناقد أدبى مرموق اسمه إتكند وعلى زوجته. ورغم شخصيته الانطوائية فقد توطدت علاقته بهما وخاصة بعد أن أرسلت إليه زوجة إتكند خطابا عبرت فيه عن شديد إعجابها برواية «مكان ماتربونا» . وعندما قام مؤلفنا بزيارتهما لأول مرة فى شقتها فى لبننجراد اعترتهما الدهشة حين وجداه مرحا ومحبا للكلام على عكس الانطباع الذى تركته فيهما صورته الفوتوغرافية المتجهمة المنشورة فى مجلة العالم الجديد .

• وكانت شهرته السبب فى إزعاجه من وقت إلى آخر فقد كان بعض المبدعين المبتدئين يطلبون منه التعليق على مخطوطاتهم فكان يرفض إجابتهم إلي طلبهم بأسلوب شديد الدماثة والتهذيب ويعتذر بضيق الوقت وخاصة لأنه بدأ التأليف والكتابة فى مرحلة متأخرة جدا من حياته. غير أن الشهرة كانت ذا نفع أحيانا فقد كتبت إليه إحدى المعجبات أنها على استعداد لنسخ رواياته على الآلة الكاتبة فوافق على هذا العرض شاكرا.

ونحو شهر مارس ١٩٦٤ فكر سولجنتسين فى الذهاب إلى طشقند لزيارة المستشفى الذى كان يعالج فيه من مرض السرطان عام ١٩٥٥، بهدف جمع المادة الروائية الخاصة بعمله الجديد «عنبر السرطان» ، وذلك بعد أن فرغ من روايته «الدائرة الأولى» . واستقبله الأطباء والعاملون فى مستشفى طشقند بحفاوة بالغة وأسعده كثيرا الالتقاء بهم وأن يرى بوجه خاص الدكتور دونا ييفا رئيس قسم الأشعة وأيضا أ.م. ستانتيكوف رئيس قسم الجراحة. ولكنه استاء من مبالغة العاملين فى المستشفى فى الاحتفاء بسبب ذيوع صيته مما

أعاق المهمة التى جاء من أجلها حيث أن جميع العاملين لم يكونوا على سجيتهم فى حضرته.

وذات يوم عبر سولجنتسين عن شدة غضبه من زوجته ناتاليا لأن حماته أسرت إلى سكرتيرته ببعض المعلومات الخاصة بعلاقته بزوجته ، الأمر الذى أثار ثائرته حين أطلعته سكرتيرته عليها. عندئذ بدأت الشكوك تساور ناتاليا حول حقيقة علاقة زوجها بسكرتيرته، فاضطر إلى الاعتراف بها وامتنانه لها . وزاد من غيرة الزوجة أن هذه السكرتيرة كانت تصغرها سنا، وأن مؤلفنا برر تعلقه بسكرتيرته بأنه أراد توسيع دائرة معرفته بنفسية وتصرفات الجنس اللطيف. واستشاطت زوجته غضبا عندما أخبرها أنه لا يستطيع الاستغناء عن سكرتيرته. وطلبت ناتاليا منه أن يختار بينها وبين سكرتيرته وأن يترك المنزل في حالة تفضيله لغريمتها. وبعد أن مر سولجنتسين بأزمة نفسية طاحنة قرر فى النهاية أنه لا يستطيع الاستغناء عن زوجته.

وعند التصويت على الفائز بجائزة لينين صدرت أوامر سرية بحجبها عن مؤلفنا . وبدأ استبعاده بأن نشرت الجريدة

السوفيتية المعروفة برافدا مقالا افتتاحيا جاء فيه أن رواية «يوم في حياة ايفان دينيسوفتش» لا تستحق الجائزة لأن مستواها لا يرقى إلى المستوى الرفيع للأدباء السابقين عليه في الحصول على هذه الجائزة، كما أنه على حد قولها - لم يراع أفضل التقاليد في اللغة الأدبية الروسية.. والجدير بالذكر رئيس لجنة التحكيم ت. س. تيخونوف طلب استبعاد رواية سولجنتسين . وهنا اعترض الأديب تفاردوفسكي على ذلك وأيده في ذلك المخرج السينمائي ميخائيل روم وآخرون. ورغم أن وزيرة الثقافة أكاتيرينا فورستيفا كانت تؤيد تيخونوف فإنه لم تنجح في اقناع اللجنة بوجهة نظرها . عندئذ هب سيرجي باخلوف رئيس اللجنة المركزية لمنظمة الشباب الشيوعية واقفا ليعلن استحالة اعطاء سولجنتسين الجائزة لأسباب سياسية وقانونية . وأضاف أنه سمع أن مؤلفنا استسلم للقوات النازية أثناء الحرب العالمية الثانية وأن تهمة جنائية وجهت إليه دون أن يستطيع إثبات براءته منها. ويقال إن تفاردوفسكي الذي استبد به الغضب صرخ قائلا : «إنها فرية» فرد عليه بافلوف بقوله : «عليك أن تثبت أنها

فرية»، واحتدم الخلاف بين أعضاء اللجنة التى أرجأت اتخاذ القرار .

وفى اليوم التالى عادت اللجنة إلى الاجتماع واقتراح المناوئون لسولجنتسين منح الجائزة لجوشار عن روايته «جرس القطيع» رغم أنه سبق له الحصول عليها . واغتاظ تفاردوفسكى من الاتهامات الباطلة الموجهة ضد سولجنتسين ولم يهدأ له بال حتى تمكن بعد ذلك من استخراج وثيقة رسمية من المحكمة تثبت براءته كما تثبت أنه ليس هناك غبار على سجله العسكرى ثم واجه غريمه بافلوف بهذه الوثيقة فاضطر الرجل إلى الاعتذار. غير أنه كان اعتذارا دون جدوى فقد سبق السيف العزل وذهبت الجائزة لغيره.

رواية «عنبر السرطان» :

فى ربيع عام ١٩٦٤ وصيفه المبكر قام سولجنتسين بمراجعة روايته «عنبر السرطان» بهدف التخفيف من حدة انتقادها للنظام السوفيتى حتى لا تتعرض للحظر . وكانت الرواية فى الأصل تتضمن تصويرا فى غاية الأمانة والدقة لما رآه وعاشه مؤلفنا فى السجون السوفيتية، جاعلة منه صورة

مصغرة للحياة السوفيتية بوجه عام. ويتلخص جوهر «عنبر السرطان» فى الحكمة التى تقول: «ليس الذى سمع كالذى شاهد»، مشيرا بطبيعة الحال إلى فظاعات السجون ومعسكرات الاعتقال السوفيتية . وبعد إجراء الكثير عن التغييرات على روايته عرضها على الأديب كوميليف لتقييمها، فوجه إليها كوميليف كثيرا من الانتقادات. واحتفظ سولجنتسين بروايته حبيسة الأدراج لمدة ثلاثة أعوام يطالعها سرا عدد ضئيل من الأصدقاء والمعارف. وأصبحت الرواية بعد الاختصار والاستبعاد تتكون فى سبعة وثمانين فصلا بدلا من ستة وتسعين فصلا.

وكان من الطبيعى أن يطلب سولجنتسين من تفاردوفسكى قراءة مخطوطته فهو الذى تحمس لنشر روايته «يوم فى حياة ايفان دينيسوفتش» وعرض نفسه للمخاطر. وسعيا للأمان والحفاظ على السرية طلب من تفاردوفسكى الحضور إلى ريازان لقراءتها، فوافق على هذه الدعوة وسافر بالقطار إلى ريازان فى ٢ مايو ١٩٦٤ حيث نزل ضيفا على المؤلف وزوجته. وفى ريازان أمضى الضيف أربعة أيام . وفى بادئ

الأمر توخى الضيف الحذر فى تعليقاته . ولكن الإفراط فى شرب الخمور حل عقدة من لسانه فما انفك يروى لمضيفه أسرار المتربعين على السلطة فى الحزب الشيوعى وكيف أن ستالين فى يوم ما غضب على بريجنيف وعاقبه.

قال الضيف المخمور مستضحكا إن مضيفه إنسان فظيع وأنه (أى تفاردوفسكى) لو اعتلى سدة الحكم لبادر بإقصائه والزج به فى السجن ولكن وعده بتهريب الأطعمة والخمور. ثم تصور تفاردوفسكى نفسه داخل الزنزانة لأنه سمح بنشر رواية «الدائرة الأولى» وبعد مضى الوقت فرغ الضيف تماما من قراءة الرواية ودمعت عيناه بسبب تأثره بها. ثم امتدحها مدحا لامزيد عليه من الناحية الفنية مؤكدا أن صاحبها هو خليفة ديستوفسكي العظيم . غير أنه لم ير أى تعارض بين سياسة الحزب الشيوعى وبين الرسالة التي تحملها الرواية فى طياتها . ثم شبه تفاردوفسكى المؤلف بالكسى تولستوى قائلا : «أنك تشبه الكسى تولستوى ولكنك لا تغتفر للسلطة السوفيتية أى شئ»»

اقتنع تفاردوفسكى بعظمة رواية «عنبر السرطان» وتطلع

إلى نشرها ولكنه اقترح على مؤلفها إجراء بعض التغييرات فيها مثل استبعاد الفصل المتصل بحياة ستالين الخاصة باعتبارها أمرا يخفى على الجميع. ثم أعطى تفاردوفسكي هذه الرواية لزملائه فى مجلة «العالم الجديد» كى يقرأوها تمهيدا لنشرها فى المجلة. واجتمع محررو المجلة لمناقشة امكانية نشر الرواية. ولكن عددا منهم أبدى شيئا فى التحفظ على نشرها . فقد أبرز كوندرانوفيتش قوة الرواية من الناحية الفنية، ولكنه وصفها بأنها مثيرة للجدل العنيف . قال إنه يستحيل نشر الرواية، ولكنه فى نفس الوقت يستحيل من الناحية الأخلاقية الامتناع عن نشرها. وأيضا اعترض ساتش على نشرها فورا وطالب المجتمعين بإعادة قراءتها. ووجد كوبليف أن الفصول التى لا تعالج حياة السجون تعانى من الضعف واقتراح استبعادها . وعبر ديمنتيف عن تشككه فى الرواية معترفا بأنها تتسم بالقوة ولكنه قال : إنها تتجاوز انتقاد الديكتاتورية الستالينية لتلقى الشكوك حول شرعية الثورة البلشفية نفسها. فضلا عن أنه اشتكى عن عجز الرواية عن تقديم الحلول فالحل الذى تقترحه لا يزيد عن ضرورة

التزام الإنسان بالسلوك المهذب، على نحو ما اقترح تشارلس ديكنز من قبل . وانتهز تفاردوفسكي فرصة تحمس لاكشين وماريا موف الشديد لنشر الرواية وعدم رفض الآخرين لها بصراحة، فأعلن أن الاتجاه العام في مجلس تحرير المجلة يميل إلى نشرها . ولكن هذه الموافقة المبدئية لم تعن الكثير حيث تعين عليه الحصول على موافقة الرقابة بالنشر. وأراد تفاردوفسكي أن يكسب ليبيديف إلى صفه غير أن علاقته به كانت قد تدهورت بسبب خلافهما حول نشر مذكرات اهرنبرج. واكتفى تفاردوفسكي بإعطاء ليبيديف بعض فصول الرواية وجاء تعليق ليبيديف عليها مخيبا للآمال إذ كتب يقول: إن الرواية عبارة عن قذف في المجتمع السوفيتي. ونصح تفاردوفسكي بإخفائها عن عيون الناس. وكان خروتشوف آنذاك في وضع حرج فقد استخدم أعداؤه سماحه بنشر رواية سولجنتسين «يوم في حياة ايفان دينيسوفيتش» كسلاح يشهرونه في وجهه. غير أن تفاردوفسكي ظل صامدا ومصرا على نشر الرواية في مجلته.

وشجع إخفاقه في الحصول على جائزة لينين الأقلام

المناوئة له على التهجم عليه وعلى روايته الأولى «ايفان دينيسوفيتش» مثلما فعل يورى بارابانس وفسفولد سيرجانوف وج. بروفمان . وزاد من احباط مؤلفنا أن المسارح السوفيتية أعرضت عن تمثيل مسرحيته «شمعة فى مهب الريح» . وبسبب إعراض دور النشر عن كتاباته آنذاك فإنه فكر فى إطلاع أصدقائه ومعارفه على مخطوطاته. وشجعه على المضى فى هذا السبيل ان الكثيرين رحبوا بما تضمنته كتاباته من الدفاع عن الدين. ووقعت مخطوطات بعض قصصه فى يد المهاجرين الروس فى مدينة فرانكفورت فقاموا بنشرها فى مجلتهم «جرانى» . وتفاقم وضع سولوجنتسين حين نجح المحافظون السوفيت فى الإطاحة بخروتشوف الأمر الذى أدخل الفزع فى قلب مؤلفنا لأن خروتشوف صاحب الفضل فى نشر رواية «ايفان دينيسوفتش» وصعود نجم كاتبها. فهرع إلى مقابلة تفاردوفسكى وخشى من عواقب نشر روايته «الدائرة الأولى». ولهذا طلب من تفاردوفسكى صرف النظر عن نشرها فى مجلة «العالم الجديد» واقترح عليه نشر روايته «عنبر

السرطان» بدلا منها. ولم ير تفاردوفسكى ما يدعو إلى تغيير موقفه المدافع عن رواية «الدائرة الأولى» التى رأى أنها لا تناصب الثورة البلشفية العداء. وفكر تفاردوفسكي أن عدوله عن نشرها يعنى أن الرواية تتضمن بالفعل إيماءات معادية للنظام السوفيتى. وأقلقه كثيرا أن مخطوطات سولجنتسين سرعان ما إنتقلت من قارئ إلى آخر لدرجة أنها وصلت إلى أيدى أعداء النظام السوفيتى مثل ناشرى مجلة «جرانى». ولهذا طلب من سولجنستين الامتناع عن اتخاذ أية خطوة فى شأنها وصول مخطوطة «الدائرة الأولى» إلى أيدى القراء.

غير أن مؤلفنا فكر فى تسريب مخطوطة «الدائرة الأولى» إلى الغرب وساعده على ذلك أن صديقا له يدعى فاريم أندرييف كان بموافقة السلطات السوفيتية دائم التنقل بين روسيا والدول الغربية وقام سولجنتسين بتصوير نسخة مختصرة من هذه الرواية على شرائط ميكروفيلم أعطاها لصديقه أندرييف كى ينقلها إلى الغرب.

لم يشعر سولجنتسين بالأمان فى ريازان فقرر العيش فى بلدة أخرى حتى يتمكن من الانكباب على القراءة والكتابة.

ولكنه عانى من عدم وجود مكتبات عامة هناك يمكنه الرجوع إليها وقت الحاجة . وعوضه عن هذا النقص ذلك السيل المنهمر من الرسائل التى تلقاها من القراء والمعجبين به والمتهمين بكتاباته عن السجون السوفيتية . فقد أمدته هذه الرسائل بالمعلومات التى يحتاج إليها عن المعسكرات وأنظمتها وأماكنها وضحاياها . فضلا عن أنه تلقى خطابات سب من بعض سجانى هذه المعسكرات والقائمين على إدارتها . وأشد ما كانت دهشته عندما اكتشف من الخطابات الواردة إليه أن معسكرات الاعتقال ظلت مستمرة حتى بعد وفاة ستالين أى فى عهد خروتشوف . غير أن المعلومات التى استقاها من خطابات المساجين كانت مليئة بالفجوات فطلب من مراسليه المساجين أن يسجلوا تجاربهم بشكل دقيق ومفصل ويرسلوها إليه. وأمده زملاؤه السابقون فى السجن : بابين وكوبليف وجيرشونى ورابوبورت وسويسى وتينو بالمعلومات التى يريدها، فضلا عن تطوع آخرين بأداء هذه الخدمة له وتزويده ببعض الكتب والوثائق الخاصة بالسجون أضف إلى هذا أن عددا من أساتذة الجامعات والمعاهد

العلمية الذين زج بهم ستالين فى السجون أمدوه بتجاربهم المريرة .

أمضى سولجنتسين معظم شتاء عام ١٩٦٤ - ١٩٦٥ فى تأليف رائعته الروائية «أرخبيل الجولاج» . وفى باكورة عام ١٩٦٥ قام بزيارة منطقة تامبوف الواقعة حوالى مائتى ميل جنوب شرق ريازان لمعرفة ماذا حدث فى ثورة الفلاحين التى اندلعت عام ١٩٢٠ - ١٩٢١ . ولكن الفلاحين فى البداية امتنعوا عن الإدلاء بأية معلومات حتى اطمأنوا إلى سلامة مقصده فى زياراته اللاحقة لهم . وأخيرا قرر مؤلفنا النزوح عن ريازان بصفة نهائية لشدة بعدها عن موسكو وعن الوسط الأدبى . وعض مؤلفنا بنان الندم لأنه رفض عرض اتحاد الكتاب بإعطائه مسكنا في موسكو تقديرا لتأليف رواية «ايفان دينيسوفتش» . وفى ربيع عام ١٩٦٥ اقترح عليه رخوريس ميدفيديف عالم البيولوجيا المعروف باتجاهاته الليبرالية الانتقال للعيش فى مدينة أوبنتسك الصغيرة . وترجع أهمية هذا العالم إلى أنه تجاسر وتصدى لدحض نظريات ليسنكو البيولوجية التى راقت لستالين . وألف

ميدفيديف كتابا هاجم فيه كلا من ستالين وليسنكو بعنوان «علم البيولوجيا ومبدأ عبادة الفرد» (الذى نشر فى الغرب فيما بعد تحت عنوان «صعود وسقوط ت. د. ليستكو» الأمر الذى أثار إعجاب سولجنتسين .

التقى سولجنتسين بميدفيديف فى منتصف نوفمبر عام ١٩٦٤ فأحب كل منهما الآخر. واتضح لهما أن البروفيسور نيكولاى تيهوفييف - ريسوفسكى الذى شارك سولجنتسين زنزانته فى سجن بوتركى عام ١٩٤٦ صديق مشترك لهما . والجدير بالذكر أن الجزء الأول من رواية «أرخبيل الجولاج» يتضمن تفاصيل خاصة بحياة تيموفييف - ريسوفسكى قبل وبعد الزج به فى السجن . وبعد إزاحة خروتشوف عن سدة الحكم صعد نجم المفكر السوفييتى بيوتر ديميتشوف الذى عبر عن رغبته فى مقابلة مؤلفنا، الأمر الذى اعتبره تفاردوفسكى بشير خير لازدهار مجلته «العالم الجديد» وعودتها إلى مكان الصدارة . وكان اللقاء بين الرجلين فاترا فى البداية ، فأبدى ديميتشوف تحفظات الحزب الشيوعى السوفييتى حول كيفية تناول مؤلفنا لموضوع السجون

والمعتقلات السوفيتية فى رواية «يوم فى حياة دينيسوفتش» .
ولكن الثليج سرعان ما ذاب بين الرجلين . ورد سولجنتسين على تحفظات محدثة مؤكدا له أنه تحرى الدقة والأمانة فى وصف هذه السجون والمعتقلات، ومبينا أن كتابات دياكوف وشلست الرسمية تجافى الحقيقة والواقع . ويبدو أن قلب سولجنتسين انفتح لديميتشوف فأخبره عن روايته «عنبر السرطان» فنبهه ديميتشوف إلى قتامة الموضوع ثم التفت إليه ليسأله : «بوجه عام هل أنت متشائم أم متفائل؟» فأجابه سولجنتسين على الفور : متفائل ما فى ذلك شك ؟ ألم تدرك هذا من قراءة روايتى (ايفان دينيسوفتش) . ومن الواضح أن شخصية مؤلفنا تركت انطباعا طيبا فى نفس ديميتشوفتش الذى ختم حديثه مع سولجنتسين قائلا : «استطيع القول بأنك روسى أمين ودوغرى» .

وندت عنه تنهيدة تنم عن الارتياح وهو يذكر أن سولجنتسين ليس منشقا متعبا مثل باسترناك. ومن الواضح أيضا أن حكمه كان خاطئا وأن الأيام سوف تثبت عكس ذلك

كانت المقابلة بين سولجنتسين وديميتشيف بشير خير فقد ساعد ديميتشيف زوجة مؤلفنا ناتاليا على الحصول على وظيفة فى منطقة أوبنتسك فتحسنت أحواله المالية عن ذى قبل مما مكنه من شراء قطعة أرض شيد عليها كوخا متواضعا غير مزود بالماء أو الغاز أو الكهرباء أو حتى دورة مياه. ورغم أن المكان كان لا يطاق فى فصل الشتاء فإن منظره الطبيعى كان فى منتهى الروعة فى فصل الصيف . وفى هذا الكوخ المتواضع واصل سولجنتسين كتابة روايته المشهورة «أرخبيل الجولاج»، فضلا عن أنه بدأ يعمل بجدية فى تأليف رواية «العجلة الحمراء» بعد أن غير عنوانها إلى «ر-١٧» . وهى ملحمة تدور أحداثها حول الثورة البلشفية التى لم يعد يؤمن بها وبالمبادئ الماركسية التى نهضت عليها بعد أن زجت به الحكومة السوفيتية فى أحد معسكرات العمل . ومع عودته إلى العقيدة المسيحية وكفره بالنظام البلشفى أخذ يعيد تقييمه للنظام القيصرى الذى شعر بأنه تجنى عليه عندما رفضه فى مقتبل عمره. كما أنه تاق إلى البحث عن الباقين فى عائلته على قيد الحياة . وأيضا ازداد تقديره لأمه عن ذى قبل حيث

اكتشف حبها الجياش للفنون وتعاطفها وتسامحها . وحرص على زيارة مسقط رأسه وعلى تدوين الملاحظات عنه .

وأثناء رحلته الباحثة عن جذوره العائلية التى تقطعت وشائجه بها حدث تطور سياسى خطير وردة عن نهج خروتشوف الليبرالى : فقد عقد الحزب الشيوعى مؤتمرا بالغ الأهمية زعم مؤلفنا أن الكسندر شيليبين رئيس المخابرات السوفيتية السابق KGB هيمن عليه وسيطر على أعماله مناديا بقمع الاتجاهات الليبرالية والتوقف عن مهاجمة ستالين والتشدد فى التصدى للغرب . وأيضا طالب شيليبين تقليم أظافر مجلة «العالم الجديد» الليبرالية حتى لا تتحول إلى أداة فى يد البورجوازية . وخشى سولجنتسين على نفسه من نشر روايته «الدائرة الأولى» فى مجلة «العالم الجديد» فطلب من تفاردوفسكى أن يردها إليه . ومما زاد من خوفه أنه ترامى إلى سمعه أن بعض المشتركين فى المؤتمر أنحوا عليه باللائمة لأنه أساء تصوير معسكرات العمل السوفيتية التى شبهها مؤلفنا بمعسكرات الاعتقال والسجون، وفى ظل المتغيرات السياسية غير الليبرالية المترتبة على سقوط جورباتشوف لم

يعد لمؤلفنا أى سند بين أصحاب الأمر والنهى . وزاد من خوفه على نفسه أن الرواية التى كان آنذاك بصدد تأليفها وهى «أرخبيل الجولاج» كانت تدور حول «معكسرات الاعتقال (العمل) السوفيتية. ولهذا ألح فى استرداد مخطوطة «الدائرة الأولى» من مجلة «العالم الجديد».

وفى يوم ٦ سبتمبر ١٩٦٥ توجه سولجنتسين إلى فيللا تفاردوفكسى وطلب منه استرداد روايته . ولسوء حظه كان تفاردوفسكى قد أفرط فى تناول الشراب، الأمر الذى جعله عدوانيا فأخذ يتبع مؤلفنا لأنه سمح لمخطوطات قصصه أن تصل إلى أيدى الناشرين فى الغرب قائلا : لقد وضعت رأسى على كفى من أجلك وها أنت تفعل ما تفعل؟»، وفى غضبه ذكر تفاردوفسكى له أن البعض يرمونه بالعمالة للغرب والتجسس لحسابه وأنه هو الذى قام بنفسه بتسليم مجموعة قصصه لمجلة «جرانى» كى تقوم بنشرها . وأيضا اتهم تفاردوفسكى مؤلفنا بأنه ينوى الهرب عبر الحدود إلى الغرب وأنه تعمد أن يطلق لحيته الكثيفة كى يحلقها حتى لا يتعرف عليه أحد أثناء الهرب.

وتظاهر سولجنتسين أنه يريد استرداد مخطوطة روايته «الدائرة الأولى» حتى يصوب بعض الأخطاء اللغوية فيها ، ولكن تفاردوفسكى لم يصدقه ورفض إرجاعها إليه . غير أن مؤلفنا تشبث بموقفه فاضطر تفاردوفسكى إلى إعادتها إليه . وهكذا تدهورت علاقته بتفاردوفسكى فآثر أن يعطى نسخة من الأربعة نسخ المنسوخة على الآلة الكاتبة إلى الكسى روميانتسيف المحرر فى صحيفة البرافدا كى ينشر فصلا أو فصلين منها فى جريدته.

المخابرات السوفيتية تغير علي أوراق سولجنتسين وتصادر «الدائرة الأولي» .

كانت الغارة التى شنتها المخابرات السوفيتية على أوراق سولجنتسين ومصادرتها رواية «الدائرة الأولى» نقطة تحول فى حياته فقد اعتبرها مؤلفنا أسوأ من حادثة القبض عليه والزج به فى معسكر العمل منذ ثمانية أعوام .

وقد حلت هذه الكارثة به فى شهر سبتمبر عام ١٩٦٥ عندما كان فى السابعة والأربعين من عمره . ونتيجة لما حدث شعر بضيق فى التنفس ووخز فى الصدر وجالت فى ذهنه

فكرة الانتحار . وانتظر قدوم رجال المخابرات السوفيتية للقبض عليه مرة أخرى وأعد نفسه لتحمل مدة حبس طويلة الأجل . وحتى لا تتعرض أيضا روايته «أرخبيل الجولاج» التى لم يستكملها للحظر، فإنه سلمها إلى صديق قديم يقيم فى موسكو عرفه فى فترة سجنه الأولى . وساعده بعض الأصدقاء الذين سبق أن تعرف بهم فى السجن فى تهريب مخطوطة «أرخبيل الجولاج» وإخفائها فى منطقة ريفية نائية . وبالنظر إلى تزايد شعوره بالأخطار المحدقة به طلب من روميانتسيف المحرر الليبرالى فى صحيفة البرافدا أن يعيد إليه مخطوطة رواية «الدائرة الأولى» . وبطبيعة الحال تبددت أية بارقة أمل فى نشر بعض فصول هذه الرواية فى البرافدا، وخاصة بعد إزاحة هذا المحرر الليبرالى من منصبه ليحل محله ميخائيل زيميانين رئيس نقابة الصحفيين المعروف بتشدده وجموده وبصداقته للرئيس السوفيتى الجديد برجينيف .

ارتبط سولجنتسين بعلاقة ود متبادل بالأديب المتأنق الميسور الحال تشوكوفسكى الذى اعتبر مؤلفنا أعظم أديب

روسى فى زمانه . ولاحظ تشوكفسكى مظهره المتواضع فسأله إذا كان لديه من المال ما يكفيه .

فأجابه سولجنتسين بأن أموره على ما يرام وأردف قائلا : «أهم شئ ألا ينفق المرء كثيرا من المال على نفسه»، ثم أشار إلى نعل حذائه السميك جدا وهو يقول إن حذاءه لن يبلى قبل مضى ثمانية أعوام على أقل تقدير» . وعرض عليه تشوكوفسكى أن يعيش معه تحت سقف واحد فى بيته الفسيح والمريح والهادئ فقبل العرض ولكنه أصر على خدمة نفسه بنفسه . وهناك أخذ مؤلفنا يضرب أخماسا فى أسداس ويقلب فى دماغه الظروف والدوافع التى حدت بالمخابرات السوفيتية أن تغير على أوراقه .

والجدير بالذكر أن القانون السوفيتى آنذاك نص على عدم معاقبة من يحتفظ بمخطوطة تهاجم النظام السوفييتى ولكنه ينص على عقاب من يروج لهذه المخطوطة. ولعل مخطوطة كتابة «وليمة المنتصرين» كانت أكثر مخطوطاته خطرا عليه . والجدير بالذكر أيضا أن المخابرات السوفيتية تجنبت تفتيش منزل سولجنتسين نفسه وقامت بتفتيش منازل أصدقائه

للتدليل على أنه يروجها .

بعد سقوط خروتشوف بدأ التشدد الأيديولوجى فى عهد برجينيف يعود من جديد، الأمر الذى جعل الأرض تهتز تحت قدمى مؤلفنا. فلجأ إلى قراءة الأمثال الشعبية التى ترفع روح الإنسان المعنوية عندما تسود الدنيا فى وجهه . وقد ضمن فيما بعد عددا من هذه الأمثال في كتابة «أغسطس ١٩١٤» . ورغم أن المسئولين السوفيت أزوروا عنه فى تلك الفترة، فإن سيل الرسائل التى بعث بها القراء إليه لم ينقطع ، للتعبير عن شدة إعجابهم به وحبهم له. وأوصاه أحدهم أن يأخذ باله من حياته لأن حياته ليست ملكا له وحده بل ملكا لجميع الروس . وحتى يفوت على السلطات السوفيتية فرصة القبض عليه دون أن يدرى بذلك أحد تعمد الإكثار من الظهور فى المحافل والاجتماعات العامة . وكتب إلى ديميتشوف يطلب منه إعادة مخطوطاته إليه ولكن بدون جدوى . ولكنه مالبث بعد مرو يوم أو يومين أن تلقي اخطار من اللجنة المحلية للغرب الشيوعى فى ريازان يبلغه بأنه تم تحويل خطابه المرسل إلى ديميتشوف إلى النائب العام فى الاتحاد السوفيتى . وحتى لا يختفى

اسمه من الجرائد والمجلات الأدبية أرسل إلى تفاردوفسكى مسرحية «شمعة فى مهب الريح» لنشرها فى مجلة «العالم الجديد» فيتردد تفاردوفسكى فى نشرها لأن كل كتاباته لا تنفك تعالج موضوعا شائكا للغاية هو الحياة فى معسكرات العمل السوفيتية. والتقى سولجنتسين بتفاردوفسكى فى محاولة لإقناعه بنشر المسرحية دون طائل . ورغم ذلك سلمه مؤلفنا قبل انصرافه مخطوطة قصة قصيرة بعنوان «اليد اليمنى» وما أن فرغ تفاردوفسكى من قراءتها حتى عبر عن شدة إعجابه بها وخاصة الفقرات الوصفية فيها ولكنه عبر عن شكه فى إمكانية نشرها . ولم يفت هذا فى عضد مؤلفنا الذى سيطرت على عقله فكرة ضرورة نشر أى شئ بقلمه حتى لا يغيب اسمه عن بال الناس . وأيضا دفع بمقال سطره عن اللغة إلى مجلة الجازيت الأدبى التى قبلت نشره. وفى هذا المقال يعبر مؤلفنا عن سخطه على تدهور اللغة الروسية فى أيامه وعلى الافراط فى الاستعارة من اللغات الأوروبية الأخرى وبخاصة اللغتين الألمانية والفرنسية ، وضاق ذرعا بعزوف تفاردوفسكى عن نشر كتاباته فى «العالم الجديد»

المعروفة بليبراليتها وتحررها فقام بإرسال أربع قصص قصيرة ألفها فى خريف ١٩٦٥ إلى مجلات موغلة فى محافظتها وتشددها مثل المجلتين الأسبوعيتين «أوجونيوك» و«روسيا الأدبية» اللتين ابديتا استعدادهما لنشر قصة «زاخار الحرامى» . وانتهز مؤلفنا فرصة غياب تفاردوفسكى عن مجلة «العالم الجديد» فعرض على هيئة تحريرها نشر قصته القصيرة «زاخار الحرامى» وعند سؤاله عن السبب فى أنه سحب جميع قصصه من «العالم الجديد» أجاب بأن هذا يرجع إلى تفاردوفسكى المتعنت والرافض لنشر أى من قصصه وعندما علم تفاردوفسكى بما حدث استشاط غضبا ودب شجار بينه وبين سولجنتسين أمام المحررين متهما مؤلفنا بالأنانية والجحود ونكران الجميل . وانتهى الأمر بحدوث قطيعة بينهما .

تعلم سولجنتسين من الحياة فى معسكرات العمل التكتم والحذر والسرية وإحاطة تصرفاته بجو من الغموض . ولهذا قرر الاختفاء إلى مكان ريفى ناء كان قد خبأ فيه مذكراته وأوراقه والمادة التى جمعها «التى سوف يستعين بها فى

تأليف رواية «أرخبيل الجولاج» . وحتى لا يتعرف عليه أحد قام بحلق لحيته الكثة محققا بذلك سخرية تفاردوفسكى منه حين اتهمه بأنه سوف يحلقها حتى يتمكن من الهرب إلى الخارج (ولكنه حلق لحيته للتخفى داخل حدود البلاد وليس خارجها) .

وبعد الملاحاة الشديدة التى أعقبت تقويم كل من الأديبين المنشقين سينيافسكى ودانييل صرف النظام السوفيتى النظر عن محاكمة سولجنتسين حتى لا يجلب على نفسه المزيد من المتاعب . وأيضا تحسن وضع مؤلفنا المادى عندما قام عدد من كبار المثقفين والأدباء والعلماء السوفييت (هم كابتسا وتشوكوفسكى وشوستاكوفيتش وبوستوفسكى وسيمونوف) بمناشدة السلطات السوفيتية لانتشال كاتبنا من وجدة العوز وطلبوا إعطاءه شقة سكنية في موسكو . ورغم أن السلطات لم تعطه شقة فى موسكو فإنها أعطته شقة بديلة فى ريازان. وكان من حسن حظه أنه تعرف بالعالم النووى الروسى كابتسا الذى انشق على كل من ستالين وبريا فوضعاه رهن الاعتقال فى منزله لمدة تسعة أعوام . وبات من الواضح أن

كابتسا شاركه نفس معتقداته الليبرالية وتعرض لنفس ما تعرض له من استبداد وطغيان . ورغم تحسن ظروف كاتبنا المعيشية فقد ساءت علاقته بزوجته أو بالأحرى ساءت علاقة زوجته به بسبب كثرة المعجبات به من ناحية وأسفاره الكثيرة إلى بلدان روسية نائية يخلو فيها لنفسه ويتفرغ لتدوين ذكريات المساجين الذين زج بهم مثله في معسكرات العمل . والذى لاشك فيه أنه شعر بأن هؤلاء المساجين أقرب إليه من أى شخص آخر . والجدير بالذكر أنه اعتمد فى تأليف «أرخبيل الجولاج» على شهادة ٢٢٧ مسجونا سابقا طلبوا منه عدم إفشاء أسمائهم . وأيضا زاد من اتساع الهوة بينه وبين زوجته عدم إفشاء أسمائهم . وأيضا زاد فى اتساع الهوة بينه وبين زوجته أسفاره المتكررة إلى موسكو لمقابلة الكتاب والمحررين فى مجلة «العالم الجديد» وبسبب صداقته لتشوكوفسكى تعرف على ابنته الأديبة ليويا مؤلفة رواية «صوفيا بتروفنا» التى تهاجم حملات التطهير التى شنها ستالين ضد المخالفين له فى الرأى . كانت ليويا تربطها علاقات صداقة وطيدة بكوكبة من ألمع الأدباء والأديبات مثل

الشاعرة «انا اخماتوفا» . آعجبت ليويا وابنتها إلينا بموهبة سولجنتسين الأدبية . وعرضت عليه عائلة تشوكوفسكى استخدام شقتها فى موسكو فى أى وقت شاء . ولكن مع توسع دائرة معارفه وأصدقائه الجدد انصرف عن قدامى معارفه وأصدقائه . بل إن اهتمامه بعمله جعله يهمل ناتاليا زوجته . ولما فاض بها الكيل وتأكدت من صلاته بنساء أخريات أرسلت إليه تهدده بالانفصال ثم الطلاق إذا لم يعد إلي بيت الزوجية فى ريازان .

وفى تلك الفترة انعقد المؤتمر الثالث والعشرون للحزب الشيوعى فى موسكو لأول مرة بعد سقوط خروتشوف . وأصبح الواضح أن الحزب آثر اتباع سياسة التشدد الأيديولوجي وكبح جماح الأدباء المنشقين والمنفلتين .

وشن شولوخوف المعروف بتأييده لسياسة التشدد فى هذا المؤتمر هجوما عاتيا على المنشقين سنيافسكى ودانييل ، وخاصة بعد أن انبرى للدفاع عنهما ثلاثة وستون كاتبا روسيا من بينهم تشوكوفسكي واهرنبرج وشلوفسكى وكافيرين ودوروش من الجيل القديم وفوانوفيتش واخمادولينا

واكودازافا ودومبروفسكى وساموالوف وموريتس من الجيل القديم. والغريب فى الأمر أن سولجنتسين رفض التوقيع على المناشدة التى تقدم بها هؤلاء الكتاب إلى السلطات السوفيتية للعفو عن سنيافسكى ودانييل لتجرؤهما على نشر كتاباتهما فى الغرب . ومما يزيد من غرابة موقف سولجنتسين أنه هو نفسه فعل ما سبق لزميليه الأديبين أن فعلاه فقد قام بتهريب بعض قصصه إلى الخارج على أمل نشرها . ورغم أن جان بول سارتر نشر لسولجنتسين بعض قصصه فى مجلته المعروفة «العصور الحديثة» فإن خجله وكبرياءه منعا من مقابلة سارتر الذى قام مع سيمون دى بوفوار بزيارة موسكو فى ربيع عام ١٩٦٦.

وفى صيف عام ١٩٦٦ أرسل مؤلفنا خطابا إلى الرئيس السوفيتى ليونيد برجينيف يشكو فيه من مصادرة أوراقه الخاصة ومن هجوم الحزب الشيوعى عليه، واتهامه بأنه جاسوس للألمان يخون بلاده ويتعاون معهم . وأشار إلي بلائه الحسن فى الحرب ضد القوات النازية وحصوله علي ميداليتين تقديرا لشجاعته وقد نما إلى سمع مؤلفنا أن كبار المسئولين

فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى تداولوا قراءة مخطوطتيه «الدائرة الأولى» و«وليمة المنتصرين» ودمغوهما بعداء النظام السوفيتى . وينطبق هذا بجلاء على «وليمة المنتصرين» حيث أنه أدخل تعديلات على «الدائرة الأولى» من شأنها تلطيف وكسر حدة هجومه على النظام السوفيتى مركزا هجومه فيها على الستالينية . ولم يتلق سولجنتسين ردا على خطابه إلى برجينيف . ولكن يبدو أن السلطة خففت من وطأة تضييق الخناق عليه حيث أنها سمحت لاتحاد الكتاب السوفييت بمناقشة الجزء الأول من رواية «عنبر السرطان» فى الاجتماع الذى عقده فى نهاية عام ١٩٦٦ .

مشاكل ولغط حول رواية «عنبر السرطان» ومؤلفها يغازل الغرب سرا:

تدور رواية «عنبر السرطان» فى عام ١٩٥٥ (أى بعد مضى عام من وفاة ستالين) فى أحد المستشفيات المنعزلة تماما عن العالم الخارجى . ومن ثم فهى تشبه كلا من روايتيه «يوم فى حياة ايفان دينيسوفتش» و«الدائرة الأولى» اللتين تقع أحداثهما أيضا فى مؤسسة منغلقة ومنعزلة، مع فارق

واحـد هو أن أحـداث هـاتين الروايتين الأخـيـرتين تقع فـى معسكرات العمل فى حين آن أحداث «عنبر السرطان» تقع فى مستشفى كما، أسلفنا . وشخصيتا هذه الرواية الرئيسيتان هما أوليج كوستوفلتوف (وهو مثل المؤلف نفسه سجين سابق فى أحد معسكرات العمل ومنفى إداريا فى هذه المستشفى ويافيل روزانوف وهو مسئول كبير فى الحزب الشيوعى مصاب بالسرطان فى رقبته) ويمثل الصراع المحتدم بين هذين الرجلين الصراع بين المادية والنفعية السياسية والأنانية فى جانب ونكران الذات والروحانية والتعاطف فى جانب آخر . وهناك بطبيعة الحال شخصيات روائية أخرى استقاها المؤلف من واقع الحياة مثل العجوزين المنفيين اللذين يحملان اسم كاديمنز.

وكعادته قدم سولجنتسين روايته الجديدة «عنبر السرطان» إلى «مجلة العالم الجديد» فاجتمع مجلس تحريرها لاتخاذ قرار بشأنها . يقول مؤلفنا فى هذا الصدد بأن المحررين الأصغر سنا أمثال لاكشين وماريا موف وبرزر صوتوا لصالح نشر الرواية فى حين أن المحررين الأكبر سنا أمثال ديمنتيف

وكوندرانوفيتش وساتش عارضوا نشرها بسبب افتقارها إلى الشكل وكذلك بسبب شدة إثارتها الجدل. ويقال إن أحد المحررين الجدد واسمه أنجور فينوجرادوف قال من فرط تحمسه لنشر الرواية : «إذا لم تقم بنشر هذه الرواية فليس هنا مبرر لوجودنا» وأيضا دافع تفاردوفسكى بقوة عنها غير أنه اقترح على المؤلف إجراء بعض التغييرات فوافق على ذلك. ولكنه عاد وطلب إجراء المزيد من التعديلات . ويرجع السبب الحقيقى فى تخوف تفاردوفسكى من نشر «عنبر السرطان» إلى أن مجلة «العالم الجديد» كانت تواجه مشاكل كثيرة مع الرقابة التى منعت نشر رواية «الموعد الجديد» لأكسندر بيك و«يوميات الحرب» لسيمونوف . وبطبيعة الحال خاب أمل سولجنتسين الذى فرح بتحسن علاقته بتفاردوفسكى واستبشر خيرا على يديه. وبدأت الشكوك تساوره من جديد فى أن عدويه القديمين ديمنيف وساتش كان يحرضان تفاردوفسكى ضده . ولهذا سحب سولجنتسين رواية «عنبر السرطان» من «المجلة الجديدة» وقرر ترويجها سرا فى شكل مخطوطات على نحو ما فعل كثير من الأدباء المنشقين

مرتضيا بذلك وصول الرواية إلى عدد ضئيل من القراء حيث أن هذا أفضل من حجبها عن القراء مثلما حدث لرواية «الدائرة الأولى» التى لم يطلع عليها أحد . ولم ير أن هناك ما يدعو لإجراء التغيرات التى طلبها تفاردوفسكى منه وأعاد الفقرات المحذوفة إلى مكانها . وشجعه على هذا أن السلطات السوفيتية لم تلحق به أى أذى بسبب مخطوطة مسرحيته المناهضة للنظام السوفيتى «وليمة المنتصرين» كما كان يتوقع وشعر مؤلفنا بالارتياح عندما حقق الاستقلال الكامل عن تفاردوفسكى و«مجلة العالم الجديد» .

وأخيرا نجح مؤلفنا فى إقناع النادى المركزى للكتاب فى موسكو بمناقشة روايته «عنبر السرطان» وفى اجتماعها المنعقد فى ١٧ نوفمبر ١٩٦٦ . وكان معظم الحاضرين من المتعاطفين مع سولجنتسين باستثناء زويا كيدرينا التى لعبت دورا فى اتهام سنيافسكى ودانييل بخيانة بلادهما . ولم يرق هذا فى عين الأديب فكتور نكراسوف فانسحب من القاعة مع عدد كبير من الحضور قبل أن تكمل زويا كيدرينا حديثها . ورغم أن بعض الحاضرين وجهوا انتقاداتهم إلى الرواية فان

غالبيتهم عبروا عن تعاطفهم معها ودافعوا عن نشرها . وأثنوا عاطر الثناء عليه وشبهوه بتولستوي وكلاسيكيات القرن التاسع عشر من ناحية وشوامخ الأدباء الروس أمثال بابل وبولجاكوف وبلاتونوف وزامياتن وزابولوتسكى وزوتشنكو وأخماتوفا وباسترناك ناحية أخرى . كما انبرى للدفاع عن «عنبر السرطان» الروائى المخضرم فينيامين كافرين والناقد أركادى بيلينكوف الذى أمضي ثلاثة عشر عاما فى معسكرات العمل بسبب كتاباته المناهضة للنظام السوفيتى . فضلا عن أن الأديب بيلينكوف أشاد به . وفى نهاية النقاش نهض سولجنتسين ليشكر الحاضرين على حسن ظنهم به وشدة حاجته إلى أرائهم النقدية السديدة . وردا على النقد الموجه إليه حول انتصاره على تصوير الأحداث الجارية فى مستشفى طشقند بمعزل عن المجتمع السوفيتى قال إنه بات مقتنعا بأن يستحيل على الأدب تصوير العالم ككل لأن الأدب على أحسن تقدير لا يمكنه أن يصور غير بعض أجزاء هذا العالم . والجدير بالذكر أن مؤلفنا أرسل رواية «عنبر السرطان» إلى مجلتين تصدران فى الأقاليم بعيدا عن موسكو

هما «مجلة النجمة» و«مجلة الامتداد» وذلك عندما تعثرت مفاوضاته مع مجلة «العالم الجديد» .

وفى ختام الاجتماع أوصى المجتمعون بنشر الرواية .

كما أن الصحف والمجلات أوردت على صفحاتها المناقشات التى دارت حولها ، الأمر الذى أدى إلى زيادة أعداد نسخ الرواية المتداولة سرا بخط اليد أو على الآلة الكاتبة وبزيادة عدد قرائها وتعليقات الإذاعات الأجنبية عليها شعر المسئولون السوفيت بأن نوعا من الضغط يمارس عليهم..

وفى نوفمبر ١٩٦٦ طلب منه مراسل صحيفة يابانية اسمه كوموتو سيدز اجراء حوار معه فوافق دون استئذان السلطات السوفيتية فى الأمر ، ولكنه اشترط أن يتم اللقاء فى مكان عام هو نادى الكتاب حتى لا يبدو أنه يخفى شيئا عن السلطة . وجاء المحاور بصحبة المصور والمترجم مما ترك الانطباع بأن المقابلة ليست علنية فحسب بل أنها تتم بشكل رسمى ، وأمام الكاميرات قام سولجنتسين بتسليم إجاباته المكتوبة إلى الصحفى اليابانى الذى اتضح أن القوات السوفيتية أسرته

فى فترة الحرب الثانية وزجت به فى معسكر عمل لمدة ثلاثة أعوام .

وفى إجاباته أشار مؤلفنا إلى إحجام دور النشر عن نشر روايته «الدائرة الأولى» كما أشار إلى عدم نشر مسرحيته «القدم الرقيقة والمومس» و «شمعة فى مهب الريح» وقد أكد مؤلفنا أن واجب الكاتب لا يقتضى منه العمل على اقرار السلام فحسب بل القتال من أجل العدالة الاجتماعية أيضـــا..

درج سولجنتسين على عدم الظهور فى المحافل العامة ولكن صديقا التقى به بالصدفة فى الشارع وعرض عليه القاء محاضرة فى معهد كيرتشاتوف للفيزياء فوافق على ذلك ، وعندما دخل القاعة أدهشه أن يجد فى انتظاره نحو ستمائة مستمع . وألقى على مسامعهم مطالعات من روايته «عنبر السرطان» ومسرحيته «شمعة فى مهب الريح» وروايته المحظورة «الدائرة الأولى» فاستقبل الحاضرون مطالعاته بحفاوة بالغة ، وحين انتشرت أخبار وجوده فى موسكو انهالت عليه دعوات أخرى لإلقاء المحاضرات.. غير أن

السلطات تدخلت لإلغائها فى اللحظة الأخيرة . فعلى سبيل المثال استقبل سولجنتسين سيارة «أوصلته إلى معهد كاربوف ليجد إعلانا معلقا على بابه يقول إن المحاضرة ألغيت بسبب وعكة ألمت به الأمر الذى زاده عنادا وتشبثا بإلقاء المحاضرات ، وأخيرا سنحت له فرصة الالتقاء بجمهور المعجبين به عندما دعاه معهد لازاريف للدراسات الشرقية لعقد لقاء أدبى وفكرى طالع فيه فصلين من رواية «عنبر السرطان» وسأله أحد الحاضرين عن السبب فى تخليه عن سياسة عدم حضور اللقاءات الأدبية والفكرية فأجاب بأن السبب يرجع إلى أن المخابرات السوفيتية تريد فرض وصايتها على الفنون والآداب وأنها صادرت روايته «الدائرة الأولى» إلى جانب ملفاته وأوراقه الخاصة رغم أنه لم يكن يزمع نشرها . كما أنها اقتطعت بعض المقتطفات خارج سياقها بهدف التشهير به ومن ثم فقد وجد لزاما عليه أن يدافع عن نفسه وأن يقرأ أمام جمهور الحاضرين أكثر فصوله رواية «الدائرة الأولى» تحديا للنظام السوفيتى وفضحا لطغيانه . ولم تمض أيام حتى أخذ سكان موسكو يتناقلون هجومه على ممارسات المخابرات

السوفيتية القمعية وزاد من اهتمام الناس به اختفاؤه المفاجئ في أعماق الريف حتى يكتب رواية «أرخبيل الجولاج» التي استطاع في الفترة من ديسمبر ١٩٦٦ حتى فبراير ١٩٦٧ أن ينتهي من إعادة كتابة وتبيض اكثر من ألف وخمسمائة صفحة فيها ، وكان يعمل كالمتاث من أجل سرعة الانتهاء من روايته لمدة ستة عشر ساعة في اليوم الواحد على فترتين تبدأ الأولى من الثانية بعد منتصف الليل حتى العاشرة من صباح اليوم التالي ثم يخلد للراحة لمدة ساعة ينخرط بعدها في العمل من الساعة الحادية عشر صباحاً حتى السابعة مساء . ثم يخلد للنوم الساعة الثامنة مساء . وهكذا دو اليك .

وفي عزلته في قلب الريف الروسي كان الراديو الترانزيستور وسيلته لمعرفة ما يدو في العالم الخارجي وخاصة عن طريق الإذاعة البريطانية وصوت الحرية. عول سولجنتسين كثيرا على حواره مع الصحفي الياباني سيوز لتوصيل صوته إلى الغرب ولكن أمله خاب عندما اكتشف أنه ليس لحواره أي صدى في البلاد الغربية . وخطرت له فكرة شديدة الجموح والخطورة عليه تتلخص في إرسال خطاب

مـفـتـوح إلى نحـو مـائة من زمـلائه الأدبـاء يهـاجم الرقـابة السوفيتية . وشجعه على هذا أن قضية سنيافسكى ودانييل أثمرت كثيراً من مثل هذه الخطابات المفتوحة دون أن يلحق بمرسليها أى أذى ، فتحين فرصة مؤتمر الكتاب السوفيتى المزمع عقده فى ربيع ١٩٦٧ لتنفيذ فكرته ، ولكن سماحة النظام السوفيتى مع المعارضة سرعان ما اختفت ، فقد أضافت السلطات السوفيتية فقرتين إلى قانون العقوبات بهدف محق الدعايات المناهضة للنظام السوفيتى وقمع المظاهرات غير المصرح بها ، ويجدر بالذكر أن نقول إن هذه الاجراءات الجديدة المقيدة للحريات قوبلت بالاعتراض الشديد من قبل الكتاب والمثقفين والمفكرين أمثال شوستاكوفتش وكافيرين وميخائيل دوم وايجور تام وذلك العالم المنشق الجديد اندريه زاخاروف الذى أصبح فيما بعد يشار إليه بالبنان ، وزاد فى توتر الجو العام أن السلطات السوفيتية ألقت القبض على يورى جالانسكوف لنشره صحيفة توزع سرا بعنوان «العنقاء ٦٦» كما أنها ألقت القبض على الكسندر جنزبرج لأنه ألف كتابا عن محاكمة سنيافسكى

ودانييل وارسال نسخة منه إلى الغرب .

فضلا عن إصدار حكم بالسجن فى معسكر عمل ضد فكتور كوستوف الذى تحدى المحكمة ورفض الاعتراف أمامها بأنه مذنب.

لم يجد سولجنتسين أمامه غير مجلة «العالم الجديد» ينشر فيها روايته «عنبر السرطان» الأمر الذى جعله يحاول استرضاء رئيس تحريرها تفاردوفسكى الذى كانت السلطة غير راضية عنه آنذاك . فقد قامت بطرد أو فى صديقين له (ديمنيف وساتش) دون استئذانه أو حتى استشارته ، ورغم أن تفاردوفسكى كان معجبا بالجزء الثانى من «عنبر السرطان» أكثر من إعجابه بالجزء الأول فإنه أمله فى نشر هذه الرواية كان ضعيفا .

وعلى أية حال دب النزاع بين الرجلين مرة أخرى بسبب أقدام سولجنتسين على نشر بعض فصول «عنبر السرطان» خارج الاتحاد السوفيتى . وعندما تشاجرا قال تفاردوفسكى لمؤلفنا إنه لن ينشر «عنبر السرطان» حتى لو كان أمر نشرها بيده تماما . وسأله سولجنتسين عن السبب فأجابه

تفاردوفسكى محتدا : «لأنك ترفض قبول النظام السوفيتى وترفض أن تغفر لهذا النظام أى خطأ .. إنك ترفض أن تنسى أى شئ ولديك ذاكرة أقوى مما ينبغى» . فقال مؤلفنا إنه يتذكر نظام السجون ومعسكرات العمل ولا يمكن لأية دولة أن تعيش سليمة إذا كانت تعانى من وجود أورام بداخلها ، ثم استطرد قائلاً إن خروتشوف الذى هدم السجون ومعسكرات العمل التى أقامها ستالين مسئول عن إقامة سجون ومعسكرات عمل لا تقل فى بشاعتها عن سجون ستالين . ثم أردف أن القراء يتداولون قراءة رواية «عنبر السرطان» سرا ولا يمكن لأحد أن يمنع تداولها وانتشارها وحتى إذا مات فسوف تبقى كلماته محفورة فى ذاكرة الناس الذين لن يطلبوا تغيير أى حرف فيها . وزاد هذا التحدى حنق تفاردوفسكى عليه . والذى لم يعرفه تفاردوفسكى آنذاك أن سولجنتسين كان بالفعل قد أرسل فصولا من «عنبر السرطان» إلى بعض المجلات الاجنبية من أجل نشرها . فضلا عن أنه اتصل بالصحفى المترجم بافيل ليكو وسلمه بعض الفصول لترجمتها إلى اللغة السلوفاكية . ورأت بعض

قصصته طريقها إلى النشر فى مجلة «حوار» الانجليزية .
وفى التصريحات التى أدلى بها للصحفيين الأجانب اعترف بأن ظروفه لم تسمح بالاطلاع على الآداب الغربية ، مضيفًا أنه لا يتوقع فى الأدب الغربى أن يكون بنفس عمق الأدب الروسى لأن التقلبات العنيفة التى شهدها المجتمع الروسى وأوربا الشرقية عموما دفعت الكتاب والمؤلفين فى الشرق إلى الغوص فى أعماق النفس البشرية وفيما يجرى فى السجون ومعسكرات العمل، فى حين أن استقرار الغرب يحول دون ظهور أدب السجون . والرأى عند مؤلفنا أن الكاتب يجب أن يتوقع الاضطهاد الذى هو جزء من وظيفته أو عمله، وهو يمتدح الرواية التى تخلو من وجود بطل واحد.

انتهز سولجنتسين فرصة الزيارة التى قامت بها أولجا كارليسل الصحفية الامريكية المنحدرة من جذور روسية والتى قام والدها فاديم أندرييف بتهريب شرائط ميكروفيلم «الدائرة الأولى» ، كان هدف أولجا من زيارة روسيا إعداد مجموعة قصائد من الشعر السوفيتى . واعتبر مؤلفنا مقابلته لهذه الصحفية منحة من السماء ، وما أن التقى بها حتى وصف

لهـا تفـاصـيل المتـاعب والمضـايقـات التـى يكابدها علـى يد المخابرات السوفيتية التى تسعى إلى إخراسه ، وأسر لها بأنه سلم الصـحفى ليكو الجزء الأول من «عنبـر السـرطان» وطلب منها أن تسعى إلى نشر رواية «الدائرة الأولى» فى أمريكا ثم فى البـلاد الأوربيـة قـائلا لهـا : «إنه عـمل كـبيـر يتـضـمن كل حياتى» ، مضيفا بـأن نشره سوف يكون لطمـة عنيفـة للقيادة السوفيتية . وأنه يريد اصابة الرأى العام العالى بالذهول وأن يتضح جرائم الطغمة الحاكمة فى الاتحاد السوفيتى . وأيضا طلب سـولجنتـسين من أولجـا توخى السـرية التـامـة وعـدم الإشـارة إلى أن النشـر جـاء بناء على طلبـه حـتى لا يلحق به الأذى . وأيضـاً أسر إليـها بعزمـه على إرسـال خطاب مـفتـوح إلى الأدباء الروس المشـتـركين فـى مؤتمر الكتـاب وطلب منهـا إذاعـة هذا الخـبـر فى وسـائل الإعـلام الغـربيـة فـوعـدته بالاضطلاع بهذه المهمة الجسيمة .

واتصلت بوالدها الذى يعيش فى باريس واسـترجعت منه مـيكروفيلم «الدائرة الأولى» الذى رأى طريقـه إلى أمـريكا فى نهـاية ابريل ١٩٦٧ . وتحـرزا من أن يحـدث له مكروه سلم

سولجنتسين مخطوطة روايته «أرخبيل الجولاج» إلى أصدقائه الأوفياء ، ثم توفر على إعداد خطابه المفتوح الذى يعتزم توجيهه إلى الأدباء الروس، بادئا إياه بشن هجوم عاما على الرقابة الخانقة التى يفرضها النظام السوفيتى على المؤلفين والأدباء ثم قام بمساعدة زوجته ناتاليا وعدد من الأصدقاء بكتابة ٢٥٠ نسخة من الخطاب على الآلة الكاتبة . وقبل افتتاح المؤتمر بعدد قليل من الأيام أرسل بالبريد من أماكن متفرقة هذا العدد الضخم من الخطابات حتى لا يتجنب إثارة شكوك الرقابة . وعندما تم افتتاح المؤتمر يوم ١٨ مايو ١٩٦٧ كانت الخطابات قد وصلت إلى أصحابها الذين اختارهم بعناية فائقة باعتبارهم أخلص العناصر وأشرفها .، ثم تولى البعض نسخها سرا بحيث لم يكن هناك أى أديب مشترك فى المؤتمر لم تصله نسخة من الخطاب المفتوح الذى أمهره سولجنتسين بتوقيعه.

قررت السلطات السوفيتية عقد المؤتمر العام للكتاب السوفيت بمناسبة مرور خمسين عاما على استيلاء البلاشقة على الحكم ولكنها خشيت أن يتسلل إليه المنشقون

والمعارضون للنظام السوفيتى فتعمدت اقتصار الدعوة على الموثوق بولائهم لهذا النظام . ولهذا كادت قاعات المؤتمر أن تخلو من الحاضرين ولا شك أن خطاب الاحتجاج الذى سطره سولجنتسين وأرسله إلى جميع أعضاء اتحاد الكتاب سبب لغطاً شديدا بينهم ، وينقسم هذا الخطاب المثير للجدل إلى ثلاثة أجزاء، يعالج الجزء الأول منها مشكلة الرقابة المفروضة على الأدب السوفيتى على نحو صريح لم يعهده النظام السوفيتى منذ عقد العشرينات فى القرن العشرين ذهب سولجنتسين إلى أن الرقابة السوفيتية عمل غير مشروع من الناحية الدستورية حيث أن الدستور السوفيتى لم ينص عليها مطلقا . وفضح سخافات الرقابة السوفيتية التى حظرت روائع ديستوفسكى وباسترناك ، مما أفقد الروس هيبتهم الثقافية فى العالم . وطالب مؤلفنا بإلغاء الرقابة على الأدب وإعطاء الناشرين السوفيت استقلالهم ، وفى الجزء الثانى من الخطاب عالج سولجنتسين دور اتحاد الكتاب وانحى عليه باللائمة لتقاعسه عن الدفاع عن عدد كبير فى الكتاب السوفيت الذين تعرضوا للاضطهاد والتنكيل وطالب مؤلفنا

النظام بالسماح بحقهم فى الدفاع عن أنفسهم حتى لا تتكرر الانتهاكات الستالينية البشعة . ثم انتقل فى الجزء الثالث والأخير من الخطاب إلى مطالبة اتحاد الكتاب بدراسة حالته ورفع الظلم الواقع عليه مثل الامتناع عن نشر أعماله والتشهير به فى اجتماعات الحزب الشيوعى ورفض تمثيل مسرحياته وإلغاء المحاضرات التى ينوى إلقاءها.

وعندما بدأ مؤتمر الكتاب أعماله تجاهل الاشارة إلى خطاب سولجنتسين ، ولكن أديبة تدعى فيرا كيتيلينسكايا انبرت للدفاع عنه وعابت على المشتركين فى هذا المؤتمر تجاهله لأديب روسى على هذا القدر العظيم من الموهبة واستحسن الحاضرون كلامهما فاستقبلوه بالتصفيق الشديد . كما أن الحاضرين فى المؤتمر تلقوا برقيات تطالب بضرورة تلاوة نص خطاب سولجنتسين أثناء الاجتماعات . وانبرى الأديب الليبرالى تفاردوفسكى للدفاع عنه بحماس شديد حتى استطاع إقناع سكرتارية اتحاد الكتاب أن تجتمع بعد انفضاض المؤتمر لمناقشة كيفية الاستجابة . لهذا الخطاب وبعدم اتخاذ أى اجراء انتقامى ضد صاحبه وكذلك طالبها

بإصدار بيان مفاده أن سجل سولجنتسين فى الحرب ضد النازية لم تشبه أية شائبة.

وفى ٨ يونيه ١٩٧٨ سعى تفاردوفسكى إلى إقناع سولجنتسين بالحضور إلى مكتب مجلة «العالم الجديد» لمقابلة عدد من أعضاء اتحاد الكتاب لمناقشته فى الخطاب الذى بعث به إليهم ، وعندما قابل مؤلفنا كلا من فورونكوف وجورجى ماركوف اندهش لأن المقابلة كانت ودية وتخلو من الرغبة فى تأديبه والانتقام منه . قال سولجنتسين دفاعا عن نفسه إن تجاهل اتحاد الكتاب الكامل له ولشكواه هو السبب الذى دفعه إلى ارسال الخطاب إلى أعضاء اتحاد الادباء وأنكر أنه قام بتهريب نسخة من خطابه إلى الغرب بهدف إحراج الاتحاد . ومن ناحيته انكر ماركوف أن مجلة «العالم الجديد» رفضت نشر روايته «عنبر السرطان» .«وعبر فورونكوف وجورجى ماركوف عن انزعاجهما بسبب انتشار «عنبر السرطان سرافى شكل نسخ مكتوبة على الآلة بين عدد كبير من القراء وكذلك انتشار بعض أجزاء روايته «الدائرة الأولى» سرا بينهم. وطلب تفاردوفسكى الإسراع بنشر «عنبر

السرطان» على الفور لقطع خط الرجعة على الغرب وأعداء الاتحاد السوفيتي وأضاف أنه سوف يبادر بنشر أجزاء منها في مجلة الجازيت الأدبي توطئة لنشر النص الكامل لهذه الرواية فيما بعد . عندئذ غمرت سولجنتسين نشوة الإحساس بالنصر . ولكن جذوة فرحته ما لبثت أن أنطفأت فقد اعترضت الإدارة الثقافية التابعة للحزب الشيوعي على ذلك بايعاز من ديمتسيف . وحتى يضع هذا الرجل العراقيل أمام سولجنتسين اقترح أن يقوم جميع اعضاء سكرتارية اتحاد الكتاب البالغ عددهم ٤٢ عضوا بقراءة «عنبر السرطان» و «الدائرة الأولى» و «وليمة المنتصرين» قبل اتخاذ أى قرار بشأن نشرها .

كان سولجنتسين يزمع البدء فى تأليف أولى رواياته عن الحرب العالمية الأولى والثورة البلشفية بعنوان «أغسطس ١٩١٤ »، ويصور فيها الحملة التي قادها سامسونوف ضدالألمان على الجبهة الشرقية وهى حملة فاشلة انتهت باندحار القوات الروسية اندحاراً مخزيا فى معركة تانتبرج. مضت شهور متصلة من الإرجاء والتسويف من جانب

سكرتارية اتحاد الكتاب دون نشر «عنبر السرطان» وبعد طول مماطلة اجتمعت سكرتارية اتحاد الكتاب برئاسة الأديب فيدين لمناقشة موضوع نشر هذه الرواية ولكنه بدأ حديثه بلوم سولجنتسين على الخطاب الذى سبق أن أرسله إلى المشاركين فى مؤتمر اتحاد الكتاب وأيضا أشار فورونكوف إلى علاقة سولجنتسين المشبوهة بالغرب . وبطبيعة الحال انبرى سولجنتسين للدفاع عن نفسه يناصره أفانسنى سالينسكى وكونستانتين سيمونوف وتفاردوفسكى الذين عبروا عن تحمسهم لنشر «عنبر السرطان» كما عبروا عن تحمسهم لإصدار بيان مفاده أن سجل مؤلفنا فى الحرب ضد النازية نظيف ولا تشوبه شائبة : غير أن فيدين أصر على أن يبدأ سولجنتسين باصدار بيان يشجب فيه استغلال الغرب لاسمه . فضلا عن أنه الكسى سيركوف الذى سبق أن نصب الشرك للإيقاع بباسترناك انبرى للهجوم على سولجنتسين قائلا : فى نشر رواية «عنبر السرطان» سوف يعود بالضرر على الاتحاد السوفيتى ومؤكدا أن كتابات سولجنتسين تفوق كتابا باسترناك فى خطرها لأن كتابات باسترناك لا تربطها الحياة

صلة فى حين أن كتابات سولجنتسين شديدة الارتباط بالواقع وانضم إلى معسكر الادباء المعادين لمؤلفنا مؤلف كتب الأطفال سيرجى باروزدين الذى قال إن سولجنتسين عار عن الموهبة الأدبية وأن روايته «عنبر السرطان» مقبضة ومملة.

وفى حين أصر سولجنتسين أن يبادر أعضاء اتحاد الأدباء بنشر رواية «عنبر السرطان» لقطع الطريق على الغرب والحيلولة دون تهريب مخطوطتها إلى الخارج أصرت سكرتارية اتحاد الكتاب على أن يبدأ سولجنتسين بانكار وجود أية صلة تربطه بالغرب وبدأ الجو يتكهرب عندما اقترح أثنان من أعضاء السكرتارية طرده من اتحاد الكتاب وكذلك اعترض الكاتب الشهير شولوخوف على استمرار عضويته فى الاتحاد . وفى ٣ اكتوبر ١٩٦٧ قال محرر البرافدا ميخائيل زيميانين عن سولجنتسين وأن أفضل أسلوب للتخلص من جنونه هو طرده إلى بلاد الغرب الرأسمالى . وظل هذا التراشق متبادلاً بين سولجنتسين وشانئيه حتى ٥ يناير ١٩٦٨ حين طلبت منه سكرتارية اتحاد الكتاب مرة أخرى الاجتماع لمناقشة موضوع نشر «عنبر السرطان» وكالعادة

احتدم الخلاف بين المتحمسين لنشرها أمثال تفاردوفسكى وسيمونوف والمعارضين لها أمثال فيدين وشولوخوف ولينوف وسيركونى وتيخونوى وميخاليكوف . ورغم أن المعارضين لنشر «عنبر السرطان» نجحوا فى حظر نشرها، فإن صلابة مؤلفها وتحديه للسلطة جعلت منه بطلا اسطوريا يمثل مقاومة الطغيان والاستبداد ، وهكذا صار سولجنتسين رمزاً للملايين من الروس البؤساء والمطحونين.

ورغم عزوف السلطات السوفيتية عن نشر عملية «عنبرالسرطان» و «الدائرة الأولى» فإنه واصل تأليف ملحمته الرائعة أرخبيل الجولاج قاضيا حوالى آربعة عشر ساعة يوميا فى العمل المضنى الشاق حتى أخذت صحته تتدهور ويعانى من الصداع وضغط الدم المرتفع كما داهمه الأرق وآلام اللومباجو وبسببه تدهور حالته الصحية نصحه الأطباء أن يعيش لفترات طويلة فى مصيف مطل على البحر الأسود .

وفى تلك الفترة وصل إلى موسكو رسول من طرف أولجا كارليسل التى تساءلت إذا كان سولجنتسين قد سمح للايطاليين بترجمة وطبع روايته «الدائرة الأولى» قال

سولجنتسين إن هذا لم يحدث قط كما أنه طلب منها تنفيذ أتفاقها بشأن نشر هذه الرواية فى أمريكا . وفى موسكو ذاعت سرا طبعات فوتوفرافية وعلى الآلة الكاتبة لرواية «عنبر السرطان» وبلغ سعر النسخة الواحدة فى السوق السوداء ٧٥ روبلا ، وأيضا حمل أولجا كارليسل رسالة تنقلها إلى الغرب مفادها إنه على وشك الانتهاء من عمل أدبى كبير وبالغ الأهمية وإنه سوف يعهد إليها بنشره في الغرب . وهو يقصد بهذا العمل الكبير «ارخبيل الجولاج» .

ونحو عام ١٩٦٨ تعرف سولجنتسين بأستاذ رياضيات فذ فى جامعة موسكو اسمه ايجور شافاريفتيش راق له بسبب دفاعه عن المنشقين جنزبرج وجالاسكوف اللذين قدما إلى المحاكمة دون أن يكترث لانتقام السلطات منه . وفى ١٤ ابريل ١٩٦٨ استمع سولجنتسين إلى محطة الإذاعة البريطانية ويعرف منها أن الملحق الأدبى لصحيفة التايمز نشر بعض فصول من روايته «عنبر السرطان» فقام بتوبيخ سكرتارية اتحاد الكتاب على تقاعسها فى نشر «عنبر السرطان» مما يعطى الغرب فرصة السبق إلى نشرها ، وفى

يوم من الأيام بلغه أن تفاردوفسكى يبحث عنه ويريد أن يراه بأسرع وقت ممكن . وعندما قابله سولجنتسين اتضح أن انزعاجه يرجع إلى أن اتحاد الكتاب السوفيتى تلقى برقية من دار النشر الروسية فى المنفى جرانى تفيد انها تزمع نشر روايته «عنبر السرطان» ومما دعا إلى الانزعاج اكثر وأكثر أنه نما إلى علم سولجنتسين أن الناشرين البريطانى بودلى هيد والايطالي موندا دورى التجأ إلى القضاء كل منها يزعم أحقيته فى نشر ترجمة «عنبر السرطان»، أصاب الفزع مؤلفنا واستنكر لجوء كلا الناشرين إلى القضاء مؤكدا أنه لم يسلم مخطوطة روايته لأى أحد وأنه لم يعط أيا منهما تصريحا بالنشر وأضاف أنه لن يسمح مطلقا لأى كائن من كان أن يعد روايته إعداد سينمائيا أو مسرحيا . غير أن موقفه اتسم بالغرابة والغموض معا . فهو يتحدث هنا عن شئ لم يكن واردا بالمرة وهو تقديم «عنبر السرطان» فى قالب سينمائى أو مسرحى . فضلا عن أن سولجنتسين أشار إلى رفضه التعجل وما ينجم عنه من سوء ترجمة . وهي مسألة لم تكن تهم السلطان السوفيتية فى قليل او كثير بطبيعة الحال أثار موقف

سولجنتسين الذى ينتقد الغرب بميوعه حفيظة السوفيت عليه .

وأخيرا أتم سولجنتسين ملحمته الأدبية «أرخبيل الجولاج» فى ٢٢ يونيه ١٩٦٨ ثم قام بنسخ عدد كبير منها استعدادا لتهريب نسخة منها إلى الغرب مع شخص موثوق به هو فاديم أندرييف . والجدير بالذكر أن احتجاجه على نشر «عنبر السرطان» جاء متأخراً فقد أرسل إليه الناشر الايطالى موندادورى نسخة من هذه الرواية مطبوعة باللغة الروسية . وبذلك يكون الغرب قد نشر له روايتين هامتين هما «عنبر السرطان» و «الدائرة الأولى» وبذلك ايضا تدمرت كل الجسور التى تربطه بدوائر النشر السوفيتية. وفى تلك الفترة وردت أنباء عن عزم الناشر الأمريكى هادبر أند رو نشر ترجمة انجليزية لروايته و«الدائرة الأولى» .

قامت السلطات السوفيتية ولم تقعد وهبت صحيفة «الجازيت الأدبى» لانتقاده نقدا لاذعا متهمة إياه باستغلال أجهزة الاعلام الغربية واستعدائها على الاتحاد السوفيتى، واستنكرت تأخره فى إدانة ناشريه الغربيين، الأمر الذى أعطى الغرب فرصة للتشنيع عليه وتجريحه . غير أن أنصار

سولجنتسين هبوا للدفاع عنه ومن بينهم ليديا تشوكوفاسكايا التى قرظت هجومه العاتى على الستالينية ومبدأ عبادة الفرد الواحد .

تفاقم الخلافات الزوجية وطرد سولجنتسين من اتحاد الكتاب :

على الرغم من الحصار الذى فرضته السلطات السوفيتية عليه فقد أصاب سولجنتسين شهرة عريضة ، ولكن نجاحه فى حياته العامة قابله فشل ذريع فى حياته الخاصة، إذ أصبح زواجه مهددا بالانهيار وهو فى الخمسين من عمره ، وفى ليلة عيد ميلاده الخمسين طلب من زوجته ناتاليا أن ترسل بالبريد خطابا إلى إيلينا ابنة ليديا تشوكويسكايا مفاده إنه ينوى زيارة موسكو فى غضون ثلاثة أيام والنزول خفيفا على الفيلا التى تملكها عائلتها . فهاجت زوجته وماحت واتهمته بالأنانية لأنه لم يفكر فى اصطحابها معه لزيارة موسكو . ثم انخرطت فى النشيج والبكاء لأن الغيرة من إيلينا كانت تأكل قلبها..

بعد أن طبقت شهرة سولجنتسين الآفاق انهمر عليه سيل

من الخطابات التى أرسلها إليها المريدون والمعجبون من كل حدب وصوب . وتطوع لنسخ مخطوطاته جيش من هؤلاء المعجبين الذين رأوا منه ضميرا يمثل ضحايا البطش الستالينى . وكانت إيلينا إحدى المتطوعات المتفانيات فنذرت حياتها لخدمته الأمر الذى جعلها موضع ثقته الكاملة . ويبدو أن فيض رجولة سولجنتسين وحيويته راق فى عين الكثيرات من المعجبات به .

شعرت زوجته ناتاليا بالوحدة بسبب كثرة أسفاره وبعده عنها لفترات طويلة والاختفاء فى أماكن مهجورة بسبب شعوره بعدم الأمان نتيجة السنوات الطويلة التى قضياها فى معسكرات العمل . وزاد من حدة شعورها بالوحدة علمها بعلاقته بالمرأة التى تعرف عليها فى لينينجراد، الأمر الذى جعلها كثيرة السؤال عن سكناته وحركاته وجعلها دائمة التفتيش فى جيوبه . وأيضا زاد من وطأة إحساسها بالوحشة والغربة انصرافه الكامل إلى الكتابة لتحقيق طموحاته الأدبية

كانت لمريدته ناتاليا سفيتلوفا خبرة سابقة فى نسخ

المخطوطات سـرا ، فـقـد تولت نسخ بعض أعـمـال الأدبيين المنشقين أو سبب ماندلستام وبولجاكوف، فضلا عن معرفتها الشخصية بعدد من المنشقين السوفيت امثال جنزبرج وليتفينوف ولاريسا بورجوارز وبأساليب نشر أدب المنشقين سرا .

وهكذا وقفت إلى جواره فى عقد الستينات من القرن العشرين مريدتان فتنا به هما ناتاليا سفيتلوفا التى عهد إليها بكل أنشطه السرية وكتاباته المخبأة التي أخفاها فى أماكن سـرية بعـيـدة عن الناس . أمـا مـريدته الاخـرى إلينا تشوكوفسكايا فقد نظمت له أوراقه وملفاته وسجلت لقاءاته وحواراته مع ضحايا السجون ومعسكرات العمل .

حـدثت القطيـعـة بين سـولجنتسين وزوجـتـه حين دخلت المستشفى لإزالة ورم فى ثديها ، فقد أهملها ولم يقم بزيارتها فى المستشفى . ومع تدهور علاقته بزوجته بلغته أخبار من الخارج تبعث على الرضا فقد وصلت إليه من الغرب أنباء عن نجاح روايتيه الأوليين «الدائرة الأولى» و «عنبر السرطان» كما علم أن فرنسا منحته جائزة عن أحسن كتاب أجنبى . أضف

إلى ذلك أن الاكاديمية الامريكية للفنون والعلوم فى بوسطن اختارته عضوا بها .

وفى عام ١٩٦٩ دعا سولجنتسين المنشق المعروف وزعيم المعركة الديموقراطية الجنرال جيرونوكو إلى زيارته فى سولوتشا ، ولاحظ الضيف وجود قطع من الورق صغيرة للغاية أمتلأت بخطه المنمنم ، فسأل عن السبب فى وجودها فأجابه مضيفه بأن هذا يسهل اخفاءها ، وأضاف أنه يحتفظ فى بيته ببعض المخابئ التى يخفى فيها أوراقه ووثائقه بعيدا عن العيون المتلصصة .

وفى نفس العام (١٩٦٩) حذره البعض فى أن اتحاد الكتاب ينوى طرده الأمر الذى ذكره بطرد أنا أخماتوفا وميخائيل روتشنكو منه عام ١٩٤٦، وطرد باسترناك عام ١٩٥٨ بعد نشره روايته المعروفة «الدكتور زيفاجو» فى الخارج . ووضع سولجنتسين يده على قلبه لأن طرده من الاتحاد معناه سقوطه فى وهدة الفقر والحرمان التأمينى الصحفى وجميع الامتيازات الاجتماعية .

ومن الأهمية بمكان أن نعرف أن تغيرا جذريا طرأ نحو

عام ١٩٦٩ على موقفه من الثورة البلشفية . فقد كان فيما مضى شديد الايمان بأهدافها الاشتراكية حتى فى فترة الزج به فى معسكرات العمل . أما الآن فهو يرفض أفكار كل من لينين وستالين ويعتبر الثورة البلشفية كارثة حلت بالبلاد . كما أنه رأى أنه كان يمكن تجنبها لولا قصر نظر وعناد قيصر روسيا . ذهب سولجنتسين إلى أن الثورة البلشفية ثمرة الأفكار الاوربية وليس لها وجود فى تربة التقاليد الروسية القومية . هذه الافكار الاوربية المستوردة هى السبب فى إشعال نار الثورة البلشفية عام ١٩١٧ .

توقع سولجنتسين أن ينتهى الأمر بترحيله من الأراضى الروسية . وعلمته الحياة فى معسكرات العمل أن يتحرى الكتمان والسرية فى كل ما يفعل ويعيش فى جو من التدبير والتآمر فى كل مشروعاته.

وبعد أن فرغ من كتابة روايته «أغسطس ١٩١٤» التى تتناول هزيمة روسيا فى الحرب العالمية الأولي عرض عددا من فصولها علي تفاردوفسكى فتحمس لها وعبر عن إعجابه بها قائلا: ان مؤلفها يفوق جوركى فى موهبته الأدبية وأنه لم

يطالع نثرا بمثل هذه الروعة من قبل.

وفى أكتوبر ١٩٦٩ توفى الأدبي كورنى تشوكوفسكى بعد صراع طويل مع المرض وهو فى السابعة والثمانين من عمره. كان هذا الأديب الكبير فى حياته متعاطفا مع سولجنتسين وقدم له خدمات جليلة استمرت حتى بعد وفاته. فقد أوصى كورنى تشوكوفسكى بجانب من ثروته الطائلة إلى مؤلفنا الذى عاش عليها نحو ثلاثة أعوام. وبعد أن ووري كورنى تشوكوفسكى الثرى عاد مؤلفنا إلى ريازان. وهناك قطع عليه خلوته فى ٣ نوفمبر ١٩٦٩ قادم هو سكرتير فرع ريازان لاتحاد الكتاب، وسلمه ورقة تطلب منه أن يبادر بحضور الجلسة التى يعقدها الاتحاد لمناقشة موضوع التعليم الأيديولوجى للكتاب. وأصابت مؤلفنا الدهشة عندما وجد سكرتير فرع الاتحاد فاسيلى ماتوشكين الشخص الوحيد الذى ينتظره، ثم جاء أربعة كتاب آخرون برفقة زائر من الفرع الرئيسى لاتحاد الكتاب فى موسكو هو فراتز تورين. ثم دخل غرفة الاجتماع رجل غريب عنه هو الكسندركوزيفنيكوف السكرتير الايديولوجى الاقليمى للحزب

الشيوعى. لم يعرف سولجنتسين السبب الحقيقى فى استدعائه إلا عندما بدأ ماتوشكين بالحديث إليه متهما إياه بالامتناع عن المشاركة فى نشاط فرع اتحاد الكتاب فى ريازان وعن مساعدة الأدباء الشبان ومناقشة أعمالهم. ثم اتضح بيت القصيد عندما ذكر ماتوشكين أن كتابات سولجتسين تتعارض مع كتابات بقية الأدباء فى الاتحاد السوفيتى. واتهمه ماتوشكين بتلطيخ سمعة الوطن بكتاباته ومن ثم فليس له محل فى اتحاد الكتاب.

وتكلم الآخرون نيكولاى رودن وسيرجى بارانوف وايفنجى ماركين ونيكولاى ليفتشنكو فكرروا نفس التهم التى وجهها ماتشوكين إلي سولجنتسين ولم يشذ عنهم غير ماركين الذى قال إنه بأسف لما يسمع قذع ضد سولجنتسين وخاصة بعد أن كال له اتحاد الكتاب فى الماضى الثناء العاطر. ورغم أسفه فقد عبر عن موافقته على رأى الأغلبية.

وبطبيعة الحال أنبرى سولجنتسين للدفاع عن نفسه نافيا جميع الادعاءات المنسوبة إليه ثم أشار إلى تجاهل اتحاد الكتاب للخطاب الذى كان قد أرسله إليه، وأيضا انه يري

الستالينية تطل برأسها فى جديد. ثم اختتم دفاعه عن نفسه بقوله: «إننى بطبيعة الحال على ثقة من أننى سوف أؤدى واجبى ككاتب فى جميع الظروف والأحوال.... وأنى على استعداد لقبول الموت - نعم الموت وليس مجرد الطرد من الاتحاد».

ثم أردف قائلا: «لقد أودليتم بأصواتكم وحصلتم على الأغلبية. لكن تذكروا أن تاريخ الأدب سوف يبدى فى يوم من الأيام اهتماما باجتماعكم هذا. وهنا تدخل كوزيفنيكوف ليخاطب سولجنتسين قائلا: «إن مؤتمر اتحاد الكتاب رفض خطابك لأنه لا داعى إليه كما أن الصواب بجانبه من الناحية الأيديولوجية. فأنت فى هذا الخطاب تنكر الدور الذى يلعبه الحزب، وهو الدور الذى نستمسك به. ثم نهض نيكولاى ليفتشنكو على قدميه ليتلو قرارا كان قد اتخذ من قبل، وفيما يلى نصه: «بالنظر الجو المسلك غير الاجتماعى الذى يسلكه سولجنتسين والذى يتعارض مع أهداف اتحاد الكتاب فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى فقد قررنا طرده من اتحاد الكتاب السوفيت ونطلب من سكرتارية الاتحاد الموافقة على

هذا القرار».

وتمت الموافقة بالاجماع على هذا القرار.

وعندما هم سولجتسين بالانصراف استوقفه تورين ونصحه بالتوجه فورا إلى موسكو حيث يعقد اتحاد الكتاب هناك فى اليوم التالى اجتماعا كامل العدد، غير أن مؤلفنا لم ير أى جدوى من حضور هذا الاجتماع الموسع وفضل الذهاب بسرعة إلى سنترال ريازان لتبليغ مجلة «العالم الجديد» بما حدث. ثم عاد إلى بيته ليسجل تفاصيل مادار فى الاجتماع الذى حضره. وفى اليوم التالى استمع إلى محطتى صوت أمريكا والاذاعة البريطانية، فأثلج صدره أن يسمع خلالهما نبأ طرده من اتحاد الكتاب. واعترت الدهشة الجميع أن تطير أنباء طرده من الاتحاد بهذه السرعة المذهلة. وفى ٥ نوفمبر ١٩٦٩ اعترض الأديب دانييل جرانين على اتخاذ هذا القرار فى غيبة المتهم الأمر الذى عرضه للملامة والتقريع وأدى إلى طرده من فرع اتحاد الكتاب فى ليننجراد. ولارباك المراسلين الأجانب وتضليلهم ادعى نيكولاى ليفتشنكو أن خبر طرد سولجنتسين مكذوب. وفى غضبه العارم سطر

سولجنتسين خطابا عاصفا إلى السلطات آثر أن يحتفظ به لنفسه بعض الوقت. غير آن الشعور بالرعب والفزع والخطر الماثل داهمه فجمع أوراقه الخاصة وبعض متعلقاته الشخصية وودع آهل بيته ثم سافر بالقطار إلي موسكو يوم ١١ نوفمبر ١٩٦٩.

حصول سولجنتسين علي جائزة نوبل وطرده من الاتحاد السوفيتي:

يرى سولجنتسين من حيث المبدآ آن السلطات السوفيتية اتخذت قرار طرده من البلاد فى صيف عام ١٩٦٩. ولم تكن فكرة طرده من البلاد جديدة فقد كثرت الاشارات إليها فى عدد من المقالات المنشورة والبيانات التى آصدرها الحزب الشيوعى. وقد آبلغ المسئولون فى الحزب نيكولاس بيثيل مترجم سولجنتسين أن الحزب الشيوعى لا يمانع فى دعوة سولجنتسين إلى الغرب كما عبر الحزب عن استعداده فى هذه الحالة لاستخراج جواز سفر له واعطانه تآشيرة الخروج المطلوبة. وقيل إن مجلس رئاسة الجمهوريات السوفيتية آعد مسودة باسقاط الجنسية السوفيتية عنه وأن أثنى عشر

عضوا فى اتحاد الكتاب طالبوا رسميا بنفيه. وفى تلك الأثناء وردت أنباء بأن الكاتب الفرنسي فرانسوا موريـاك يسانده نحو خمسين كاتبا فرنسيا قاموا بترشيحه لجائزة نوبل للأدب فى يوليه ١٩٧٠، يقول مولفنا فى «شجرة البلوط والعجل» إنه كان يحلم بحصوله على هذه الجائزة منذ سماعه بها أثناء وجوده فى معسكرات العمل حتى قبل أن ينشر باسمه كلمة واحدة. وبالمناسبة لم يكن سولجنتسين راضيا عن موقف باسترناك المتخاذل من هذه الجائزة . ففى عام ١٩٥٨ منحته السويد هذه الجائزة. ، فكال له الاتحاد السوفيتي الشتائم ، فاضطربت نفسه وقرر رفض الجائزة أما سولجنتسين فقد قرر فيما بينه وبين نفسه آنه لو جاءته هذه الجائزة لتحدى السلطات السوفيتية الحاكمة وقبلها حتى لو أدى ذلك إلي أن يعيش بقية حياته فى المنفى. واستند ترشيحه للجائزة إلى ترجمة كل من روايتى «الدائرة الأولى» و«عنبرالسرطان» إلى اللغة السويدية. فضلا عن أن نادى القلم الدولى رشحه بقوة لهذه الجائزة. وأثناء استغراق سولجنتسين الكامل فى تأليف روايته الجديدة «أغسطس ١٩١٤» تلقى يوم ٨ أكتوبر ١٩٧٠

مكالمة تليفونية مفادها أن جائزة نوبل للأدب كانت من نصيبه ولكنه لم يصدق الخبر لأنه جاء سابقا لموعد الاعلان عن هذه الجائزة بأسبوعين رغم أن الذى أبلغه بفوزه بالجائزة أكد أنه استقاه من مصدر موثوق به هو الصحفى النرويجى الذى يمثل كله من الصحيفتين النرويجية والسويدية فى موسكو . ولم تمضينصف ساعة حتى تولى هذا الصحفى النرويجى بنفسه تأكيد الخبر تليفونيا لسولجنتسين الذى اضطربت نفسه اضطرابا عظيما. وسأله سولجنتسين عن مصدر المعلومة فأجابه بأنه الأكاديمية السويدية، فطلب منه مؤلفنا أن ينقل شكره الخاص الى هذه الأكاديمية. ولكن الصحفى النرويجى قال له إن مثل هذا الشكر لا يكفي لأن العالم بأسره ينتظر أن يعرف رد فعله. فأمسك مؤلفنا بالقلم ليسطر هذا التعليق القصير: «أشعر بالامتنان لحصولى علي الجائزة وإنى أقبلها وأنوى السفر لاستلامها فى اليوم المقرر، اللهم إلا إذا حدث ماهو خارج عن إرادتى. وحالتى الصحية لا تعوق سفرى».

وفى ١٠ أكتوبر ١٩٧٠ أبرقت إليه الأكاديمية السويدية

بفوزه بجائزة نوبل تقديرا لقوته وصلابته الأخلاقية التى حافظ بها على تقاليد الأدب الروسى . فرد عليها ببرقية قال فيها إنه يعتبر منحه هذه الجائزة تكريما للأدب الروسى وكذلك المجتمع الروسى الذى يعانى ن المتاعب مبرزا بذلك البعد السياسى الذى حدا بالأكاديمية السويدية أن تمنحه الجائزة. وبطبيعة الحال تحين أعداؤه هذه الفرصة للنيل منه والهجوم على رجعيته وعلاقته المشبوهة بالغرب. وشددت ارفستيا وبرافدا النكير عليه وحذت حذوها صحف سوفيتية أخرى مثل الجازيت الأدبى وروسيا السوفيتية. فضلا عن أن بعض الصحف تشككت في موهبته الأدبية. ورغم سخط السلطات السوفيتية عليه لقبوله جائزة نوبل، فإنه تلقى بعض برقيات التهنئة من كتاب وأدباء سوفيت ومن زملائه القدامى فى معسكرات العمل الذين عبروا عن تقديرهم وامتنانهم له لأنه صور محنتهم فى إنتاجه الأدبى.

وبعد منحه جائزة نوبل للأدب حاول سولجنتسين أن يتفاوض مع كبار المسئولين السوفيت من موقع القوة فطلب منهم المبادرة برفع الحظر المفروض على روايته «عنبر

السرطان» وإرجاع كتاباته المستبعدة إلى رفوف المكتبات العامة وعدم ملاحقة قراءة . قال سولجنتسين إن تلبية السلطات السوفيتية إلى طلباته من شأنها أن تجعل استلامه للجائزة السوفيتية أمرا طبيعيا. وأيضا طلب مؤلفنا من السلطات السوفيتية الموافقة على نشر روايته «أغسطس ١٩١٤» لأنها تخلو من أى ازعاج للسلطات. ولعلنا نلاحظ أن مؤلفنا لن يطلب من السلطات السوفيتية نشر روايته «الدائرة الأولى» باللغة الروسية كما أنه لم يقترح عليها نشر «أرخبيل الجولاج» والجدير بالذكر أن السلطات السوفيتية التزمت الصمت نحو مطالبة وأوعزت إلى الصحافة الرسمية بشتمه وسبه.

ومن المفارقات أن منحه جائزة نوبل للأدب جاء مصاحبا لخلافاته الزوجية العاصفة. وبلغت الأزمة الزوجية ذروتها عندما أبلغته مساعدته ناتاليا سفيتلوفا أنها حامل منه وانها على استعداد لتربية طفلهما دون أن يتزوجها وانتابت زوجته نوبة هيستيريا حين أبلغها بأمر هذا الطفل وطلب منها الموافقة على طلاقها منه. وقررت الزوجة انها مستعدة لتربيته

بشرط أن يقطع زوجها علاقته بعشيقته وهو ما رفضه سولجنتسين رفضا باتا، الأمر الذى دفعها إلى محاولة الانتحار.. عن طريق الإفراط فى تناول الحبوب المنومة، وبأعجوبة نجت زوجته من الموت، وما أن عرفت زوجته نبأ حصول زوجها على جائزة نوبل حتى طارت من الفرحة واعتقدت مخطئة أن زوجها سوف يعود إليها. ولكن هذا الأمل كان مجرد سراب فقد زادته محاولتها الانتحار بعداً عنها، ورغم أنه أبدى استعداده للسفر إلى ستوكهولم لتسلم الجائزة فى الاحتفال المنعقد هناك فى نهاية عام ١٩٧٠، فإنه عاد وغير رأيه تحت تأثير إثناء عشيقته له وسوء ظروفه العائلية وتأخر سفره إلى السويد أربعة أعوام فقد سافر إليها لاستلام الجائزة عام ١٩٧٤، وفى تلك الأثناء تم طلاقه من زوجته يوم ٢٤ سبتمبر ١٩٧٣.

الاتحاد السوفيتي ينفي سولجنتسين إلي الغرب

بعد أن نشر له الغرب رواية «أرخبيل الجولاج» التى تروى تجربة مؤلفها القاسية فى معسكرات العمل السوفيتية أصبح العداء بينه وبين النظام السوفيتي صريحا ومستحكما الأمر الذى أدى إلى نفيه خارج البلاد.

في يوم ١٤ يناير ١٩٧٤ نشرت جريدة «البرافدا» تعليقا بعنوان «طريق الخيانة» اتهم مؤلفنا بمناهضة الثورة البلشفية وعدائه للسلام، والوفاق الدولي والديمقراطية والاشتراكية والعمالة للنظام الرأسمالي والتعاطف مع الأعداء الألمان، واقتطفت الصحيفة بعض فقرات رواية «أرخبيل الجولاج» لإثبات مدى كراهيته المرضية للاتحاد السوفيتي وشعبه ونظامه الاشتراكي، وأضافت الصحيفة أنه باع نفسه للغرب ابتغاء للثراء، وما أن نشرت البرافدا هذا الهجوم اللاذع حتى حذت حذوها جميع الصحف التي يصدرها الاتحاد السوفييتي، وفي نفس اليوم المذكور آنفا لمحت السلطات السوفيتية إلى ضرورة مغادرته البلاد، وأيضا ذكر عدوه القديم سيرجي ميخالوكوف في حديث إذاعي إنه لايوجد من يعارض نفيه وأنصاره إلى الغرب حيث يمكن مواصلة نضالهم ضد الاشتراكية والشيوعية وعبر ميخالوكوف عن شكه في أن يختار سولجنتسين النفي بمحض إرادته، وتلقت عشيقته ناتاليا سفتلوفا سيلا من الشتائم القاذعة عبر الهاتف، كما تلقى المتعاطفون معه أمثال مضيفته ليديا تشوكوفسكايا!

تهديدا لهم بالملاحقة والإيذاء كما تلقى هو شخصيا تهديدات بالقتل.

وسرعان ما أبلغ سولجنتسين فى اليوم التالى الموافق ١٥ يناير المراسلين الأجانب بالشتائم القاذعة والتهديدات بالقتل التى تلقاها عبر الهاتف والبريد، وذهب سولجنتسين إلى أن اتحاد الكتاب انتقم بطرد ليديا تشوكوفسكايا منه بسبب استضافتها له فى ڤيللتها وفى مقابلة أجرتها معه مجلة تايم الأمريكية نفى مؤلفنا أنه يريد الإساءة إلى الوفاق القومى، كما أنكر اشتراكه مع المنشق زخاروف فى دفع الدول الغربية إلى التدخل فى الشئون السوفيتية والعودة إلى أيام الحرب الباردة، مؤكدا أن إصلاح الاتحاد السوفيتى لابد أن يتم من داخله، لم يكتف شانقوه برميه بالخيانة وتشبيهه بيهذوا الأسخريوطى الذى سلم السيد المسيح إلى جلاديه بل رموه بالتعاون مع صقور وزارة الدفاع الأمريكية واتباع الهوية الصينية.

وبقدر ما تعرض سولجنتسين للهجوم داخل الاتحاد السوفيتى بقدر ما انتصر له عدد من المتحمسين له فى

الغرب، ففى يوم ٢٢ يناير ١٩٧٤ تظاهر دفاعاً عنه نفر من المثقفين الأمريكان خارج مبنى نادى الصحافة القومية فى واشنطن، وبدأت محطة الإذاعة البريطانية ومحطة الإذاعة الألمانية بث مقتطفات باللغة الروسية من «أرخبيل الجولاج». ولم تمض أيام حتى ظهرت فى الأسواق ترجمة ألمانية لهذه الرواية، ثم ظهرت بعد أسبوعين فقط ترجمة سويدية لها، غير أن الترجمة الأمريكية للرواية تأخرت فى الظهور بسبب الوقت الذي استغرقه إصلاح ما شابها من عيوب.

ورغم الهجوم العاتى الذى تعرض له مؤلفنا فإنه وجد من داخل الاتحاد السوفيتى من يناصره، فقد دافعت عنه ليديا تشوكفسكايا وروى هندفديف وزخاروف، فقد امتدح جميعهم رواية «أرخبيل الجولاج» ووصفوها بالصدق والأمانة فى تصور الواقع السوفيتى، ولكن أصوات التأييد داخل الاتحاد السوفيتى كانت قليلة وبمثابة صوت صارخ فى البرية والتجأت المخابرات السوفيتية إلى تأليف عدد مما عرفوه فى صور حياته للشهادة ضده، كما أنها استغلت بعض أقوال طليقته ناتاليا ريشتوفسكايا ضده، وأشارت طليقته إلى أن محنة

سولجنتسين تكمن فى رغبته فى نشر رواياته وأعماله داخل الاتحاد السوفيتى فى حين أن الاتحاد السوفيتى أشاح بوجهه عنه مما جعله يجتر أيام الاضطهاد والتنكيل التى عانى منها فى الفترة التى قضاها فى معسكرات العمل.

ويبدو أن سولجنتسين كان مفرطا فى تفاؤله عندما كتب فى ٧ فبراير ١٩٧٤ يقول: إن السلطات السوفيتية سوف تكتفى بالتشهير به دون إيذائه وفى مساء اليوم المذكور أبلغته زوجته الجديدة سفيتلوفا بأن مرسالا حاول تسليمها استدعاء له للحضور إلى مكتب المدعى العام فى الساعة الخامسة، ولكنها رفضت استلام الاستدعاء بسبب لغته غير اللائقة، وبدأ القلق ينتاب سولجنتسين وتذكر ماحدث لزخاروف قبل ذلك ببضعة شهور، فقد تم استدعاؤه إلى مكتب المدعى العام لتحذيره من التمادى فى مسلكه غير المرضى عنه دون اتخاذ أية اجراءات ضده، وظن مؤلفنا أن السلطات سوف تعامله بنفس الأسلوب الذى عاملت به زخاروف، وفى يوم ١١ فبراير قام سولجنتسين بالسفر إلى موسكو.

حيث أقام فى شقة سفيتلوفا، وهناك وصله استدعاء آخر

من المدعى العام، ولكنه لم يتوجه إلى مكتب المدعى العام كما كان متوقعا بل كتب بالآلة الكاتبة على خطاب الاستدعاء التحدى التالى: «فى ظل الظروف التى خلقها افتقار بلادنا إلى الشرعية وشيوع التجاوزات القانونية فيها لسنوات عديدة بصورة صارخة فإني أرفض الاعتراف بشرعية الاستدعاء وسوف أرفض المثول أمام أى من أجهزة الدولة لاستجوابى»، ثم أضاف مخاطبا المدعى العام: «قبل أن تطلب من المواطنين احترام القانون فإنه يجب عليك أن تبدأ فى تنفيذه، فالسجون الآن تغص بالأبرياء، وعليك معاقبة المسئولين عن الإبادة الجماعية والمخبرين الكذبة وكذلك معاقبة رجال الإدارة والفرق الخاصة التى تنفذ سياسة القتل الجماعى (ونفى وطرد شعوب بأكملها) وقم بتجريد المسئولين فى السلطات من سلطانهم غير المحدود على المواطنين واستخدامهم المتعسف للمحاكم والعيادات النفسية، وأحكم بالعدل فى ملايين الشكاوى التى تتعرض للقمع رغم شرعيتها» .

وعلى الفور اتصل مؤلفنا بالمراسلين الغربيين ليخبرهم بما حدث ودعاهم للاستماع إلى أقواله، وهكذا تحدى مؤلفنا حكم

بريجنيف دون مواربة موضحا أن الستالينية لم تختف من الحياة السوفييتية بل إنها قد تعود إليها فى أى وقت، واستعد سولجنتسين وحبيبته سفيتلوفا لمواجهة الاعتقال - لهذا قاما بعمل ميكر وأفلام لجميع كتاباته وإخفائها فى مكان سرى ودفن وتسريب ما لم يتم تسريبه إلى الغرب.

وزاره آنذاك ضيف هو الأديب إيجور شافاريفيتش وبينما هو مشغول مع ضيفه أخبرته حبيبته بحضور اثنين من الموظفين العاملين فى مكتب المدعى العام بحجة استيضاح بعض الأمور منه، وما أن فتح الباب حتى اندفع نحوه ستة من رجال البوليس. وطلبوا منه أن يصحبهم فورا إلى مكتب المدعى العام.

لقد صدر الأمر بالقبض على سولجنتسين والزج به فى سجن لفورنوفو ووجد مؤلفنا الذى اعتاد التمرد نفسه منصاعا للإجراءات الروتينية المتبعة مع المسجونين مثل نزع ثيابه وتفتيشه وتسليم ساعته ومتعلقاته الأخرى والتوقيع على إيصال واجراء الكشف الطبى عليه، وجاء مأمور السجن الجديد الكولونيل كوماروف ليأمره بالنهوض على قدميه، وأراد

سولجنتسين استبقاء الصليب الذى يلبسه ولكن السجانين رفضوا لأنه مصنوع من المعدن ولأن الاحتفاظ بالأشياء المعدنية يخالف التعليمات، ثم اقتيد كأى سجين عادى إلى زنزانة تضم سجينين آخرين، وبعد مضى مايقرب من ساعة من وصوله السجن استدعاه مأموره، ليقابل رجلا أصلع صغير الحجم اتضح أنه ميخائيل مالياردوف نائب النائب العام فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى، وهو نفس الرجل الذى استجوب العالم السوفيتى المنشق زخاروف، وفى اقتضاب وجه هذا الرجل إلى مؤلفنا بمقتضى المادة ٦٤ من قانون العقوبات الجنائى تهمة الخيانة التى يعاقب عليها القانون السوفيتى بالإعدام أو على أقل تقدير بالسجن لمدة عشرة أعوام، وطلب الرجل من سولجنتسين التوقيع على عريضة الاتهام ولكنه رفض التوقيع، وشرح له الرجل أنه يريد منه فقط التوقيع بالقلم وليس بقبول الحكم المنسوب إليه، ولكن هذه الحيلة لم تنطل عليه بسبب خبرته الطويلة فى السجون ومعسكرات العمل، فأصر على عدم التوقيع.

وفى اليوم التالى تم توقيع كشف طبى عليه أكثر دقة من

ذى قبل فاتضح أنه يعانى من ارتفاع فى ضغط الدم فأعطوه دواء لتخفيفه ثم اقتادوه إلى زنزانته، وأعطته إدارة السجن ملابس خاصة بالمساجين ورفضت إجابته إلى طلب بالاحتفاظ بملابسه القديمة، ثم اقتيد مرة أخرى لمقابلة مالياردوف الذى أخبره بنبأ نفيه، وتلا عليه الكلمات الآتية: «طبقا للمرسوم الذى أصدره مجلس السوفييت الأعلى بتجريد سولجنتسين من الجنسية السوفيتية ويطرد خارج حدود الاتحاد السوفيتى اليوم بتاريخ ١٣ فبراير ١٩٧٤ بسبب إتيانه على نحو منتظم بأفعال لاتتمشى مع المواطنة السوفييتية وتلحق ضررا بجمهوريات الاتحاد السوفيتى» .

والغريب أن مؤلفنا شعر بنوع من الارتياح لهذا النفى وطالب بأن ترافقه عائلته فى منفاه، ولكن مالياردوف فى رد باستحالة إجابته إلى طلبه، وأضاف أنه يمكن لعائلته اللحاق به فيما بعد، عندئذ طلب من مالياردوف إعطاءه ضمانات بذلك والسماح له بالكتابة إلى الرئيس السوفيتى بودجودنى، ثم أعيد إلى الزنزانة حيث وقفت خارجها سيارة ليموزين لتنقله إلى منفاه، وفى الطريق إلى السيارة سلمه مأمور السجن

صليبه وساعة يده، ولكنه رفض تسليمه ملابسه ثم قام السجين بانتزاع قطعة من خبز السجن احتفظ بها فى جيبه، وأسرعت السيارة الليموزين لنقله من السجن إلى المطار ليستقل طائرة فى حراسة سبعة مخبرين وما أن ذلف داخل الطائرة التى لم تستغرق رحلتها إلى فرانكفورت أكثر من ساعتين ونصف حتى أنحنى أمام تراب وطنه ورسم إشارة الصليب وسط دهشة رجال البوليس والمخبرين، وعندما توجه إلى دورة المياه أصر حراسه على مرافقته وأن يقضى حاجته والباب مفتوح، وما أن هبطت الطائرة وتأهب مؤلفنا للنزول منها حتى أعطاه مرافقوه خمسمائة مارك ألمانى هدية من المخابرات السوفيتية KGB، وتقدمت مضيفة أرضية منه وقدمت إليه وردة كما تقدم للترحيب به على الأرض الألمانية موظف ألمانى نيابة عن وزارة الخارجية الألمانية، وبمجرد دخوله السيارة المنتظرة انطلقت به إلى قرية لا بخنبيرويتش غرب بون حيث نزل ضيفا على صديقه الأديب الألمانى هنريتش بول.

استطاعت سفيتلوفا قبل أن يقطع البوليس الحرارة عن

تليفون منزلها الاتصال بعدد من المراسلين الأجانب، ولم يمض وقت يذكر حتى امتلأت شقتها بالأصدقاء والمتعاطفين والمنشقين والمراسلين، وتوجه زخاروف وأربعة من الأصدقاء إلى مكتب المدعى العام للاستقصاء عن مصير سولجنتسين فلم يجدوه هناك، فذهبوا إلى مسكنه ومن بينهم زخاروف وشافاويتش وناتاليا جوربانفسكايا وفلاديمير فوينتفتش وفلاديمير كوزنيلوف وآخرون، ثم أعادت السلطات الحرارة إلى تليفون منزل سولجنتسين فلم يتوقف عن الرنين وجاءت مكالمات من عواصم العالم (استوكهولم وباريس ونيويورك وامستردام) تسأل عن أخباره، وفى الساعات الأولى من الصباح وصل عدد من المراسلين الأجانب إلى منزله، فوجدوا فى انتظارهم بيانا كان مؤلفنا قد أعده قبيل القبض عليه، هذا البيان يقول: «أعلن مقدما أن أية اجراءات إجرامية تتخذ ضد الأدب الروسى وضد أى كتاب فى هذا الأدب أو ضد أى أديب روسى هى إجراءات غير سليمة وغير لائقة».. وأيضا أكد سولجنتسين أنه على استعداد لملاقاة الموت فى سبيل فضح أكاذيب الاتحاد السوفيتى، ولم تكن امرأته سفيتلوفا على علم

بمكان نفيه، وجاءتها شائعات بأنه فى ألمانيا ولكنها لم تصدقها، حتى اتصل بها سولجنتسين من هناك وأكد ذلك، ويبدو أن السبب الذى دعا السلطات السوفيتية إلى نفيه فى ألمانيا بالذات أن المستشار الألمانى ولى برانت كان قد أشار فى أحد أحاديثه الصحفية إلى المتاعب التى يواجهها مؤلفنا فى بلاده، وأن ألمانيا ترحب به ضيفا كريما عليها يتمتع بكامل حريته فى التعبير عن نفسه، والجدير بالذكر أن ألمانيا فوجئت بقرار السوفيت طرده إليها، ويقال إن سولجنتسين نفسه لم يكن يعلم الجهة التى يسافر إليها حتى هبطت به الطائرة فى مطار فرانكفورت، وعلى أية حال لم يكن هذا النفى الاضطرارى جديدا على السلطات السوفيتية فقد فعلت الشىء نفسه، مع كل من بوكوفسكى وجنزبرج وادوارد كوزنتسوف، على أية حال كان سولجنتسين يتقن الألمانية أكثر من أية لغة أوربية أخرى، والجدير بالذكر أن مؤلفنا هاجم بشدة الذين اختاروا حياة المنفى بإرادتهم، فقد كان يعتبر هذا ضربا من الخيانة، أما المنفى الاضطرارى فله شأن آخر، ويبدو أن السلطات السوفييتية آثرت نفيه على تصفيته أو حبسه حتى تتجنب تدهور علاقاتها بالغرب وتدهور الوفاق الدولى السائد آنذاك.

القسم الثانى

١ - أبرز أعمال سولجنتسين الأدبية

«يوم فى حياة ايفان دينيسوفتش» (١٩٦٢) :

تقع هذه الرواية فى يوم واحد من شهر يناير عام ١٩٥١ من حياة سجين فى أحد معسكرات العمل السوفييتية. ومن الواضح أنها رواية بلا حبكة فهى مجرد تسجيل للحياة الروتينية التى يحياها السجين ايفان دينيسوفتش منذ استيقاظه حتى هجوعه إلى مرقده. الوجبات التى يتناولها والعمل الذى يقوم به فى المعسكر والتفتيش الذي يتعرض له والفسحة المسموح له بها، وعلاقته ببعض السجناء وكذلك علاقته بإدارة المعسكر. ومعسكر العمل الذى تصوره الرواية ليس أسوأ المعسكرات جميعاً. فالسجين واسمه بالكامل ايفان دينيسوفتش شوكوف يتذكر أياماً أشق وأقسى أمضاها فى معسكر أوست إذها. والجدير بالذكر أن قدرة هذا السجين على تحمل مكاره السجن تفوق قدرة كثير من أقرانه المنحدرين من طبقات أجتماعية أرقى. فهو مجرد فلاح غير

متعلم قوى البنية اعتاد على العمل البدنى الشاق. وهو يتمتع بصلابة تجعله يتحمل هذا العمل الشاق دون ضجر أو جأر بالشكوى. وهو عاجز بسبب عدم تعليمه عن رواية قصته ولهذا يرويها نيابة عنه طرف ثالث بلغة المساجين ومصطلحاتهم. والراوى لا يحط من شأن ايفان دينيسوفتش أو يعلى من شأنه بل يقدم لنا صورة موضوعية له مع التعليق على حياته. ورغم بساطة ايفان دينسيوفتش وخشونة مظهره فإن الأفكار التى تجول بخاطره مقعده كما أنه قادر على السموق الروحى.

تبدأ الرواية في الساعة الخامسة فى فجر أحد الأيام فى شهر يناير عام ١٩٥١ فى معسكر فى منطقة الاستبس بسيبريا حيث يصحو العمال يلفهم الظلام لبدء العمل في الصقيع وزمهرير الشتاء. ويقضى دينيسوفتش فى هذا المعسكر ثمانية أعوام. والرواية تصف طريقته الحريصة والمتأنية فى الأكل ونوع الطعام. وهو شديد التركيز على الطعام المقدم إليه لأنه يعلم أن الإنسان عندما يأكل وهو شارد الذهن لا يستمتع بالطعام ولا يستفيد منه جسمانياً

فضلاً عن أن هذا التركيز الشديد على الطعام هو سبيله إلى البقاء على قيد الحياة. ومما يساعده على مواصلة الحياة أنه لا يعتبر السجن انتهاكاً للحياة العادية بل تجربة ثرية يمكن أن توسع مداركه وتثرى مفاهيمه. وأيضاً أدرك دينسوفتش أن أسلوبه السريع القديم فى الأكل لا ينفع فى السجن يتطلب من السجين البطلاء فى الأكل والتركيز عليه وعدم ترك فتفوتة واحدة فى الطبق.

ويكفى المساجين فى معسكرات العمل عادة بأعمال التشييد والبناء فى عز الصقيع. الأمر الذى يضطر السجناء معه لاشعال النار لإذابة الثلج حيث يرغبون فى شرب الماء. وجرت العادة فى معسكرات العمل أن يتسلم المساجين جرايتهم من الطعام بحيث تتناسب مع مطوعية العمل الذى يقومون به. ولهذا السبب نرى أن رئيس العمال يتمتع بسلطات واسعة ليس لها حدود فهو الذى يتفاوض مع المسئولين حول الحصص التموينية التى تعطى لكل فريق عمل. هذه الحصص لا تعطى للأفراد الفريق بل إلى الفريق ككل. ورئيس العمال الشاطر هو الذي يستطيع اقناع إدارة

السجن. بأن فريقه بذل جهداً أكثر ومن ثم فهو يستحق حصة تموينية أكبر وكثيراً ما يلجأ إلى رشوة المسئولين عن إدارة السجن. والطعام هو العملة المستخدمة للرشوة في معسكرات العمل. وقد يجيء هذا الطعام من عائلات المساجين أو فائض من الجراية التي تعطيها إدارة السجن للسجناء. ورئيس العمال في روايتنا اسمه تيودين.

ومن الأوامر المضحكة التي يصدرها قائد السجن للمسجونين بصورة روتينية عدم الالتفات حولهم لأن هذا في حد ذاته يعتبر تفكيراً في الهروب. وهذا التنبيه مضحك للغاية لأن السجين في منطقة الاسبتس في سيبريا لا يرى امامه سوى بساط لا ينتهي من الثلج لا يسمح بالهرب أو القرار.

ويتعاون زملاء المسجونين مع سلطات السجن ضد زملائهم في الحصول على امتيازات لأنفسهم مثل العمل في المصانع الذي يتيح لهم فرصة سرقة الطعام. ولا يتجاوز عدد العاملين في المطبخ ستة أفراد. ومما يدعو للضحك أن يكون في كل معسكر مفتش صحة مسئول عن التخلص من أي طعام فاسد. ولو أنه فعل ذلك لفتك به المساجين لأن المعسكر

لا يمتلك بديلاً لهذا الطعام الفاسد. ولهذا لم ير المساجنين مانعاً من طهو اللحوم بديدانها.

والتهمة الموجهة إلى ايفان دينيسوفتش هى التجسس لصالح الأعداء وهى نفس التهمة التى ألصقتها السلطات السوفيتية بسولجنتسين نفسه عام ١٩٤٥. وطبقاً لقانون السجون يحق نظرياً للسجين أن يشكو من سوء المعاملة وقسوتها. ولكن ويل لكل من تسول له نفسه الشكوى حيث أن قائد المعسكر سوف يحكم عليه بالسجن عشرة أيام فى الحبس الانفرادى وهى مدة كفيلة بتحطيم صحة أى مسجون أما إذا زاد الحبس الانفرادى إلى خمسة عشر يوماً فان هذا سوف يفضى إلى القضاء المبرم على حياة السجين بكل تأكيد.

والأخطار التى تحيق بكل سجين ثلاثة هى الموت جوعاً والاعياء وإبادة السلطة له. وايفان دينيسوفتش على نقيض زميله الكابتن السجين الدائم الشكوى والمطالب باللوائح والقوانين يعرف كيف يسترضى زملاءه بالخضوع والتزلف.

- «عنبر السرطان» «١٩٦٦» :

هذه الرواية هى الثانية فى انتاج سولجنتسين الأدبى.

وهى تدور حول العلاقة بين الأطباء والمرضى فى مستشفى لعلاج الأورام السرطانية. وتتسم حبكتها ببساطة متناهية فهى تحدثنا عن مريضين يصلان فى نفس الوقت تقريباً فى مستشفى طشقند إحداهما عضو فى الحزب الشيوعى يناصر النظام الحاكم اسمه روسانوف فى حين أن المريض الثانى شخص سبق أن صدر ضده حكم بالسجن اسمه أوليج كوستو جلوتوف الذى يمثل شريحة المطحونين والمحرومين. ولسخرية الأقدار ينزل هذان المريضان فى نفس الغرفة ويرقدان على سريرين متجاورين. ويقع أوليج كوستو جلوتوف فى غرام طبيبة شابة فى هذه المستشفى، كما أنه يغازل طالبة طب تعمل ممرضة فيها. ويطرح كوستو جلوتوف تساؤلات حول القيم الإنسانية الأساسية وأهمية الطب. ويخرج الاثنان من المستشفى دون استكمال علاجها كما أن كوستو جلوتوف أخفق فى غرامه من كل الطبيبة والممرضة.

تبدأ الرواية بوصول روسانوف إلى «عنبر السرطان»، وهو مدير شئون العاملين فى مشروع صناعى كبير فى طشقند احدى أهم المدن السوفيتية الواقعة فى قارة آسيا. ولأنه

يتحكم فى ملفات كل العاملين فى هذا المشروع فإنه مهاب الجانب، ومما يزيد من سلطانه أن عمله فى المشروع الصناعى يقتضى منه التعاون الوثيق مع أجهزة المخابرات. وبسبب رفعة مكانته فإن زوجته تطالب المستشفى بأن تعامله معاملة خاصة وعندما يخرج روسانوف من المستشفى تصاحبه زوجته وأولاده وقد طفحت أفئدتهم بالبشر ظناً منهم أن الرجل قد تم شفاؤه. ويشعر الرجل بالرضا عن نجاح عائلته الاجتماعى فابنه محام ناجح وابنته شاعرة وصحفية ناجحة. وسعادة الرجل لا محل لها لأنه لا يدرى أن الأورام السرطانية لا تزال تهدد حياته.

ويروى لنا الراوى للأحداث الفرق بين استقبال المستشفى للمسئول الشيوعى، فهى تعامله بكل توقير وإجلال، فى حين تعامل السجين السياسى السابق بكل مهانة وزراية.

وتطرح روايات «عنبر السرطان» اسئلة حول معنى الحياة وهى اسئلة لا تخطر عادة على بال الأصحاء. والرأى عند مؤلفنا أن قوتين رئيسيتين تتحكمان فى المجتمع السوفيتى هما قوة العلم المتمثلة فى التقدم الصناعى وقوة الطغيان

المتمثلة فى الدولة الشمولية. وكلا القوتين مدمرتان للإنسانية. وعدد المرضى الذين يشغلون سرائر عنبر السرطان ثلاثة عشر. ومن المفارقة أن يرقد عضو الحزب الشيوعى روسانوف محشوراً بين سريرى اثنين من المساجين المنفيين هما كوستو جلوتوف الذى أشرنا إليه وفيديرو. وهناك مريض بالسرطان آخر يرقد فى العنبر هو سيجاتوف النترى القادم من منطقة القرم والشاهد على بشاعة الجرائم التى ارتكبها ستالين المتمثلة فى طرد كل أبناء القرم من منطقة معيشتهم الأصلية.

والرواية بتضمن عدداً من المفاهيم الفلسفية المتضارية. وهى تضم شخصية فلاح يفك الخط بصعوبة ويقرأ الكلمة المكتوبة عن طريق هجائها. وبصعوبة بالغة يقرأ هذا الفلاح، واسمه يوديوفيف، قصة ليوتولستوى «من أجل ماذا يعيش الإنسان؟». وهو سؤال يلح على هذا الفلاح ويطرحه للمناقشة.

والرأى عنده أن الإنسان يعيش من أجل الخير في حين يرى آخرون أنه يعيش من أجل خدمة مصالح المجتمع. وهذا اعتقاد الماركسيين. ويدور حوار ساخن بين كل من كوستلو جلوتوف المدافع عن ايمان ليو تولستوى بالكمال الأخلاقى

ضـــد روســـانوف الذى ينكر هذا الكمـــال. ولا شك أن سولجنتسين استغل الموت الذي يرفرف بجناحيه على المرضى فى عنبر السرطان كى يهاجم الفلسفة المادية الجدلية ويحط من شأنها على لسان كوستو جلوتوف الذى يشكو من حجر النظام السوفييتى على حرية الرأى والتعبير. ومن ثم يحق لنا أن نصف رواية «عنبر السرطان» بأنها رواية فلسفية أو فكرية أو ايديولوجية بالمعنى العريض. وبعض المجادلات التى تدور بين مرضى السرطان فى مستشفى طشقند يتناول وجود أو عدم وجود علاقة بين العلم والقيم الأخلاقية.

- «الدائرة الأولى» (١٩٦٨) :

تعتبر هذه الرواية تطوراً فى مسيرة مؤلفنا الروائية فهى تغطى مجالاً أكثر اتساعاً من مجالى روايتيه السابقتين «يوم فى حياة دينيسوفتش» و«عنبر السرطان». كما أنه يغطى فترة زمنية ممتدة تتجاوز الفترات المحدودة التى تستغرقها رواياته الأوليتـان. وكالعادة تصور «الدائرة الأولى» الحيـاة فى السجون ومعسكرات الاعتقال. والسجن هنا اسمه الشارشاكا الملحق بمعهد مافريتو العلمى المخصص لسجن

العلماء والمهندسين المغضوب عليهم.

وتبدأ أحداث الرواية في مكتب دبلوماسى يدعى أنكونتى فولودين ثم تنتقل إلى مكتب رئيس البوليس السرى أباكوموف وشبكته الهائلة من السجون ومعسكرات الاعتقال التى يسيطر عليها. ثم إلى عدة أماكن أخرى. وتنبنى الرواية على محورين متعارضين أولهما إرادة ستالين الغاشمة التى يفرضها على البلاد من أقصاها إلى أدناها. وثانيهما إلى تصاعد القيم الروحية المتمثلة في التصدى لهذه الهيمنة الغاشمة.

وبطبيعة الحال نرى أن حبكة «الدائرة الأولى» أكثر تعقيداً من روايتى سولجنتسين السابقتين. وهى تروى لنا حكاية دبلوماسى شاب يدعى فولودين يحاول تحذير طبيب عائلته من أن البوليس السرى بصدد توجيه تهمة الخيانة إليه لاعتزامه الكشف عن نتائج أبحاثه لبعض الأطباء الفرنسيين. ويسجل البوليس السرى محادثة تليفونية يجريها هذا الدبلوماسى مع زوجة الطبيب. ويقوم بإرسال الشريط إلى معهد مافرينو لتحليله. وبطل هذه الرواية - وهو عالم يدعى فيرزهين - نزيل فى سجن هذا المعهد. ويتعرف خبراء المعهد على صوت

فولودين. فيلقى البوليس السرى القبض عليه. ولكنه يظل صامداً بكل إباء وشمم وينزلونه في معسكر اعتقال معروف بقسوته.

استقى سولجنتسين عنوان روايته في جحيم دانتي في رائعته «الكوميديا الإلهية» ففي فصول من روايته نرى روبين يشرح معنى «الدائرة الأولى» لأحد السجناء الذي لا يفهم لماذا قامت السلطات بنقله إلى سجن أقل في قسوته من السجن الذي كان فيه. يقول روبين في هذا الشرح:

«الحال ليس كذلك ياسيدى العزيز فأنت الآن في الجحيم كما كنت فيما سبق. غير أنك صعدت إلى أحسن وأعلى دوائرها، وهي «الدائرة الأولى». أنت تسأل عن سجن شارشاكا؟ دعنا نقول إن دانتي هو الذى فكر في هذا، تذكر أن دانتي كان يشد شعره وهو يحاول أن يقرر أين ينصح الحكماء في العصور القديمة. لقد شعر المسيحيون بأن واجبهم يقتضى منهم القذف بهؤلاء الوثنيين في الجحيم. ولكن ضمير عصر النهضة لم يطاوعه ولم يستسغ فكرة جمع الوثنيين في حزمة واحدة تضم كل أنواع الخطاة والحكم

بتعذيبهم جسدياً. ولهذا السبب نرى أن دانتى يخصص لهم مكاناً فى الجحيم» .

والرواية تصور تعطش ستالين لسفك الدماء وعشوائية نظامه القائم على البطش والاستبداد. فرغم أن الخبراء الذين يفحصون شريط مكالمة فولودين التليفونية ليسوا متأكدين من أنه صاحب الصوت وأن مساعده شششفرونوك قد يكون صاحب الصوت فإن السلطات تقرر الزج بهما معاً فى السجن رغم أن أحدهما قد يكون بريئاً. فمجرد الاشتباه يكفى للقبض على المشتبه فيهم سواء كانوا مذنبين أو أبرياء. هذه المفاهيم الجديدة استحدثها النظام البلشفى فهى لم تكن معروفة من قبل فى عهد القيصرية. ناهيك عن بعدها الكامل عن التقاليد الغربية المتعلقة بالعدل وحقوق الإنسان. وستالين الملتاث العقل لا يسعى إلى تأييد نفسه فحسب بل يسعى إلى احاطة مكالماته الهاتفية بسياج من الكتمان والأسرار فيطلب من العلماء استخداث شفرة خاصة به لا يستطيع أحد أن يخترقها. وتتضمن فصول الرواية من الفصل الثامن عشر حتى الفصل الواحد والعشرين صورة بشعة لهذا الطاغية

تبدو هزلية فى أول الأمر ثم تصبح مروعة فى نهايته.

قصص سولجنتسين القصيرة:

(١) بيت ماتروفا (١٩٦٣) :

تختلف قصص سولجنتسين القصيرة عن رواياته فى أنها لا تجعل فى حياة السجون والمعتقلات محوراً لها. وتدور «بيت ماتروفا» حول الحياة القاحلة في قرية نائية تحولت فى ظل النظام السوفيتى الى مزرعة جماعية، وحبكة هذه القصة تتميز بالبساطة وتتلخص فى أن سجيناً فى معسكرات العمل سابقاً يشتغل بالتدريس فى احدى مدارس القرية يستأجر غرفة فى بيت ماتريونا فتتوثق علاقته بها وشقيق زوجها ولا يعلم إلا متأخراً عن وفاتها فى حادثة قطار.

وتبين القصة عيوب نظام المزارع الجماعية التى استحدها ستالين: غير أن القصة تعنى أساساً برسم صورة لشخصية ماتريونا. ولا يعرف أحد قيمة هذه المرأة وعظمتها إلا بعد وفاتها، وأنها رغم بساطتها واتضاع مكانتها أقدر من جميع أفراد مجتمعها على الوصول إلى السمو الروحى. حتى أهل قريتها المتقلقون فى قيمهم المادية لا يكتشفون الأبعاد الروحية

الغائرة والعميقة فى شخصيتها. ولكن شخصاً واحداً كابد قسوة الحياة ومرارتها هو الذى يستطيع تقدير قيمتها.

والقصة تتضمن سيرة حياة سولجنتسين المتجسدة فى شخصية الراوى لأحداثها. هذا الراوى يشبه مؤلفنا فى أنه يدرس علم الرياضيات فى احدى المدارس العالية. ورغم أننا لا نعرف عن الراوى غير النزر اليسير فإننا نعلم أنه كان ضابطاً فى الجيش وتم أثناء الحرب العالمية الثانية القبض عليه والزج به فى أحد معسكرات الاعتقال فى الصحراء الواقعة على تخوم الاتحاد السوفيتى. وفى منفاه يخالط هذا السجين الناس البسطاء الذين يحيون حياة نقية لا يتطرق إليها الفساد. حتى اللغة التى يستخدمونها فى حياتهم اليومية نقية وخالية من الشوائب. وبمرور الوقت أصبح اجتاتش يجل ماتربونا ويبجلها ويقدر فيها عدم الايمان بالأشياء المادية أو أهمية التقدم التكنولوجى. وهى تعيش فى فقر مدقع رغم ثرائها الروحى العريض. كما أنها تتذوق الموسيقى الشعبية وتعرفها عن كثب وتتمتع بجمال الطبيعة وتحب العمل من أجل ذاته وليس من أجل ما يدر عليها من

دخل. حتى بقية أهل القرية يسقطونها من حساباتهم بسبب استغراقهم فى الماديات واستغراقها فى الروحانيات. فلا غرو إذا قالت إحدى شخصيات القصة فى هذا الشأن: «إن المزارع الجماعية تجرد الإنسان من آدميته ولكن الفرد يستطيع الاحتفاظ بكرامته إذا رفض أن يتحول إلى حيوان لا هم له سوى اكتناز المال ناسياً جمال العالم والمتعة الخالصة التى يستمدها من كونه يرزق».

«حادثة فى محطة سكة حديد كريتشتفوناكا»:

تدور حبكة هذه القصة القصيرة حول مجند يدعى تفيرتينوف كان يمتهن التمثيل قبل التحاقه بالجيش ويتمكن هذا المجند من اختراق الطوق الذي فرضه الجيش الألمانى على كتيبته ولكنه يضل سبيله وينعزل عن الوحدة التى يتبعها. ويتقابل هذا المجند مع الملازم زوتوف قائد محطة السكة الحديد المشار إليها (وهو شاب مثالى وطنى شديد الولاء للحزب والماركسية) ويلتمس لديه المشورة فيما يعمل. ويأنس زوتوف لهذا المجند فيدخل معه في مناقشات حول الأدب والمسرح. ولكن تغير تينوف (الذي لا يقرأ الصحف ولا يهتم

بالسياسة) يرتكب أمام القائد زونوف خطأ مميتاً لا يغتفر فهو يعترف بأنه لا يعرف أن اسم مدينة تساربيتسين قد تحول إلى ستالنجراد. فيصاب القائد بالفزع من فرط عبادته لستالين وولائه له. ويبدأ هذا القائد فى الشك فى أن المجند جاسوس يتجسس لصالح الألمان أو أنه مهاجر من الروس البيض فيقوم بتبليغ البوليس السرى عنه. فتلقى السلطات السوفيتية القبض عليه ويختفى تماماً عن الأنظار. هذه هى الحادثة الأولى.

أما الحادثة الثانية فى القصة فتقع فى نفس محطة السكة الحديد حيث نرى قطارين أحدهما يحمل علي متنه عدداً من الجنود الروس العائدين من الميدان. ويحمل الآخر فى عرباته المفتوحة أجولة مليئة بالدقيق فيقوم الجنود بنهب وسلب الدقيق فلا يجد حارس القطار مناصاً من إطلاق الرصاص على الجنود السارقين فيردى أحدهم قتيلاً. تمثل هذه الحادثة الصراع الناشب بين التزام العسكريين بالنظم واللوائح وبين بطونهم الجائعة. ولهذا نجد أن البعض يعذرهم في حين أن البعض الآخر يدينهم ويدفعهم. وهى مشكلة عويصة ليس من

السهل الوصول إلى حل لها أو رأي قاطع فيها. والذي يجعل من الصعب الحكم في هذهِ المشكلة أن جوع الجنود لن يشبعه أكل الدقيق قبل عجنه وخبزه. كما أن حادثة السطو على الدقيق تحدث فى وقت الحرب ضد الألمان وليس فى وقت السلم. فالجيش أحوج إلى هذا الدقيق من أى وقت آخر. فضلاً عن أن كثيراً من الدقيق يتبدد على شريط السكة الحديد أثناء سلبه ويفسد فى حالة هطول المطر. ونحن نسمع من شخصيات القصة أراء متضاربة ووجهات نظر متعددة. فالضابط زوتوف الذي يعبد ستالين لا يستطيع أن يفهم استقلال الآخرين فى الرأى. وهو يعجز أيضاً عن فهم منطق رجل عجوز لا يتعايش مع النظام السوفيتى لأنه نشأ وترعرع فى ظل النظام القيصرى.

«من أجل صالح القضية»:

تعالج هذه القصة القصيرة فيما تعالج موضوع النظام التعليمى فى الاتحاد السوفيتى والعلاقة بين الطلبة والمدرسين والصراعات الدائرة بين الإدارات المختلفة كما يتمثل فى الصراع بين شخصيتى جراتشيكوف (سكرتير لجنة الحزب

الشيوعي في المدينة) وكنوروزوف (السكرتير الأول في اللجنة الاقليمية للحزب الشيوعي). وأيضاً تعالج القصة موضوعاً هاماً يتمثل في استمرار استخدام الأساليب الستالينية حتى بعد زوال عهد ستالين. فكنو روزوف يتعرف في اقليمه كما يتصرف ستالين في موسكو. ورغم وفاة هذا الطاغية فإن كنوروزوف ينتهج نهجه ويسير على دربه على عكس جراتشيكوف الإنسان المعقول المسالم والمتواضع الذي يرفض الظلم ويتشبث بالعدل.

ينشب الصراع حول استخدام هذا المبنى فالبعض يرغب في تحويله إلى مركز أبحاث في حين يتمسك البعض بالفكرة الأصلية من بنائه كمدرسة على أعلى مستوى. والقصة تبدأ بحفلة استقبال تقيمها مدرسة صنايع بمناسبة افتتاح العام الدراسي وانتقال المدرسة إلى مبنى جديد يضم معامل وقاعات محاضرات فسيحة وصالات جمنازيوم مجهزة وقاعات مخصصة لحفلات الرقص والمناسبات الثقافية وعنابر نوم. ويشعر الطلبة بالفخر لأنهم اشتركوا في تشييد هذا المبنى موضع الصراع والنزاع.

وإلى جانب هذه القصص القصيرة المذكورة آنفاً ألف سولجنتسين ثلاث قصص قصيرة أخرى هي «اليد اليمنى»، و«زاخار الحرامي»، و«موكب عيد القيامة».

مسرحيات سولجنتسين:

لم يكن سولجنتسين بارعاً في التأليف المسرحي مثلما كان بارعاً في التأليف الروائي والقصصي. وزاد من إخفاقه في التأليف المسرحي رغبته في التعليم والتلقين المباشر مغلبة النغمة الأخلاقية عليه. وشخصياته المسرحية تتبنى في العادة مواقف فلسفية وايديولوجية متباينة. ورغم ذلك فإن مسرحيته «فتاة الحب البريء»، و«شمعة في مهب الريح» تستحقان الدراسة. وتقع أحداث المسرحية الأولى في أحد معسكرات العمل في الاتحاد السوفيتي، الأمر الذي يذكرنا برواية «يوم في حياة إيفان دينيسوفتش» في حين أن أحداث المسرحية الثانية تقع في مجتمع خيالي وغير محدد ولكنه يتسم بالتقدم العلمي والصناعي. وهي تقترب من رواية «الدائرة الأولى» في تصوير سوء استخدام السلطة الحاكمة للتقدم العلمي والتكنولوجي. فضلاً عن أنها تشبه رواية «عنبر السرطان» في

تصويرها لغرور وغطرسة العلماء. ورغم أن مسرح سوفرمنيك في موسكو قبل تمثيلها عام ١٩٦٢ فإنه لم يقدمها أبداً على خشبته. وتتضمن مسرحية «شمعة فى مهب الريح» آراء مؤلفها الدينية والفلسفية على نحو مكتمل. وهى تدور حول صديقين أحدهما يدعي ألكس والآخر يدعى فيليب اللذين أطلق سراحها من معسكر العمل ليعودا إلى ممارسة الحياة الطبيعية، ويعتبر فيليب أن الفترة التى قضاها في السجن ضياعاً فى ضياع فى حين يرى ألكس فيها جانباً بناء ، كما أنه مقتنع أن للحرية والتقدم العلمى جوانبها السلبية.

الثلاثية الروائية «أغسطس عام ١٩١٩» (١٩٧١) :

كما سبق أن أشرنا تدور هذه الثلاثية الروائية حول الهزيمة النكراء التي مني بها الجيش الروسى أمام الجيش الألمانى فى الحرب العالمية الأولى. وتتتبع «أغسطس «١٩١٩» جذور الثورة البلشفية واستيلاء لينين على السلطة في عام ١٩١٧.

والرواية كما هو واضح وثيقة تاريخية يرد فيها اسم ليو

تولستوى الذي يظهر لطالبة جامعية تدعى شانيا تلتمس لديه النصح والارشاد. ويلعب رئيس الأركان فورو تينستيف دوراً رئيسياً فى هذه الرواية فهو يحاول لم شعث قواته التي تفرقت فى الحرب على يد الجيش الألمانى، وهى تنتهى بالهزيمة النكراء التى تلحق بالجيش الروسى وانتحار قائده فورو تينستيف. ورغم أن هذه الرواية تاريخية فإنها لا تخلو من الخيال.

ويرجع أحد أسباب هزيمة الجيش الروسى الماحقة إلى أن أحد جنرالات الجيش الروسى واسمه بلاجو فشتشنسكى كان يرسل تقارير مزيفة عن الوضع القتالى لقواته الروسية. ولكن في المقابل توجد فى هذه الرواية شخصية عسكرية تدعو إلى الإعجاب هى شخصية بلاجودار بوف التى تروق لها الطبيعة وحب الريف. وتبرز ثلاثية «أغسطس عام ١٩١٩» الجانب الدينى الغائر فى أعماق الشعب الروسى وفى حياة القائد العسكرى سامونوف الذى يركع للصلاة قبل انتحاره بسبب هزيمته الشنعاء.

أرخبيل الجولاج: (١٩٧٣ - ١٩٧٦)

تتناول هذه الملحمة الروائية موضوع معسكرات العمل الستالينية وهلاك ملايين المواطنين السوفيت المعتقلين فيها، وهي تجربة مرة كابدها المؤلف بحكم خبرته الطويلة كسجين في هذه المعسكرات. والرواية تتكون من شهادات متفرقة وعديدة لشهود عيان حول معسكرات الاعتقال الستالينية يكاد ينفرط عقدها لولا وجود المؤلف كراويها. وتتراوح الاتهامات التى توجهها أجهزة البوليس والمخابرات السوفيتية ضد المنشقين عليها بين التهم التالية: التحريض ضد النظام السوفيتى - النشاط المناهض للثورة - التروتسكية - الاشتباه فى التجسس - وجود صلات تدعو إلى الاشتباه فى التجسس - اعتناق الأفكار المناهضة للثورة - تغذية المشاعر المناهضة للسوفيت - العناصر الخطرة والضارة - النشاط الاجرامى - القرابة العائلية لأحد المعتقلين أو المتهمين.

والرأى عند سولجنتسين أن لينين هو الذى استحدث قانون العقوبات السوفيتى وأن ستالين هو الذي قام باستكماله ووضعه فى شكله النهائى. هذا القانون يرتكز على العديد من أجهزة البوليس والمخابرات السوفيتية مثل: Mgbو Nkvd و Gbu و Cheta.

٢ - الطاغية ستالين في الأدب السوفييتى

قبل أن تتناول معالجة سولجنتسين لستالين الطاغية فيما أنتجه من أدب يجدر بنا أن نذكر أن عقدى الخمسينات والستينات فى الاتحاد السوفيتي شاهدا ظهور شعر غنائى يعرف باسم «شعر الجيتار» يهاجم ستالين ويخاطب عدداً محدوداً من المستمعين. وبرز بين شعراء الجيتار كل من بولات أكود زهافا وفلاديمير فيسوتسكى والكسندر جاليش الذين ذاع انتاجهم من شعر الجيتار عن طريق الأشرطة والتسجيلات الصوتية. علماً بأن فيستسكى وجاليش نشرا بعض الأعمال التى تنال من ستالين بصراحة ودون أدنى مواربة خارج الاتحاد السوفييتى. فعلى سبيل المثال نظم فيسوتسكى عام ١٩٧٧ قصية بعنوان «زودنى بالوقود» وفيها نرى سجيناً فى أحد معسكرات الاعتقال يتذكر حياته فيها ويحاول أن ينساها ويرمها ويرميها وراء ظهره. هذا السجين كان في شبابه مفتوناً بستالين لدرجة أنه رسم وشماً بصورته على صدره. ولكن أحوال معسكرات العمل التى كابدها فى سيبريا جعلته يغير رأيه فيه. وفى فترة سجنه كان الأمل

يحدوه ويحدو زملاءه أن يعيد ستالين النظر فى قضيتهم ويفرج عنهم، وهم غافلون عن أن ستالين هو السبب فى كل المصائب التى حلت بهم. وعندما يدرك السجناء هذا يرغبون فى معاقبة أنفسهم لغفلتهم التى جعلتهم يؤمنون به ويثقون فيه ثقة عمياء. ويذهب الدارسون إلى أن قصائد فيسوتسكى تركت أعق الأثر فى نفوس الروس الذين استمعوا إلى انشادها على الجيتار. ولم تر هذه القصيدة طريقها إلى النشر داخل الاتحاد السوفييتى إلا عام ١٩٧٩ فى المجلد الذى أصدره ليبراليون سوفيت بعنوان «متروبول». ولكن السلطات سرعان ما قامت بمصادرتها.

وقد توفى فيسوتسكى عام ١٩٨٠ فى الثانية والأربعين من عمره. ولكن بمجيء جورباتشوف إلى سدة الحكم أنتشر وذاع شعره فى روسيا السوفيتية التى منحته بعد وفاته جائزة الدولة عام ١٩٨٧.

وتعرف مجموعة قصائد جاليش الغنائية بعنوان «الجيل الذى حكم عليه القدر» (١٩٧٢) تتناول الأثر المروع الذي تركه طغيان ستالين فى نفوس الشعب السوفيتى وعجزه عن نسيان

هذا الأثر. ألف جاليش قصيدة بعنوان «قصيدة عن ستالين». وتشبه هذه القصيدة الساخرة ميلاد ستالين بميلاد السيد المسيح، الأمر الذي يذكرنا بمعالجة كل من بولجاكوف وباسترناك لشخصية ستالين ومبدأ عبادة الفرد.

وأيضاً تحتوى القصيدة المشار إليها على منولوج داخلى حول ستالين الذى يمثل أقصى درجات الشر، وهو يشن هجوماً على اليهود ويصفهم بأنهم طغمة من اللصوص والأوغاد. كما يسخر من شخصية المسيح ويستهزىء بتعاليمه ويعقد العزم على تصحيح أخطائه. ويصور الجزء الثالث والأخير من القصيدة مزاعم ستالين وادعاءاته وموته وحيداً يكابد الآلام ويعانى من الأرق ويحاول استدعاء روح صديقه القديم سيرجو أورزهو يتكيدز الذي كان يوماً أثيرا إلى قلبه والذى آثر الانتحار عندما بدأ ستالين يختلف معه ويشك فيه. ويحاول جاليش أن يبين أن قوة الله أعظم من قوة ستالين، فنحن نسمع أجراس الكنيسة تدق ونرى ستالين يحاول الصلاة ولكنه يفشل فى تذكر كلماتها ويموت طالباً المغفرة والخلاص. وتنتهى القصيدة بجزء يحمل عنوان «حديث ليلى

فى فندق» وفيه يخبر أحد سجناء معسكرات العمل القدامى زملاءه أن مؤتمر الحزب الشيوعى اكتشف أن ستالين ليس سوى ابن زنا. وأيضاً تنتهى القصيدة بقيام عدد من السجناء بتحطيم تمثال لستالين.

وفى القصائد الأخرى الواردة فى «جيل حكم عليه القدر»، يقول جاليش إن الشعب الروسى يقع عليه اللوم في تواطئه مع الأحداث التى تقع له. فقصيدته «الحارس الليلى» على سبيل المثال تصور كابوساً فيه آلاف التماثيل المهجورة لستالين وقد عادت إليها الحياة ومن ثم فإن تحطيم خروتشوف لمبدأ عبادة الفرد قد يكون مجرد أضغاث أحلام.

سيطرت شخصية ستالين الطاغية على خيال كثير من الروائيين السوفيت في عقد الخمسينات من القرن العشرين فأرادوا رسم صورة واقعية له تختلف عما درج الكتاب عليه إبان فترة حكمه. ويعتبر سولجنتسين من طليعة هؤلاء الروائيين كما يتضح لنا فى «الدائرة الأولى» التى سار علي دربها أربعة من الكتاب السوفييت الذين نشروا أعمالهم فى الغرب قبل نشرها فى الاتحاد السوفيتى وهم «الكسندر بيك»،

و«دومبروفسكي»، و«فاسيلي غروسمان»، و«فلاديمير ماكسيموف». والجدير بالذكر أن انتاج بيك وريباكوي الروائي في عقد الستينات من القرن العشرين لم ير طريقه إلى النشر في الاتحاد السوفيتي إلا بعد مجيء جورباتشوف إلى الحكم كما أن روايات جروسمان ودومبروفسكي لم تنشر إلا أخيراً في عام ١٩٨٨. ورغم أن جميع هؤلاء الكتاب أظهروا حرصاً على رسم صورة حقيقية لطغيان ستالين فإنهم عالجوا شخصيته من جوانب مختلفة.

كتب بيك روايته «الموعد الجديد» في خلال فترة حكم خروتشوف ثم نشرها في الخارج عام ١٦٧١ بعد أن تعرضت للحظر والمصادرة في الاتحاد السوفيتي. وكذلك يصف بيك في رواياته حملات التطهير التي أجراها ستالين عام ١٩٣٧ للتخلص من كل أعدائه ومناوئيه بل ومن أصدقائه القدامى. مثل صديقه القديم الوزير أردزهو نيكيدز الذي آثر الانتحار عندما تبين غضب ستالين عليه.

وتتضمن رواية يوري دومبروفسكي «موهبة الأشياء غير الضرورية» المنشورة عام ١٩٧٨ جانباً من سيرة حياة مؤلفها

الذى عاش ردحاً من الزمن في معسكرات العمل فى فترة حكم ستالين. ويطوف ستالين بمخيلة بطل الرواية زينين عالم الآثار عشية القبض عليه ليشرح له هذا الزعيم المستبد فلسفته وحكمته من وراء اشاعته للرعب بين العالين.

يقول ستالين مبرراً اتباع هذه السياسة إن إقامة جسر يتطلب عملاً شاقاً لعدة سنوات وآلافاً من العمال فى حين أن نسفه لا يتطلب سوى حفنة من الناس. وهو يريد إشاعة الرعب أن يضرب بيد من حديد على هذه القلة الهدامة. وكل تصرفات ستالين في رواية يورى دومبروفسكى المشار إليها تنبع من ريبته وشكه الدائم فى كل المحيطين به. ويروى لنا دومبروفسكى انه إبان نفى ستالين في شبابه فى سيبريا قررت السلطات فى عهد القيصرية الافراج عن سجين طاعن فى السن اسمه جورجى كالانداش قيلى، فأعطاه هذا السجين قبل رحيله من المعسكرات خمسين روبل ومعطفاً من الفراء وحذاء ذا رقبة فكان تعليق ستالين على هذا الصنيع غريباً إذ قال إن السجناء سيعملون باجتهاد أكبر عندما تطلق السلطات سراح بعض السجناء فى حين إلى آخر.

وفاسيلى جروسمان أحد الروائيين الذين رسموا صورة واقعية لستالين فى الرواية التى نشرها عام ١٩٨٠ بعنوان «الحياة والقدر» التى هى استكمال لروايته «من أجل قضية عادلة»، وتركت رواية «الحياة والقدر» أثرها العميق فى نفوس الروس. انتهى جروسمان من تأليف رواية «الحياة والقدر» فى عام ١٩٦٠ غير أن المخابرات السوفييتية قامت بمصادرتها في العام الذى يليه. ولكن صديقاً للمؤلف يدعى فلاديمير فوينوفتش احتفظ بميكروفيلم للرواية التى أخذها معه في الخارج عند هجرته من الاتحاد السوفيتى عام ١٩٨٠. ولا أحد يعرف على وجه التحديد كيف وصل ميكروفيلم الرواية إلى يدى صديق جروسمان الذي يهاجم - على لسان عالم ذرة يدعى شوتروم إعادة كتابة التاريخ والقول بأن ستالين أعظم شأناً وأعلى مكانة من لينين. والزعم بأن لينين دأب على استشارته فى كثير من المشكلات العسكرية. ويتناول جروسمان الاضطهاد الذى كابده كثير من صفوة العلماد الروس على يد ستالين الذى ادعى رعايته للعلم وحمايته للعلماء، ويبرر اعتباره قائداً عسكرياً ملهماً فى الحرب العالمية

الثانية. ولاشك أن الانتصارات التى حققها السوفيت على الغزاة الألمان فى الحرب العالمية الثانية أسهمت بنصيب وافر فى تأليه ستالين وخلق مبدأ عبادة الفرد.

وبوجه عام يمكن القول بأن جروسمان اهتم بتصوير ستالين من الخارج أكثر من استجلاء نفسيته وتصويره من الداخل مركزاً على تحليل النظام الستالينى من الناحيتين السياسية والفلسفية . وبطبيعة الحال ينتقد جروسمان قيام ستالين بفرض التصنيع والمزارع الجماعية على الحياة الروسية عنوة واقتدارا بغض النظر إلى طبيعة الواقع الروسى. تمكن ستالين بسبب انتصاره فى الحرب العالمية الثانية على الألمان فى معركة ستالنجراد فى أن يرفع ايديولوجية قومية الدولة وفى ملاحقة العناصر البورجوازية والانفتاحيين على الغرب فضلاً عن أن جروسمان اليهودى يساوى بين الجولاج ومعسكرات الاعتقال النازية على نحو ما فعل سولجنتسين فى روايته المعروفة أرخبيل الجولاج.

ويرسم ماكسيموف صورة مستفيضة لستالين في «سفينة غير المأمورين» (١٩٧٩) تصل إلى وصف الصورة المفصلة

التى رسمها كل من سولجنتسين وريباكوف. وهى صورة تقوم على تحطيم أسطورة ستالين. ويركز ماكسيموف على فترة معينة في حياة ستالين هى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية، وهي الفترة التى انشغل بضم بعض الجزر التى استولى عليها من اليابان واخماد تمرد البحرية الروسية كروتستاد ومساءلة الجنرال كراسنوف الذى قاد جيشاً روسياً لتقويض النظام السوفيتي.

وفى الرواية التى ألفها أندريه سنيافسكى عام ١٩٦٠ بعنوان «بدأت المحاكمة» (أنظر كتابى « من ستالين إلى جورباتشوف» مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة عام ١٩٩٦) يصور المؤلف حالة العجز والشلل الكامل التى أصابت الشعب السوفيتى نتيجة وفاة ستالين الذي كان الشعب يعتمد عليه اعتماداً كلياً فى كل كبيرة وصغيرة. يقول سنيافسكى فى روايته: «لقد مات الرئيس وبدت المدينة خالية كما لو كانت صحراء. وشعر المرء وكأنه يجلس على عجزية رافعاً رأسه وينبح ككلب شريد». وفى تصويره للطاغية ستالين لم يجد سنيافسكى أنسب من استخدام الرمز والمبالغة. وهو نفس ما

فعله فاسيلى آكسيونوف فى قصيدته «الطائر المصنوع من الصلب» التى أثارت اهتمام اتحاد الكتاب السوفييت بها فى عام ١٩٦٦، ولكنها لم تنشر بسبب مصادرتها. ويحث سنيافسكى المطحونين والمظلومين علي رفض الظلم ورفض الاعتياد عليه حتى لا يصبح شيئا مألوفاً فى حياتهم. وتتضمن رواية «الليلة الطيبة» (١٩٨٤) جانباً من سيرة حياة مؤلفها سنيافسكى بعد هجرته إلى الغرب. والرواية تستحضر صورة ستالين بعد وفاته وكأنه لا يزال حياً يرزق.

صورة كوميدية لستالين :

تعتبر رواية «الدائرة الأولى» التى ألفها سولجنتسين بعد وفاة ستالين أول محاول لتصوير هذا الديكتاتور بطريقة كوميدية. ثم حذا حذوه عدد من الكتاب الآخرين أمثال أناتولى جلاديلين وفلاديمير فونيفيتش وإسكندر فازل والكسندر زينوفييف ويوز اليشكوفسكي. ومن نافلة القول إن رسم صورة مضحكة لدى إنسان ينتفخ زهواً بنفسه هو أفضل وسيلة لفش نفخته الكاذبة. ومن ثم فهى أفضل طريقة لتحطيم أسطورة عبقرية ستالين التى لا تخطىء أبداً.

نبدأ بقصة أناتولى جلاديلين «بروفة يوم الجمعة» التى نشرها عام ١٩٧٨ بعد هجرته من الاتحاد السوفيتى إلى الخارج. وتصور هذه القصة عودة ستالين إلى الحياة بعد موته وبعد أن مضى على وفاته واحد وعشرون عاماً. بعث ستالين حياً في عهد بريجينف فأشاع بعثه الفوضى وانتاب الفزع والهلع الحزب الشيوعى ورجال الصناعة السوفيت الذين كانوا يخشون عودة الستالينية وحملات التطهير ومبدأ عبادة الفرد. ومع ذلك فإن الكثيرين كانوا فى شوق إلى عودة القيم والمبادىء الستالينية. ولكن مجلس السوفيت الأعلى (البوليتبيرو) يرفض أن يعود ستالين إلى نشاطه القديم لأن ابنته سفيتلانا هاجرت إلى الولايات المتحدة عدو البلاد رقم ١. ولم يغضب ستالين من هذا الرفض بل اعتبره قراراً حكيماً. وتنتهى رواية جلاديلين بوضع ستالين رهن الاقامة الجبرية في ضيعة ريفية بقية أيامه فى عزلة تامة.

وفى عام ١٩٧٦ نشر فوينوفتش رواية «حياة العريف ايفان تشونكن مغامرات غير العادية» وفيها نجد أن ستالين ليس له وجود مادى ملموس بل له وجود غير منظور وغير

محدد المعالم وينذر بالخطر والتهديد. ويسخر فوينوفتش من مبدأ عبادة الفرد ومن الاشارات إليه لا تنتهى فى الخطابات والوثائق الرسمية ومن ضرورة شرب نخبه في أية حفلة أو وليمة تقام. ومن الرعب الذي ينتاب الناس عند ذكر أسمه. وتحدثنا الرواية عن المجند البسيط تشونكن الذي يدين بالولاء الكامل لستالين ويتطلع إلى تأدية واجبه نحوه. ولكنه رغم ايمانه المطلق بستالين فإنه يعجز عن فهم ازدواجية المعايير الأيديولوجية السوفيتية. وتطوف بمخيلة هذا المجند مجموعة من الأحلام من شأنها أن تلقى الضوء على حقيقة شخصية ستالين المنتقمة التى تبيح سفك الدماء. ويتجرأ هذا المجند الساذج فيسأل القوميسار السياسى إذا كان ستالين متزوج من امرأتين. ويظهر هذا القوميسار فى حلم يطوف بمخيلة المجند فى شكل خنفس ليجيب عن سؤاله بأن ستالين امرأة ولا يستطيع الزواج. وتبلغ هلوسة هذا المجند ذروتها عندما يظهر ستالين على طبيعته وقد أصبح مثل دجاجة محمرة تحيط بها الخضراوات. هذه الصورة لستالين المفرطة فى الخيال والفانتازيا ليست غريبة ومضحكة فحسب بل تعطى

الانطباع بشذوذ أفعاله. وفي عام ١٩٨١ نشر حوار مع فوينوفتش حول تكنيكه الروائى الذى يسميه «الواقعية الخيالية» فاعترف بأنه يسير على نفس الدرب الذي سبقه إليه كل من جوجول وبولجاكوف. يقول مؤلفنا فى معرض هذا الحوار: «أنا جزء من تيار وليست الواقعية هى الشاطحة فى الخيال. ولكن الواقع هو الذي يشتط فى الخيال».

وفي عام ١٩٧٩ ألف فوينوفتش الجزء الثانى من الرواية الآنفة الذكر تحت عنوان «تشونكن الذى يدعى أحقيته فى العرش» وفيه يصور كلا من ستالين ورئيس مخابراته برياً على نحو مضحك. ومن الخطأ أن نعتقد أُن فوينوفتش اخترع كل أحداث الجزء الثانى من نسج خياله، فبعض تفاصيله مستمد من الواقع مثل انشائه مخبأ تحت سطح الأرض يحتوى على حجرة شبيهة بحجرة مكتبه فى الكرملين. والرأى عند كل من فوينوفتش وجروسمان أن هناك أوجه شبه بين ستالين وهتلر فبريا يتملق ستالين تماماً كما يتملق هملر رئيسه هتلر. يقول المؤلف فى معرض زرايته بهتلر: «ومثل كل ديكتاتور لم يكن هتلر قاسياً فحسب بل صاحب عواطف فجة

ومنهمرة. فبينما هو يخطط لابادة شعوب متنوعة يريد فى هذه الشعوب (اليهود والغجر والبولنديين والروس) أن يحبوه باعتباره محررهم» .

وفى عام ١٩٦٧ كتب فوينوفتش قصته «دائرة الأصدقاء» صور فيها حفلات السكر والعربدة التى كان ستالين يقيمها لأعضاء مجلس السوفيت الأعلى. ورغم قرب قصته فى بعض أجزائها من الواقع فإن المؤلف يزعم أنها من نسج الخيال تماماً وأن اقترابها من الواقع جاء بمعنى الصدفة. وهو يصور ستالين كمهرج يخلع شاربه المستعار وينبذ غليونه عندما يخلو إلى نفسه. وهو ممثل بارع يتظاهر بالنوم عندما يتحدث إليه مرؤسوه. وعندما يترك غرفته فى الكرملين فإنه يضع دمية تشبهه قرب النافذة المضاءة حتى يقتنع الناس انه لا يغمض له جفن وأنه يسهر على راحتهم ورفاهيتهم. والانطباع الذي يسعي فوينوفتش إلى تركه فى قرائه أن ستالين لا يعدو أن يكون أكذوبة كبرى تدعو إلى الضحك وليس ذلك الشيطان الرجيم الذى يبعث الرهبة والخوف فى النفوس. وحتى ينال فوينوفتش من ستالين يصوره كشخص

سطحى وتافه يهوى قطع الصور في المجلات. فضلا عن أنه - وهذه حادثة واقعية بالفعل - أجبر خروتشوف على الرقص بطريقة أهل أوكرانيا.

يقول الناقد نيل كورنويل إن العنوان «دائرة الأصدقاء الذى اختاره فونيوفتش لقصته يوحى بتأثره بشكل أو آخر برواية سولجنتسين «الدائرة الأولى»، ولكن طريقته على آية حال تختلف تماماً عن طريقة سولجنتسين. يقول فوينوفتش: «إن شخصية سولجنتسين لا تستغنى عن التلقين واعطاء الدروس كل يوم فى حين أن شخصيتى مختلفة. فأنا لا أرغب فى أن أعلم أحداً أو أعطى نصيحة لأحد. أنا أهتم بالوصف ولست معلماً مثل تولستوى أو سولجنتسين. وستالين كما يصوره سولجنتسين يتهرب من مواجهة نفسه وبشاعة أفعاله، فى حين أن ستالين كما رسمه فوينوفتش يصارح نفسه فهو يعترف بأنه أباد ملايين الناس ودمر الزراعة السوفيتية وأشاع الإرهاب كى يحكم قبضته على العباد.

وتصور رواية إسكندر فازل التى ألفها بعنوان «ساندرو تشيجيم» تدمير الحضارة القديمة في بلاد أفجازيان

واستعمارها وتحويلها إلى منشآت جماعية على يد المستعمرين الروس. ويستخدم اسكندر بعض الأساليب الكوميدية التى يستخدمها فونيوفتش ولكن الكوميديا عند اسكندر سوداء وتنذر بالشر المستطير.

ورغم أن اسكندر يخترع أحداثاً روائية من نسج الخيال فإن روحها الواقعية تتطابق مع ما أورده خروتشوف في مذكراته فعندما يدعو ستالين المقربين إليه إلى مأدبة يسمح لهم بأكل ما يشتهى ولكنه يرغمهم على احتساء الشراب الذي يروق له. وهو يجد متعة شريرة فى معايرة أصدقائه فهو يرغم زوجته على الرقص رغم إرادتها ويتعمد أن يحرق أصبع كالينين وهو يشعل له عود كبريت كما أنه هوائى متقلب المزاج وسريع الغضب. وهو يستمتع بالألعاب المرعبة ويحلو له أن يرى لاكويا يضع بعض البيض فوق رأس طباخ ثم يطلق الرصاص على هذا البيض. وأغلب الظن أن اسكندر تأثر برواية «الدائرة الأولى» لسولجنتسين فى قوله إن ستالين اعتبر نفسه شهيداً لأنه ضحى بكل سعادته في سبيل خدمة شعبه. وأيضاً تتشابه الصورة التى رسمها كل من هذين الروائيين

لستالين كإنسان يعانى من الوحدة القاتلة.

ومن الأعمال الهجائية التى كتبها أصحابها للنيل من ستالين تلك الرواية التى ألفها زينوفييف عام ١٩٧٦ بعنوان «المرتفعات تتثائب» ويسخر زينوفييف من عبادة ستالين مصوراً إياها بعمليةتمجيد لقضيب هذا الزعيم. تقول الرواية في هذا الصدد: تم تأليف الأغانى تكريماً لقضب الرئيس وسميت المدن باسم هذا القضيب. وسارت المواكب لتمجيده. وكذلك أقيمت دورة مياه (مبولة) على شرفه. فجاء الفنان الحائز على أرفع الجوائز ليرسم صورة ضخمة لقضيب الرئيس اثناء أداء هذا القضيب وظيفته وقد جلس عليه (كراكب الخيل) جميع الزعماء ورجال الدولة فى أوربا وأمريكا. وبهذا رسم زينوفييف صورة هزلية ساخرة ومضحكة لستالين. وكذلك يرى زينوفييف أن ستالين شخص غير متعلم يقحم نفسه في الشئون التي لا يفهمها مثل علم اللغة والفنون. كما أن عقليته عقلية رئيس قبيلة كل ما يهمه ويشغل باله السيطرة الكاملة على قبيلته. ويعدد زينوفييف جرائم ستالين وفظائعه التى استفاد منها سولجنتسين عندما

توفر على تأليف رواية «أرخييل الجولاج».

وأيضاً يعتبر يوز أليشكوفسكي السجين السابق في معسكرات العمل والذي هاجر إلى الغرب عام ١٩٧٩ واحداً من الكتاب الذين عالجوا شخصية ستالين على نحو فكه. ألف أليشكو فسكي قصته «حيوان الكانجارو» في عام ١٩٧٤ - ١٩٧٥ في فترة وجوده في الاتحاد السوفيتي. وهي قصة مضحكة تدور حول اتهام رجل بالتحرش الجنسي واغتصاب الحيوانات، إلى جانب اتهامه اتهاماً غير معقول بأنه أقدم على قتل أكبر حيوانات الكانجارو سناً في حديقة الحيوان في موسكو أثناء ساعات الليل في الفترة من ١٤ يوليه عام ١٧٨٩ (وهو تاريخ الثورة الفرنسية) إلى ٥ يناير عام ١٩٠٥. ويهدف المؤلف في وراء هذه التهمة الغريبة أن يبنى لا عقلانية محاكم التطهير التى أقامها ستالين. ويقول أليشكوفسكي ساخراً من ستالين أنه عند انعقاد مؤتمر يالنا عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية انه استطاع استغفال كل من تشرشل وروزفلت، ولكن رجل ستالين اليسرى (التى يتصور الكاتب أنها تتكلم) تكيل لصاحبها الاهانات والشتائم القاذعة. هذه الرجل اليسرى

التى تمثل ضميره تصوره على حقيقته رغم كل ما يلقاه من تأليه وتمجيد فهى تخاطبه بقولها: «يافتحة شرج كل الأزمنة ويابراز كل الشعوب». وتنحى رجله اليسرى (التى تمثل ضميره الداخلى) عليه باللائمة وتقرعه وتقترح عليه أن يجرى تغييراً شاملاً وكلياً فى حياته وأن يتخلى عن مبادىء الماركسية وفى عام ١٩٩٤ قرر سولجنتسين العودة إلى بلاده بعد انهيار الاتحاد السوفييتى عام ١٩٩١.

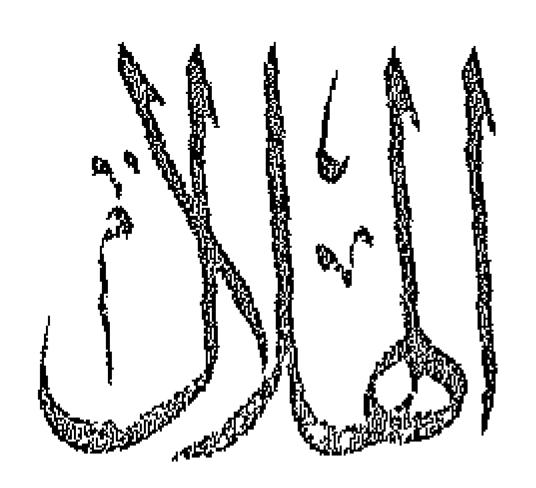
واللينية. وأن يعيد إلى الفلاحين الأرض التى اغتصبها منهم. وفى عام ١٩٨٠ ألف أليشكوفسكى. رواية بعنوان «اليد» حاول فيها تقديم تحليل عميق لنفسية ستالين بأسلوب كوميدى فكه. ويحطم هذا المؤلف أسطورة ستالين ويهزأ بها عن طريق رسم صورة لطبيب يجتاحه الاعجاب وتتملكه الدهشة حين يمسك بقضيب ستالين واصفاً إياه بأنه قضيب «تاريخى» و«وضاء» يعجز المرء أن يوفيه حقه فهو يحتاج إلى شاعر ملحمى كبير فى قامة دزاييف. وتبين لنا رواية «اليد» أن الدافع الذي يحرك ستالين هو الحقد والخوف. فهو يكره الفكر الماركسى واللينينى رغم أنه يقوم على خدمته. وينبع

احتياجه الدائم إلى التأليه والتقريظ من شعوره الدفين بعدم الأمان. كما أنه يعانى في عقده الاضطهاد ولا يستطيع أن يتصور أن كراهية الناس له نقل عن كراهيته لهم. ولهذا فهو دائم الانشغال والتفكير فى تصفية من يتصور أنهم يتآمرون ضده. وهو لا يعاني من عقدة الاضطهاد فحسب بل من عقدة النقص. الأمر الذي يدفعه إلى الممارسات السادية. ورغم كل مظاهر الاجلال والتبجيل فإنه يدرك تفاهته.

الفهـــرس

القسم الثانى :

عدد فبراير ٢٠٠٦ — الثمن ٤ جنيهات



مجلة الفكر والثقافة الأولى فى مصر والعالم العربى

هلال ممتاز

الدور السياسى للأزهر.. التاريخ والحاضر

الهلال

وثيقة خطيرة

أمين الريحانى

جاسوس أمريكى

تقرأ فى هذا العدد

- وثائق الدكتور محمد أنيس

  رئيس التحرير

- أمريكا وسياسة الهيمنة :

  ملف خاص يشترك فى كتابته

  مصطفى سويف - السيد أمين شلبى

  محمود سليمان - على بركات

  شبل بدران - رجائى عطية

- النورس يطير جنوباً على أنغام السمسمية

  تقرير خاص : محمد هيكل

مع الأبواب الثابتة :

الثقافة والفن والشعر ونافذة خاصة للمبدعين

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
مجدى الدقاق

كتاب الهلال القادم :

اغتيال الديمقراطية
لعبة المخابرات الأمريكية

للكاتب الصحفى
عبدالقادر شهيب

يصدر: ٥ مارس ٢٠٠٦

رئيس التحرير: مجدى الدقاق

أحدث اصدارات كتب الهلال عامى ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦

الإسلام والدولة المدنية	د.عبدالمعطى محمد بيومى	فبراير	٢٠٠٥
فى أصول المسألة الحضارية	د.أنور عبدالملك	مارس	٢٠٠٥
الجماعة الوطنية العزلة والإندماج	طارق البشرى	ابريل	٢٠٠٥
أرثر ميللر أبو المسرح الأمريكى	د.عبدالعزيز حمودة	مايو	٢٠٠٥
مسيرتى ومصر نحو القرن الحادى والعشرين	د.مصطفى سويف	يونيه	٢٠٠٥
صدمة الإنترنت وأزمة المثقفين	د.أحمد صالح	يوليه	٢٠٠٥
أحمد حسنين أسرار السياسة والحب	محمود صلاح	أغسطس	٢٠٠٥
مصر والإصلاح السياسى	د.يونان لبيب رزق	سبتمبر	٢٠٠٥
الإنسان والكون والحياة	رجائى عطية	أكتوبر	٢٠٠٥
حكاية الفن والنجوم	ألفريد فرج	نوفمبر	٢٠٠٥
بين موسكو وواشنطن	د.السيد أمين شلبى	ديسمبر	٢٠٠٥
مدائم جلطة المخ	حلمى سالم	يناير	٢٠٠٦

مفاجأة هلال ديسمبر

الرئيس مبارك يهنئ نجيب محفوظ ويكتب للهلال



رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
مجدى الدقاق

رقم الإيداع :
٢١١٣٧ / ٢٠٠٥

I.S.B.N.

977 - 07 - 1168 - 3

هـــذا الكتـــاب

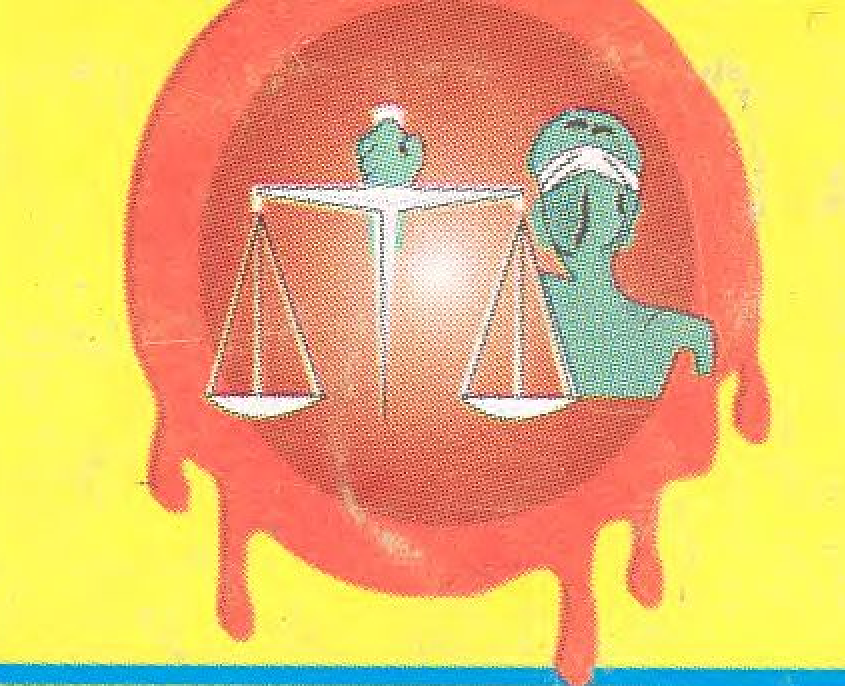

د. رمسيس عوض

مؤلف هذا الكتاب هو الدكتور رمسيس عوض استاذ الأدب الانجليزى المتفرغ فى كلية الألسن جامعة عين شمس، عرف الدكتور رمسيس عوض بأبحاثه الجريئة الرائدة واقتحامه للموضوعات الشائكة، كما عرف باهتمامه بدراسة ظاهرة الانشقاق فى الأدب السوفيتى، فقد قدم عام ١٩٩٢ كتابا بالغ الأهمية بعنوان «أدباء روس منشقون فى عهد جوزيف ستالين عالج فيه ابرز الأدباء المنشقين على هذا الطاغية أمثال ياسينين وأخماتوفا وبابل ونسفيتفا .

ألف الدكتور رمسيس عوض عددا من الموسوعات غير المسبوقة: موسوعة المسرح المصرى الببلوجرافية - موسوعة محاكم التفتيش - موسوعة اليهود فى الآداب العالمية - موسوعة الرقابة والأعمال المصادرة .

أشهر الحوادث والقضايا

الحوادث العنيفة والقضايا المثيرة
التى روّعت الناس وصدمت المشاعر



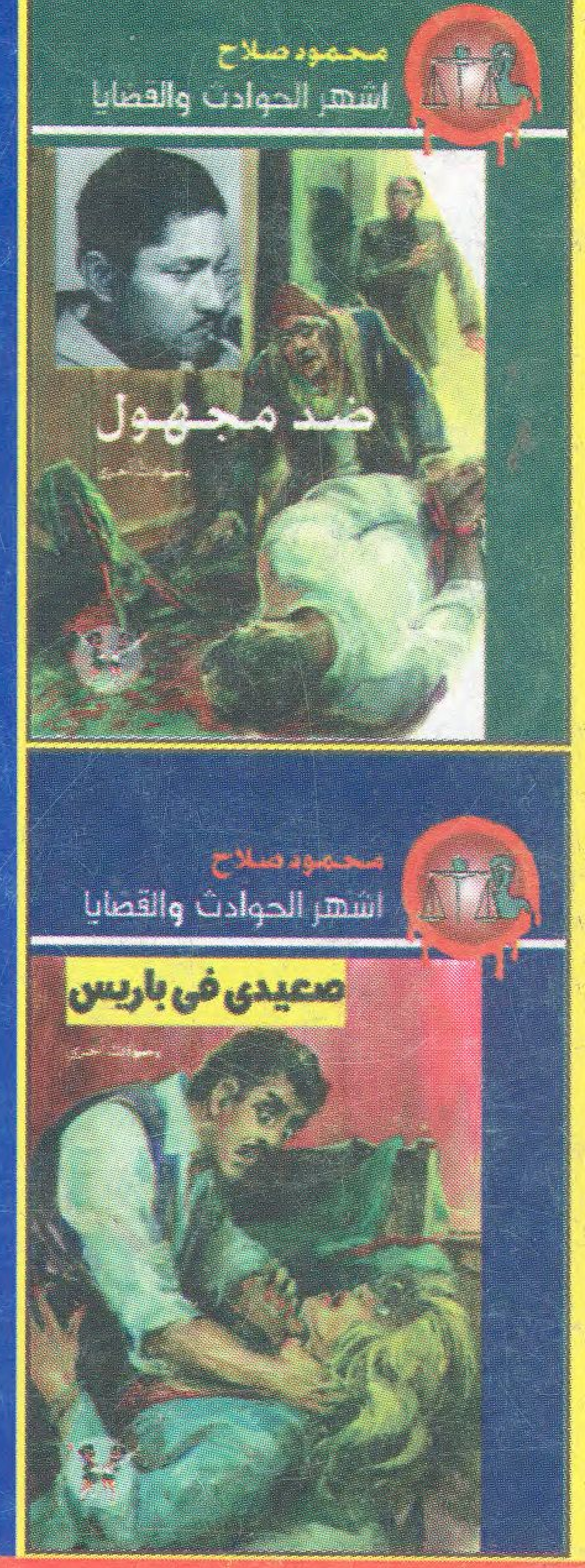
محمود صلاح

اشهر الحوادث والقضايا

طلاق الملك أحمد

وحوادث أخرى

محمود صلاح



طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع : ٨ ، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة ت : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ . فاكس : ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع -